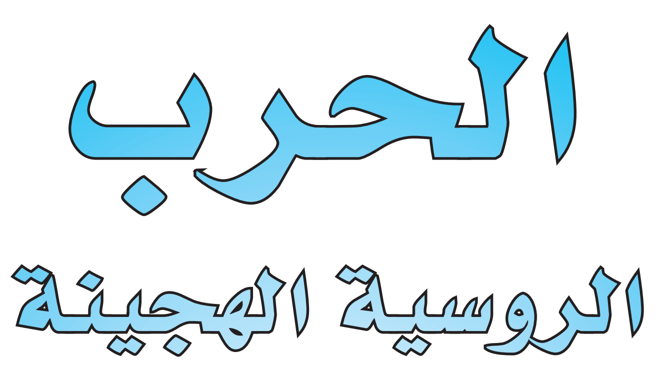

الحرب
الهجينة الروسية
الطفرة والإستخدام السياسي
NORS
Studies
مركز نورس للدراسات
تأليف
أوفير فريدمان
ترجمة
ضرار الخضر



مركز نورس للدراسات يقدم ترجمة حصرية لكتاب



الطفرة والاستخدام السياسي

تأليف

أوفير فريدمان

يسر ادارة مركز نورس للدراسات أن تقدم للقارئ العزيز درّة أعمالها المترجمة فيما يخص الحرب الهجينة.

الكتاب يعتبر من الكتب التأصيلية والشارحة لهذا المفهوم على المستوى الاستراتيجي وليس التكتيكي كالكتب والأبحاث التي ترجمها المركز.

يعالج الكاتب في كتابه أصل المفهوم، تطوره، استعماله في ثلاث مدارس رئيسية "روسيا، الناتو، أمريكا".

كما ويعين هذا الكتاب بعد توفيق الله القارئ العزيز على تقعيد مفاهيم هذا النموذج من الحروب وبالتالي فهم تفريعاته واستخداماته.

تعتبر المكتبة العربية من أفقر المكاتب بالكتب العلمية الأصيلة الشارحة لمفهوم الحرب الهجينة ولذلك نعتبر هذا الكتاب أبرز إضافة للمكتبة العربية العسكرية ونقلة نوعية لها في ادخال هذا المفهوم على القارئ العربي راجين من الله التوفيق والقبول والسداد.

ملاحظة:

لم يكتف مركز نورس بترجمة الكتاب فقط بل أضاف ما يسهل الشرح للقارئ ولعل أبرز الإضافات التي وضعها المركز في الكتاب:

1: الهوامش الشارحة أسفل الصفحة.

2: المحلق الثاني (ملخص لكتاب الحرب المفتوحة لضابطان صينيان) والثالث في نهاية الكتاب.

3: إعادة نحت العديد من المصطلحات الأعجمية بما يتناسب مع روح اللغة العربية.

شكر:

تتوجه إدارة المركز بالشكر لكل من:

المترجم: ضرار الخضر

مصمم الغلاف: مصطفى السكر

فريق التدقيق اللغوي

أوكسفورد

العنوان: *الحرب الروسية الهجينة: الطفرة والاستخدام السياسي للكاتب فريدمان.*

الوصف: أوكسفورد (المملكة المتحدة)، نيويورك، مطبعة جامعة أوكسفورد، 2018

إن مطبعة جامعة اوكسفورد جزء من جامعة اوكسفورد، وهي تعزز أهداف الجامعة في الأبحاث الأكاديمية والزمالة العلمية والتعليم عبر نشرها في جميع أنحاء العالم، واوكسفورد هو ماركة تجارية مسجلة لمطبعة اوكسفورد في المملكة المتحدة وبلدان أخرى معينة.

نشرت مطبعة جامعة اوكسفورد هذا الكتاب في الولايات المتحدة الأمريكية.

إن كانت الأفكار تفسد اللغة، فاللغة يمكن أيضا أن تفسد الأفكار، فالاستخدام السيء يمكن أن ينتشر بالوراثة والتقليد، حتى بين الناس الذين ينبغي لهم فعل الأفضل الآن.

جورج أورويل 1946

شكرٌ وتقدير

إنني مدين للعديد من العلماء والباحثين الذين يمكن أن نرى بوضوح آثار إخلاصهم في الكتاب، وهم ليسوا جزءاً من الجدل الذي أثرته ولا يتحملون المسؤولية عن أي أخطاء أو هفوات في الكتاب، فأنا من يتحمل كامل المسؤولية عن أي رأيٍ أو زلل وأتحملها وحدي.

ولم يكن هذا العمل ليرى النور لولا المساعدة الكريمة بلا مقابل من العديد من الناس، ولهم أعبّر لهم عن امتناني، وفي المجال الأكاديمي أوجه شكراً خاصاً لبيتريس هوسر التي أُكنُّ لها امتناناً عظيماً، فقد حظيت بالاستفادة من معرفتها المنهجية الموسوعية ومن ملاحظاتها ودعمها المستمر والذي كان على الدوام قيّماً، ومن تعقيباتها ونصائحها أثناء المراحل الأوليّة لبحثي هذا. كما أشعر بامتنان خاص لفرانك هوفمان الذي شجّعني بمساعدته ودعمه على المضي قُدُما في بحثي. كما يصل الشكر الى ديريك يومان على ملاحظاته المفيدة على ترجمتي "للحرب المفتوحة".

خلال عملي لإتمام هذا المشروع كنت محظوظاً بقضاء وقت مثمر للغاية في مركز الكينج للاتصالات الاستراتيجية في كلية الملك في لندن، ولأنهم جعلوا وقتي أكثر إثماراً أتوجه بخالص التقدير لنيفيل بولت الذي مضى في مساعدتي لحدٍ تجاوز توقعاتي، وإلى دايفيد بيتز الذي أفادتني نصائحه القيِمة أيما إفادة، وباقي أعضاء فريق المركز الذين لطالما أفادوني بملاحظاتهم القيّمة. كما أود أن أشكر ساجت كارميلي لإخلاصها ومهارتها في الكتابة ولها الفضل بتحويل أفكاري المتناثرة الى نص مقروء– فهذا العمل لم يكن ممكناً دونكِ.

كما أود أن أعبّر عن امتناني لأصدقاءٍ وأقاربٍ يضيق المقام عن ذكرهم جميعاً، والذين لم يكونوا يعلمون ما أفعله على وجه الدقة أو لماذا أفعله لكنهم آمنوا بي وبمشروعي، إنني أشكركم جميعاً على ثقتكم بي حتى عندما افتقدت هذه الثقة.

وأخيرا وليس آخراً، أودُّ أن أشكر مؤسسة جيردا هنكل لدعمها المستمر لهذا المشروع، وتوماس بودرانسكي مدير مشروع "الأمن والمجتمع والدولة" الخاص الذي ساعدني في حل قضايا عديدة معقدة.



مقدمة المؤلف

بدأتُ اهتمامي بما يسمى الحرب الهجينة أواخر عام 2015 عندما شق كتابان طريقهما إلى طاولتي، وكان الأول بعنوان رد الناتو على تهديدات الحرب الهجينة، ويتألف من بحثين من كلية الدفاع الاوروبية في روما للكاتبين غليوم لاسكونجاريس[1] وجيفري لارسن[2], أما الكتاب الثاني بعنوان "الحروب الهجينة في فوضى القرن الحادي والعشرين" للكاتب بافل تسجانكوف[3] البروفيسور في جامعة لومونوسوف الحكومية الروسية. وبما أن أحد الكتابين كُتِب في الغرب والآخر في روسيا فقد توقعت أن أجد آراءً وتفسيرات مختلفة للكثير من الأفكار المتشابهة، خصوصاً وأن الكتابين يدّعيان أنهما يتعاملان مع نفس الظاهرة وهي الحرب الهجينة، لكن عندما قرأت الكتابين فوجِئت بأن الكتابين لا يتشابهان سوى في العنوان.

وتحت تأثير هذه الخديعة مضيت في رحلة بحث الى شواطئ المعلومات الاكاديمية والعسكرية والسياسية العلمية بحثاً عن طبيعة الحرب الهجينة في الصراعات المعاصرة في روسيا والغرب، وهذه الرحلة قادتني لدراسة العديد من المفاهيم النظرية ووجهات النظر، وكانت بعض هذه النظريات أكثر فائدة من بعضها الآخر, وكان بعضها تحدياً فكرياً، بينما حاول بعضها إعادة اختراع العجلة، وكان بعضها صلباً أكاديمياً نال قدراً جيداً من البحث، بينما كان البعض الآخر مملوءً بالتناقضات.

ومع المضي قُدُماً في البحث سرعان ما اكتشفت أن مفهوم الحرب الهجينة استُخدِم على نحو سياسي في كل من الغرب وروسيا، وهو المفهوم الذي أُريد منه في البداية أن يقدِّم فهماً عن طبيعة الصراعات المعاصرة التي سُلِّحَت وأصبحت أداة للمناورة الداخلية للحصول على التمويل وجذب الرأي العام في روسيا والغرب وكذلك وسيلة للترهيب في العلاقات بين الطرفين.

[1] فرنسي حائز على شهادة الدكتوراه في التاريخ ومتخصص في الأبحاث حول التحولات، مع التركيز على حروب العصابات والحروب والعمليات التقليدية والعقيدة القتالية والتدريب العسكري الاحترافي.

[2] بروفيسور باحث في قسم الشؤون الأمنية الوطنية في البحرية الامريكية، يهتم بتدريس: السلاح النووي والسياسة، السيطرة على السلاح، الناتو، السياسات الأوروبية الدفاعية والخارجية المقارنة، السياسة الخارجية والدفاعية الروسية.

[3] بروفيسور في قسمي العلوم السياسية والعلاقات الدولية في جامعة لومونوسوف الحكومية الروسية، يدرّس المقارنة بين الحقبة السوفياتية والروسية، والعلاقات الدولية منذ سنة 2000. ولديه مساهمات في المجال الأكاديمي الروسي والغربي.

في تحليلهم للرد الروسي على الأزمة الاوكرانية سنة 2014، دفع الخبراء بأن الكرملين تبنَّى الحرب الهجينة كاستراتيجية له في اوكرانيا, وفي المقابل ادّعى العديد من الاستراتيجيين والمراقبين السياسيين الروس أن الغرب هو من يشن حرباً هجينة ضد روسيا، ويهدف هذا الكتاب لشرح الأسباب وراء هذه الكَيديّة المتبادلة. ماذا تعني الحرب الهجينة في الغرب؟ وكيف تراها العيون الروسية؟ هل النظرتان متماثلتان؟ وإن كانت الإجابة لا فما هو الفرق؟ ولماذا أصبح مصطلح الحرب الهجينة وجبريدنايا فوينا (الحرب الهجينة باللغة الروسية) مستخدماً بشكل سياسي مفرط في روسيا والغرب منذ الأزمة الاوكرانية؟ وهل باتت روسيا والغرب يتصرفان بشكل يتطلب تعريفاً جديداً لمفهوم الحرب، أم أن المفهوم نفسه عنوان جديد لمفهوم قديم؟

إن الاجابة على هذه الأسئلة هي المحور الأساسي لهذا البحث. وهذا الكتاب لا يركّز على الأزمة الاوكرانية بالذات بل إنه يتطرق الى الفروق الجوهرية بين الحرب الهجينة وفقاً للمفهوم الغربي والروسي وكل المفاهيم الأخرى التي سبقت هذين المفهومين ورافقتهما وعاشت معهما وفقاً للمدرستين الروسية والغربية، كما يحاول هذا الكتاب استيعاب كيف شكّلت القوى السياسية تفكيراً مفاهيمياً مما سهّل على أحد الأطراف اتهام الطرف الآخر بخرق القانون وفي الوقت نفسه تفنيد انتقادات خصومهم باقتراف أي جنحة.

ما يتناوله هذا الكتاب (وما لا يتناوله):

لا يتناول هذا الكتاب الحرب الهجينة كممارسة فعلية، فهو لا يناقش التكتيكات التي يسمّيها المحللون الغربيون الحروب الروسية الهجينة أو الإعلامية أو الرقمية (عبر الاختراق السيبراني والتسريبات والاشاعات عبر الانترنت والتضليل الاعلامي وما يقوم به مؤيدون لروسيا أو وسائل إعلام تموِّلُها روسيا من حملات دعاية مكثفة)، ولا الأفعال التي يصفها الخبراء الروس بالحرب الغربية الهجينة، ولا يعني هذا أنها غير مهمة بل هي مهمة ولا شك، لكن اختبارهم مشابه لعملية

تحليل أسلحة مختلفة وطرق نشرها أكثر من تقصي الطبيعة الحقيقية للصراع، كيف تتشكل مفاهيمه لدى كل طرف ومن أين تأتي هذه الأفهام المختلفة وكلاهما على ذات الدرجة من الأهمية رغم انهما متعارضتان.

يتعامل هذا الكتاب مع خطاب وتصورات العداوة المستمرة بين روسيا والغرب والتي وُضِعَت لها المفاهيم والمصطلحات السياقية في لغة الحرب الهجينة، وهذا الكتاب –قبل كل شيء– يتناول الحرب الهجينة، وبما أنه يوجد خط رفيع جداً بين كل ما يتم تصوّره على أنه الحقيقة والحقيقة نفسها وبما أن اللغة هي الوسيلة الوحيدة لوصفهما كلاهما، فالخطاب المحيط بالمفهوم يهدف لتجاوز هذا الخط فقط. ودون الغوص في المصطلحات النظرية للتفسير. فمن الصعب الهرب من حقيقة أن عوامل سياسية معيّنة على كلا الجانبين استفادت من خطاب العداوة المستمر, فقد ارتفعت موازنة الدفاع في روسيا والناتو، وحتى السويد التي لا تتمتع بعضوية الناتو أجرت تقييماً للتجنيد الاجباري، والناتو الآن ينشر القوات في شرق أوروبا بشكل لم يسبق له مثيل منذ انتهاء الحرب الباردة، كما جدد الكرملين من رحلات القاذفات الاستراتيجية، كما ينتجون قطعاً عسكرية جديدة على نحو شهري تقريباً.

ورغم أنه لا روسيا ولا الغرب يدّعون أنهم يريدون تكرار الحرب الباردة إلا أنه يبدو أنهما يحدّثان نفسيهما بذلك السيناريو بالضبط، **فعند تحليل اللغة التي يستخدمها كلا الطرفين لوصف الوضع الذي يجدون أنفسهم فيه (أو تصوراتهم عنه) من الصعب تجنب النتيجة بأن إطلاق عنوان جديد لمرحلة جديدة من المواجهة (الحرب الهجينة) لا يغير حقيقة طبيعتها، لا شك أن المواجهات اليوم مختلفة تماماً عما عايشه العالم خلال الحرب الباردة**، لكن الحرب العالمية الثانية كانت مختلفة تماماً عن الحرب العالمية الأولى: فقد كانت الأسلحة أشد تدميراً والتكتيكات أشد تعقيداً والنتائج أشد كارثية، لكن في الوقت نفسه كانت طبيعة الحربين بلا شك متشابهة للغاية: فقد كانتا حربين شاملتين –الى حد ما– خاضتهما ذات الأطراف.

في تحليل الطرق التي وُضِعت بها مفاهيم الحرب الهجينة الروسية في الغرب، وكيف يُنظَر الى الحرب الهجينة الغربية في روسيا، يهدف هذا الكتاب الى استكشاف طبيعة المواجهة بين الطرفين أكثر من الأسلحة والتكتيكات المستخدمة، حيث أن الفهم الحقيقي لطبيعتها هو فقط ما يسمح بتحديد ما إن كانت الحرب الهجينة هي مجرد حرب باردة ثانية أم إنها حقاً شيء جديد تماماً.

لسوء الحظ يبدو أن الاحتمال الأول هو الأقرب الى الحقيقة، فالغرب بات مهووساً مجدداً بالهاجس الروسي (الدولة الحمراء وراء كل ضراء)[4] وهي العقلية التي تفترض أن الكرملين يقف وراء حرب هجينة جديدة (أعداء الشعب). وفي النهاية وعلى أي حال فإن مسألة إن كانت المواجهة بين الغرب وروسيا تسمى حرباً باردة جديدة أم حرباً هجينة فهو أمر لا أهمية كبيرة له، بل ما يهم حقاً هو اللغة المستخدمة لوصف هذه المواجهة، لأن اللغة هي التي تصوغ فهمنا للحقيقة, وهذا بالذات موضوع هذا الكتاب.

أخيراً يجب الانتباه الى أن هذا الكتاب لا يركّز على المفهوم السوفياتي "للتدابير الفعّالة" [5]–قلب وروح الاستخبارات السوفيتية– والتي كانت تهدف وفقاً للجنرال المتقاعد في الكي جي بي أوليغ كالوجين الى:

إضعاف الغرب وزعزعة تحالفات المجتمعات الغربية من أي نوع وخصوصاً الناتو، وزرع الشقاق بين الحلفاء، وإضعاف الولايات المتحدة في عيون الشعوب الاوروبية وفي آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، وبالتالي تهيئة الأجواء في حال اندلعت حرب جديدة لتكون أمريكا أكثر عرضة للغضب والارتياب بالشعوب الأخرى.

[4] انتشرت هذه المقولة بشكل خاص ما بين عامي 1947 و1957 حيث تميَّزت هذه الحقبة بالتوجس الشديد من تسلل أو غزو سوفياتي، حيث كان الأمريكيون العاديون يخشون من أن الشيوعيين يعيشون بينهم سراً.

[5] مصطلح يشير الى الأعمال في الحرب السياسية التي تقوم بها أجهزة الأمن السوفياتية والروسية (تشيكا، أو جي بي يو، إن كي في دي، كي جي بي، إف إس بي) للتأثير على الأحداث العالمية وجمع المعلومات الاستخباراتية وتقييمها سياسياً.

ويوجد سببان لهذا: **الأول** أن التدابير الفعالة نوقِشَت كثيراً في الغرب **والثاني** والأهم أن مفهوم التدابير الفعّالة أضحى منبوذاً على نطاق واسع في الخطاب الروسي المعاصر سواء الأكاديمي منه أو العسكري أو السياسي، ولهذا أسباب عديدة: بدءاً بالرغبة بالابتعاد عن مخلفات حقبة الاتحاد السوفياتي مروراً بخيبة الأمل المريرة من مفاهيم فشلت خلال الحرب الباردة، وانتهاءً بالمحاولات الجادة لبناء شيء جديد وأكثر فاعلية.

وربما يجد العديد من القرّاء تشابهاً فكرياً بين مفهوم الحقبة السوفيتية للتدابير الفعالة وأكثر النظريات الروسية المعاصرة والأفكار التي يناقشها هذا الكتاب فيقيمون بينها رابطاً في المفهوم، وعملية الربط هذه يتحمل القارئ مسؤوليتها. وعند فعل هذا يجب أن يتذكر القارئ أنه وبينما يمكن وصف بعض الأفعال الروسية فكرياً على أنها تبنّي للتدابير الفعالة في القرن الحادي والعشرين فالفروقات بينهم مشابهة لتلك الفروقات في الوسائل والأساليب بين الحربين العالميتين الاولى والثانية، وأي محاولة لمقارنة الاستخدام الروسي لوسائل غير عسكرية في القرن الحادي والعشرين من منظور التدابير الفعالة سيكون تكراراً لمحاولة ضابط بريطاني في معركة السوم[6] سنة 1916 لاستيعاب حقائق معركة سيدان الثانية[7] عام 1940.

من ناحية ليس ثمة شك بالتشابه بين التدابير الفعالة كوسائل لتحقيق غايات سياسية والطرق المختلفة في القلب من النظرية الروسية عن الحرب الهجينة، ومن ناحية ثانية لم تعد التدابير الفعالة كمفاهيم تصوغ التفكير الروسي حول صراعات القرن الحادي والعشرين، ويركّز هذا الكتاب على الخطاب المعاصر أكثر من الخلفية التاريخية فالحديث عن التدابير الفعالة منقطع الصلة بالمسألة المطروحة.

[6] جرت معركة سوم خلال الحرب العالمية الاولى بين بريطانيا وفرنسا من جهة وألمانية من جهة ثانية ما بين الأول من تموز والثامن عشر من تشرين الثاني سنة 1916 على جانبي الفرع الأعلى لنهر السوم في فرنسا. وتميزت بالخسائر الفادحة للطرفين.

[7] معركة سيدان الثانية جرت ما بين 12-15 أيار سنة 1940 خلال الحرب العالمية الثانية في مدينة سيدان الفرنسية، واستولت القوات الألمانية على المدينة دون مقاومة تذكر، واخترقت القوات الألمانية الدفاعات الفرنسية حول سيدان على الضفة الغربية لنهر الموس.

ملاحظة حول الترجمة:

نصف هذا الكتاب يتناول الطرح الروسي حول الحرب الهجينة, لذا فهو مبني على العديد من المصادر التي لم تُترجم من الروسية الى الانكليزية من قبل، واللغة الروسية مثل أي لغة أخرى لا يمكن فهمها إلا ضمن السياق التاريخي الفريد الخاص بها، ومثل أي مُترجِم كان عليَّ خوض مهمة شاقّة لأتجنّب الترجمة الحرفية ولأَصِلَ الى المعاني الصحيحة، وواحدة من الأمثلة على هذه المعضلة تجدونها في الفصل الرابع عندما يتحوّل السرد الى كتابات المنظّر العسكري الروسي يفجيني ميسنر ونظريته عن حرب التخريب، كما أنه وفي بعض الأحيان تمنع بعض الخصوصيات اللغوية المعقَّدة في كل لغة المترجم من إيصال المعنى الحقيقي للنص، فعلى سبيل المثال تُترجَمُ كلمتا روسكي وروسيسكي الى كلمة روسي في الانكليزية، لكن ثمة فرق شاسع بين روسكيا زمليا (الأرض الروسية) وروسفيسكيا فيديراتيزكيا (الفيديرالية الروسية) لأن روسكي تصف شيئاً يخص العرق الروسي، بينما روسيسكي تصف شيئاً يتعلق بالدولة الروسية.

إن اتباع المترجم منهج نقل المعنى وليس الترجمة المباشرة يمكن أن يكون خطيراً فقد يضع بهذا كلامه الخاص على فم المؤلف، لكن الترجمة المباشرة كلمة كلمة ليس أقل خطراً فهو قد يؤدي لخسارة المعنى، وفي النهاية ورغم المخاطر فقد اخترت اتباع الطريقة الاولى وأتحمّل كامل المسؤولية عن أي أخطاء أو سوءِ ترجمة، وأملي الوحيد أن يكون حذري من مساوئ الطريقتين قد قلل من الأخطاء الى حدها الأدنى.

عن بنية هذا الكتاب:

تَنتُج العلاقة بين الواقع والمفاهيم المستخدمة في شرحها ووصفها عن سلسلة من التفاعلات شديدة التعقيد ، فالأحداث السياسية الحقيقية تُنتِجُ رؤى مفاهيمية جديدة ، والتي بدورها تشكِّل خطابًا سياسيًا جديدًا ، مما يخلق بعد ذلك إجراءات سياسية جديدة ، والتي تولِّد بعد ذلك مفاهيم جديدة ،

وهلم جراً. وبالتالي فإن أي محاولة لفحص هذه العلاقة تتطلب منظورًا ضيقًا للتحليل قادرًا على التقاط هذه العلاقة ، بهدف تقديم توصيات عملية، وبالتالي فإن القصة الكاملة للعلاقات الروسية مع الغرب أكثر تعقيداً حتى من الومضة التي يقدّمها هذا الكتاب.

العلاقة نفسها تقوم على أربع اعتبارات:

أولاً- الأحداث الفعلية خلال الحرب الباردة والمفاهيم المختلفة لوصفهم.

ثانياً-الأحداث السياسية العسكرية منذ نهاية الحرب الباردة.

ثالثاً- المفاهيم المستخدمة لوصف وشرح هذه الأحداث في البيئة الجيوسياسية التي أعقبت الحرب الباردة.

رابعاً- كيف شكّلت هذه المفاهيم الأحداث السياسة المستمرة.

إن تغطية هذه السلسلة من الأحداث يقع ببساطة خارج موضوع هذا الكتاب ولذا يركّز السرد على الخطوة الأخيرة في العلاقات بين الأحداث وتكوين المفاهيم: وبكلمات أخرى؛ **كيف تشكّل المفاهيم النظرية التصرّف السياسي العسكري وأفعال روسيا والغرب.**

كما أنه من الضروري أن نتذكَّر أن مسألة تشكيل الأحداث السياسية والعسكرية في حقبة الحرب الباردة للأسس النظرية لصياغة مفاهيم الحرب نالت قسطاً وافراً من المناقشة في الأدبيات التي تتناول المفاهيم المعاصرة للحرب (تمت مناقشة هذا الأدب في الفصل الأول والأجزاء التالية من الكتاب)، **ولذا يتجنب هذا الكتاب عمداً التطرق الى كيفية تشكيل الأحداث العالمية للمفاهيم السياسية العسكرية، وبدلاً من ذلك يركّز بعناية على مسألة كيف أن تشكيل مفاهيم الحرب في روسيا والغرب قد صاغت أحداثاً سياسية معاصرة، وهذا مهم على وجه الخصوص بالنظر الى الثغرات في الأدبيات الموجودة في العلاقة بين التفكير العسكري المفاهيمي والعلاقات الروسية الغربية المعاصرة.**

يحاول هذا الكتاب استيعاب نوعين مستقلين نسبياً من السرد في التفكير حول الصراعات ذات البداية الواحدة، وبالذات نهاية الحرب الباردة، والطرق المختلفة كلياً في التفكير حول الصراعات (الجزء الأول عن الطريقة الغربية والجزء الثاني عن الطريقة الروسية)، ونهايةً عندما يجتمعون ويبدؤون التفاهم (الجزء الثالث).

ومن هنا فإن الكتاب لا يدور حول الكيفية التي سعى بها الاستراتيجيون الغربيون والروس إلى تصور الحرب في بيئة ما بعد الحرب الباردة, أو عن تصورات الغرب والروس عن الحرب التي تفاعلت سياسياً لتشكيل العلاقات المعاصرة بين الطرفين، وغني عن القول إن مناقشة السابق (في الجزأين الاول والثاني) لا غنى عنه لفهم ما يليه (الجزء الثالث)، كما أنه بمثابة منتج ثانوي مهم، لكنه ليس الهدف الحقيقي لهذا الكتاب.

قال كارل فون كلاوزفيتز[8] ذات مرة بأن الحرب ليست إلا مبارزة، مؤكداً حقيقة أن أي صراع يضم طرفين على الأقل، **وبما أن الأطراف المنخرطة في صراع ما تتفاعل باستمرار مع بعضها فمن الصعب فصل أفعال طرف عن آخر، وثمة طريقتان لمعالجة هذه المشكلة: فإما نتتبع القصة محددين باستمرار الفعل ورد الفعل الذي يقوم به كل طرف، أو نركّز باستمرار على كل طرف على حِدى ونضع ثقتنا بالقارئ ليحل المعضلة**، وبما أن القصة التي يعالجها هذا الكتاب ليست عن ميدان معركة (لا حقيقية ولا افتراضية) وانما عن أفكار، فالكتاب يتّبع المسار الثاني ويركّز على الجانب الغربي من القصة أولاً قبل التطرق الى الجانب الروسي. وبفعل هذا كنتُ حَذِرَاً من أن بعض القرّاء قد ينزعجون وخصوصاً في الفصل الثالث الذي يركز على عمليات صنع السياسات والتي بطبيعتها ما هي إلا نتائج للتفاعل الوثيق بين الأطراف المشتبكة، ولذا فمن الصعب الفهم دون معرفة سياق أفعال العدو. ومع ذلك فإنني أثق بقرّائي، واضعاً بعين الاعتبار أن كل فصل

---

[8] كارل فيليب جوفريند فون كلاوفيتز (1780-1831)، جنرال بروسي ومنظِّر عسكري، شدد على أهمية المعنويات والاعتبارات السياسية للحرب.

يعرض جانباً واحداً فقط من القصة، وأن الفصول التالية تساعد على فهم الفصول السابقة، حيث أن الأجزاء مجتمعة فقط يمكنها حل اللغز كاملاً.

الفصل الأول: ظهور الحرب الهجينة

يتناول الجزء الأول من الكتاب الحرب الهجينة كحرب وضع أسسها النظرية بالأصل فرانك هوفمان، وعلى اعتبار أن الحرب الهجينة منتج للفكر الأمريكي، فمن المهم فهم ليس المفهوم الأمريكي فحسب بل العملية التي تطوّر بها هذا الفكر أيضاً، لذا يركّز الفصل الأول على النقاش النظري ضمن الجيش الأمريكي والذي قاد هوفمان لتطوير نظريته. وبمتابعة تحليل لأعمال هوفمان والمفكرين العسكريين الامريكيين يتناول الفصل الثاني هذه الأعمال ضمن سياق ثقافة الاستراتيجية الامريكية، ويعمل هذا على بناء نظرة كاملة عن المفهوم الأصلي ومعالمها في الخطاب العسكري الامريكي. وبما أن مصطلح الحرب الهجينة نشأ في الولايات المتحدة وتبناه الروس لاحقاً وأعاد الباحثون الأوروبيون والمفكرون العسكريون صياغة مفاهيمه، تُعَدُّ هذه الفصول حيوية لفهم المعنى المبدئي للحرب الهجينة.

الجزء الثاني: ظهور الحرب الهجينة عند الروس: القصة الروسية للحرب الهجينة

عند تحليل الأدبيات الروسية حول ظاهرة الحرب الهجينة، سرعان ما نجد اختلافاً جوهرياً عن المفهوم الامريكي الذي يركّز بصورة رئيسية على التكتيكات العسكرية والانشطة العملياتية، **وحَسَب المختصين الروس فالهدف الرئيسي للحرب الهجينة هو تجنب ميدان المعركة التقليدي بهدف تدمير العدو عبر مجموعة من الطرق الايديولوجية والاعلامية والمالية والسياسية والاقتصادية مما يؤدي في نهاية المطاف الى التفكك الثقافي والانهيار الاجتماعي**، وهذه الفكرة عن عدم استخدام الوسائل العسكرية لتقويض العدو بالتأكيد ليست جديدة في الطرح الروسي الأكاديمي والسياسي والعسكري، وتصل جذورها الفكرية الى منتصف القرن العشرين في كتابات إيفجيني ميسنر عن "حرب التخريب"، وكذلك عمل الباحثين الروسيين الكسندر دوجين وإيغور باناريك الذين

وضعا الأسس الفكرية وطوّرا نظريتين مختلفتين عن الصراعات غير العسكرية في التسعينيات وبداية الألفية "حرب الشبكة المركزية" و "حرب المعلومات", ويتألف هذا الجزء من الكتاب من ثلاثة فصول، حيث يقدّم الجزآن الأول والثاني تحليلاً شاملاً للنظريات المختلفة التي سبقت مفهوم الحرب الهجينة وقامت بدور الأساس النظري الذي جاء بها، أما الجزء الثالث فيركّز على المفهوم ذاته وخصائصه الرئيسية.

الجزء الثالث: الاستخدام السياسي للحرب الهجينة من المنظورين الغربي والروسي

يتألف القسم الثالث من الكتاب من فصلين، يركّز الفصل الأول على النقاش السياسي الذي يحيط بالحرب الروسية الهجينة في الغرب، بينما يحلل الفصل الثاني الخطاب الروسي حول الدور والمكان والوسائل غير العسكرية في الصراعات المعاصرة والحرب الهجينة التي تعتبر روسيا أن الغرب شنها على الكرملين، وكما قلنا آنفاً إن فصل القصة الى قسمين منفصلين مُصطَنَع الى حد بعيد، لأن كل خطاب تطور في سياق الخطاب الآخر، وهذه هي الطريقة الوحيدة الممكنة لتحليل كل حالة وبالتالي تقديم فهم أفضل عمن يقف خلف الاستخدام السياسي للحرب الهجينة من الطرف الغربي والروسي، وما الذي يحاولون عمله، وما مدى النجاح الذي حققوه.

الفصل الأول

النظرة الأمريكية للحرب الهجينة

الأسس النظرية لمفهوم الحرب الهجينة:

في الأدبيات الغربية يرتبط مفهوم الحرب الهجينة غالباً بمنظّر الجيش الأمريكي فرانك هوفمان[9]، فقد حاول هوفمان في بداية الألفية ردم الهوّة بين الخصائص الخطّيّة للحرب[10] (النظامية وغير النظامية) في بيئة القرن الحادي والعشرين العملية, معمماً تجربة جيش الدفاع الصهيوني مع حزب ايران اللبناني في لبنان عام 2006 فقال هوفمان:

"إن عدم وضوح طبيعة الحرب وعدم وضوح من يقاتل وما التقنيات المستخدمة يؤدي الى ظهور طيف واسع من التنوع والتعقيد نسميه الحرب الهجينة".

وحسب هوفمان يمكن أن تشن الدول حرباً هجينة وكذلك يمكن أن يشنّ هذه الحرب الهجينة أطرافٌ فاعلة ليست دولاً: مجموعة من الأساليب الحربية المختلفة تتضمن أساليب غير تقليدية وتكتيكات وتشكيلات غير نظامية وأعمالاً إرهابية بما فيها العنف العشوائي والإكراه والاضطراب الجنائي.

ولم يكن هوفمان أول من لاحظ هذه التطورات كما قيل، بل إن نظريات سابقة أثّرت بشدة على نظريته، وفي الحقيقة فقد جرت مقاربة للحرب الهجينة في الأدبيات المنشورة قبل ظهور مفهوم هوفمان للحرب الهجينة تقول إن مصطلح "الهجينة" استُخدِم في السابق لوصف الحد غير الواضح الفاصل بين القوات النظامية وغير النظامية، وعلى أي حال فعمل هوفمان هام لأنه أطلق النقاش الفكري في الغرب حول التهديدات المعاصرة للحرب الهجينة والتي يمكن من خلالها رؤية مفهوم الحرب الهجينة كطريقة جديدة لوضع الأسس النظرية لصراعات القرن الحادي والعشرين.

ويتناول هذا الكتاب الحرب الهجينة كما وُضِعَت أسسها النظرية وفُهِمَت في الغرب، وبما أن هذا المفهوم هو نتاج فكر الجيش الامريكي فمن المهم تناول السياق الذي تطور به، وكذلك الطريقة

---

[9] ضابط المتقاعد في قوات الاحتياط بمشاة البحرية الأمريكية، وزميل باحث أول في مركز البحوث الاستراتيجية بجامعة الدفاع الوطنية بالولايات المتحدة الأمريكية, من ابرز من أسس لمفهوم الحرب الهجينة في أمريكا في العصر الحديث.

[10] الخصائص الخطيّة تعني ازدياد النتائج بازدياد القوة المتاحة على شكل خط متصاعد.

التي استخدمهُ بها الباحثون الامريكيون وأفراد الجيش، ولذا يقدّم هذا الفصل أربعة مصادر أثّرت على فكرة الحرب الهجينة وهي: نظرية الحرب المفتوحة، وحروب الجيل الرابع، والحرب المركّبة, والأفكار التي ناقشها مركز الدفاع الاستراتيجي الامريكي سنة 2005.

نظرية الحرب المفتوحة:

في شهر شباط من عام 1999 أصدر العقيدان من القوة الجوية في جيش التحرير الشعبي الصيني كياو ليانغ[11] ووانغ شيانغسو[12] كتاباً بعنوان الحرب المفتوحة, وبات من أكثر الكتب مبيعاً في الصين لدرجة أنه قُرِأ على نطاق واسع على أعلى مستويات جيش التحرير الشعبي والحزب الشيوعي الصيني، أما في الولايات المتحدة فقد قوبل الكتاب بالحذر، فقال عنه الادميرال توماس مور القائد السابق لهيئة الاركان المشتركة:

"يجب أن تَقرَأ كتاب الحرب المفتوحة لأنه يكشف لك الخطة الصينية القادمة للحرب مع أمريكا .... الصين تعتقد أن بوسعها تدمير أمريكا بهذه الأساليب".

وكما وضّح باحثون أمريكيون واستراتيجيون عسكريون فالكتاب يشجّع على التحوّل غير الأخلاقي وغير القانوني المحتمل للحرب وسيسعى فيه الصينيون للإطاحة بالنظام والقانون الدوليين حتى يحققوا سياساتهم المرجوّة. لكن هذا التفسير يقوم على سوء فهم لعنوان الكتاب أكثر من المفهوم العام، فمفهوم الحرب المفتوحة أثار نقاشاً بنّاءً في أوساط الجيش الأمريكي.

وفي الحقيقة يبدو أن العنوان قد تُرجِم بشكل حرفي جداً، ويمكن استبدال العنوان بعنوان آخر أقل حرفية بـ"الحرب خارج الحدود" وترجمة أكثر ملائمة للمفهوم ذاته بناءً على السرد الرئيسي لهذا الكتاب قد تكون: "الحرب العابرة للحدود"، وبكلمات كياو ووانج:

---

11 تشياو ليانغ، لواء متقاعد في سلاح الجو التابع لجيش التحرير الشعبي، ومنظِّر عسكري ومؤلِّف، ونائب مدير القسم الابداعي في جيش التحرير الشعبي، ونائب الأمين العام لمجلس دراسات سياسة الأمن القومي، وعضو جمعية الكتّاب الصينيين.

12 وانج شيانغسو، بروفيسور في جامعة بيجين في العاصمة بيجين، وهو عقيد صيني بارز متقاعد في جيش التحرير الشعبي.

"وهكذا فإننا نقدّم مفهوماً كاملاً وطريقة جديدة بالكامل للحرب تدعى الحرب المعدّلة المجمّعة التي تتجاوز الحدود".

وهكذا فكلمة العابرة للحدود أخف وطئاً من فكرة الحرب المفتوحة، وكان يمكن لترجمة كهذه أن تمنع الضجة التي أثارها الكِتاب عندما نُشِر لأول مرة، ويصبح هذا أكثر وضوحاً في هذا المقطع من القسم التالي من هذا الكتاب:

"لا يمكن تجاوز الحدود بالمطلق، فأي تجاوز للحدود يمكن أن يحدث في ظروف معينة، ولذا فالانطلاق خارج الحدود لا يعني زوال الحدود إلا في مجال ضيق جداً".

وهكذا عندما وضعنا المفهوم السلبي للحرب المفتوحة جانباً والذي تلقيناه في البداية، اكتسب الكتاب تقديراً واسعاً في الولايات المتحدة، ليس أقله قول هوفمان:

" إن قراءةً أعمق للنص مفيدة للغاية وتقدّم استنتاجات واضحة".

و يضيف مؤلّفا الكتاب ثلاث مساهمات الى الاستراتيجية:

أولاً مراقبة بنّاءةً لظاهرة الحرب.

ثانياً تحليل واسع لتحوّل الحرب نهاية القرن العشرين وحرب الخليج على العراق سنة 1991 كرمزٍ لذلك التحوُّل.

ثالثاً وضع الأسس النظرية الفكرية لمستقبل الصراعات في القرن الحادي والعشرين.

لقد تضمّن كتاب كياو ووانج نقاشات عن طبيعة الحرب نهاية القرن العشرين ووضَعَ بعض التنبؤات المبدئية للمستقبل كما قام المؤلفان بمتابعات هامة عديدة لطبيعة الحرب ومبادئها بعيداً عن صيغة العنف التي تعتَبِرُ الحرب مجرد حرب، وأنّ أي تغيير في المظهر الخارجي لا يجعل الحرب بعيدة عن مبادئ الحرب. وأبرز مبدأ هو أهمية الجمع بين عاملين مؤثرين أو أكثر في ميدان المعركة معاً لتحقيق النصر على العدو، وطرحا أمثلة مختلفة من التاريخ العسكري الصيني والروسي وخَلُصَ كياو ووانج الى أنه:

"بغضِ النظر فيما إن كانت هذه سمة الحرب منذ 3000 سنة أم أنها سمة بدأت بالظهور عند نهاية القرن العشرين فمن الواضح أن جميع الانتصارات تشترك في ظاهرة مشتركة هي أن المنتصر هو من جمع بين أدواته جيداً".

وبكلمات أخرى: إن القدرة على الجمع بين التقنيات المختلفة ومفاهيم العمليات والوسائل والأساليب بطريقة توفِّر مزايا مهمة وتحسّن من الحرب الى درجة مهمة هي واحدة من أهم عوامل تحقيق النصر. وعند تطوير فكرة الجمع هذه يشير كياو ووانج على نحو صحيح الى أنه **ليست كل عملية جمع لعوامل القوة يمكن أن تضاعف القوة،** ***"فمن دون فهم السر في كيفية إجراء الجمع لن تستفيد من جمع 100 عامل بشكل غير فعّال".*** وعند بحث أمثلة تاريخية مختلفة يجد الكاتبان أن عاملين رئيسيين يساهمان بعملية الجمع المثلى: **قاعدة النسبة الذهبية[13] (معدل 0.618:1) وقاعدة المبدأ الجانبي (المأخوذة من اللغة, حيث تغيّر كلمة واحدة كلمة أخرى وتحدد دورها وخصائصها)[14]**، القاعدة الأولى مأخوذة من عالم الفن والثانية من القواعد اللغوية الصينية، لقد برهن كياو ووانج بنجاح على أهمية هذه القواعد لظاهرة الحرب عبر التساؤل: *" إن كانت حوادث كثيرة تقود الى نفس الظاهرة هل ستستمر بالنظر إليها على أنها مجرد حوادث وأنت مطمئن؟".*

في المناقشات التي تُعرّف وتجمع كلتا القاعدتين تبنى كياو ووانج مبدأً يجب أن تتم وفقه عملية الجمع:

أولاً: قالا إنه من المهم تعريف عنصر جوهري في كلٍ من العناصر الخمسة المكوِّنة للحرب: السلاح والوسائل والقوة والتوجّه والميدان.

ثانياً: العلاقات بين الأسلحة المُسيطِرَة وكل الأسلحة, والوسائل المسيطرة وجميع الوسائل, والقوى المسيطرة وجميع القوى, يجب تحديدها وفقاً للمعدّل 0.618:1 أي وفق قاعدة النسبة الذهبية.

ولم يزعم كياو ووانج أنهما وجدا صيغة تضمن النصر في كل أشكال الحروب بل ادّعيا أنهما عرّفا مبدأً يزيد من احتمالات النصر:

---

[13] الملحق رقم (3)

[14] الملحق رقم (2)

"مفتاح النصر (في الحرب) هو استيعاب الجوهر وتطبيق المبدأ أكثر من الالتزام الدقيق بالقاعدة. لأن معرفة القواعد الصحيحة لا تضمن النصر دوماً؛ السر في الانتصار هو التطبيق الصحيح للقاعدة".

وبما أن مبدأ جمع الوسائل لعب دوراً حيوياً في صنع النصر منذ فجر الصراعات البشرية، فقد حاول كياو ووانج تأسيس عملية جمع نموذجي وراء هذه الانتصارات:

"من يستطيع مزج هذه التشكيلة الفريدة من نوعها على مائدة الحرب مستقبلاً سيكون قادراً على تكليل رأسه بالغار كائناً من كان".

وبتحليل تأثير التقدم التقني وعولمة طبيعة الحرب، استنتج كياو ووانج أن *"الحرب التي تغيّر العالم تغيّر الحرب نفسها"*، هذان التطوران ليسا وراء التحوّل الجذري للحرب نهاية القرن العشرين فحسب بل انهما متشابكان ويزيد كل منهما من تأثير الآخر، مما يزيد من وتيرة تحوّل الحرب.

وبناءً على فهمهما للنجاح في الحرب على أنه القدرة على إجراء جمع ناجح للعوامل المؤثرة، يقول كياو ووانج إن التكامل التقني والعولمة اللذان شكلا سمة للنصف الثاني من القرن العشرين، خلقا طلباً غير مسبوق لعملية الجمع المعقّد أكثر من أي وقت مضى. **وحسب نظريتهما عن الحرب المفتوحة فتقنيات الحرب والحقائق الجيوسياسية خلقت جواً يتطلب استراتيجيات لزرع وتطبيق ما يسمونه عمليات الجمع العابرة للحدود.** وفيما يخص التقدم التقني والعولمة يعرّف كياو ووانج تطورين منفصلين وفي نفس الوقت مترابطين، فمن جهة يوضّحان الدور المتزايد للتقنيات المعلوماتية:

"(من غير المجدي للجيوش) أن تجهد نفسها بالتفكير فيما إن كانت تقنيات المعلومات ستصبح أقوى وأكثر جموحاً أم لا، لأن هذه التقنيات ما هي إلا مزيج من التقنيات الأخرى، ومظهرها الأوّلي وكل خطوة تخطوها للأمام ما هي إلا عملية مزج للتقنيات الأخرى، وبالتالي فهي جزء منهم وهم جزء منها، وهذا بالضبط أكثر الخصائص جوهرية في عصر التكامل التقني والعولمة".

ومن جهة ثانية، عند تحليل تأثير العولمة في هذا العصر على تقنيات المعلومات يقول كياو ووانج ان:

"المقاتلين غير المحترفين والتنظيمات غير الحكومية يشكّلون تهديداً متزايداً للسيادة الوطنية، مما يجعل هؤلاء المقاتلين والتنظيمات أكثر خطراً على الجيوش المحترفة".

ويزيد هذان التطوران حسب نظرية الحرب المفتوحة مما يسميه المؤلفان دور وسائل وأساليب "غير عسكرية" بما فيها أعمال الارهاب والجرائم الالكترونية والتلاعب المالي.

لقد كانت هاتان الملاحظتان هما ما دفعتا بكياو ووانج لتطوير مفهوم "جمع العوامل المؤثرة العابرة للحدود" بناءً على أن الحرب الحديثة غير واضحة المعالم تقنياً وعلمياً ونظرياً ونفسياً وعرقياً وتراثياً والأنواع الأخرى من الحدود, مما يعني إلغاء "الحدود بين ما هو ميدان معركة وما ليس بميدان معركة وبين ما هو سلاح وما ليس بسلاح وبين الجندي وغير المقاتل، وبين الدولة وما ليس بدولة وما هو فوق الدولة"، **وكنتيجة لهذا يطرح المؤلفان أربعة أنواع للجمع وهي كما يقولان أفضل خصائص الحرب الحديثة:**

النوع الأول: هي أنواع الجمع التي تتجاوز الدول والتي تجمع ما هو وطني ودولي ومنظمات غير حكومية وتجمع وتمزج مزيداً من الوسائل لتحل المشكلة على نطاق أوسع من المشكلة نفسها، وبما أن البلدان الحديثة تتأثر بشكل متزايد بالمنظمات الدولية (المتعددة الجنسيات, غير الحكومية، التجارية، الدينية، الاجرامية، الارهابية ......) يقول كياو ووانج أن الصراع الحديث تجاوز الحدود الوطنية للدولة، وأن التهديدات التي تواجه الدول الحديثة تأتي غالباً من قوى فوق الوطنية وليس من بلد معين أو بلدين، وبالتالي فلا أفضل لمواجهة هكذا تهديدات من استخدام عمليات الجمع العابرة للوطنية.

النوع الثاني: هو الجمع العابر للميدان، مما يعني تجاوز ميدان المعركة، وبما أن المعلومات التقنية الحديثة والعولمة تدفع بالسياسة والاقتصاد والجيوش والثقافة والدبلوماسية والدين الى وضع تتداخل فيه جميعاً؛ فقد فتحت الحروب الجديدة ميادين جديدة للحرب مثل حرب المعلومات والحرب المالية

والحرب التجارية والحرب النفسية، ويشكّل الجمع بين هذه المجالات من الحروب عملية جمع عابرة للحدود توجّه الجهود نحو أبعاد معينة تكون أكثر ملائمة لتحقيق أهداف صراع معيّن.

النوع الثالث: هو الجمع العابر للوسائل، وهو مزيج من وسائل مختلفة ضمن كل مجال تخلق التأثير المرغوب على العدو.

النوع الرابع: وقد يكون الأهم هو عملية الجمع الذكي التي تجمع بين كافة مستويات الصراع في حملةٍ واحدة، وبتحليل الصراعات المعاصرة التي تخوضها القوى الوطنية التي تستخدم الوسائل العابرة للحدود في المجالات العابرة للحدود، اعتبر كياو ووانج أن الحدود باتت غير واضحة المعالم بين التكتيكات والعمليات والاستراتيجية العليا والاستراتيجية القريبة، ففي الحرب المعاصرة ربما تؤدي الأفعال على مستوى التكتيك الى نتائج استراتيجية، والأهداف الاستراتيجية قد تُنجَز بأعمال تكتيكية: *"اسامة بن لادن استخدم طريقة من المستوى التكتيكي باستخدام شاحنتين مفخختين[15] فقط لتهديد مصالح الولايات المتحدة الوطنية على المستوى الاستراتيجي، لكن لا يستطيع الأمريكان تحقيق هدف استراتيجي بحماية أمنهم إلا بتنفيذ مستوى تكتيكي من الانتقام ضده[16]"*.

واستشهد كياو ووانج بالعديد من الأمثلة التاريخية لتدعيم المفاهيم التي وضعوها، مثل حالة حرب الخليج سنة 1991 التي كانت نقطة أساسية في مراجع كتابهما: عندما نحاول استخدام الحروب التي حدثت في السابق لنناقش ما الذي يشكّل الحرب في عصر التكامل التقني يمكن لعملية عاصفة الصحراء[17] لوحدها أن تقدِّم الأمثلة.

وحسب كياو ووانج فقد ختمت عملية عاصفة الصحراء الحقبة الأخيرة وافتتحت الحقبة الجديدة لأنها كانت أول حرب تجاوزت بالفعل حدود الحرب، كان ثمة عمليات جمع عابرة للحدود الوطنية، فالولايات المتحدة نجحت الى حد بعيد بتكوين ائتلاف ضم أكثر من ثلاثين دولة بعضها يُكِنُّ عداءً

[15] تفجير السفارتين الأمريكيتين في نيروبي ودار السلام عاصمتا كينيا و تنزانيا سابقا سنة 1998، تبنى تنظيم القاعدة الهجوم وأسفر عن مقتل 200 شخص بعضهم أمريكيون.

[16] قام الأمريكيون سنة 1998 بقصف معامل الدواء في السودان ومعسكرات تنظيم القاعدة في أفغانستان التي كانت خالية حينها.

[17] عاصفة الصحراء هو الاسم الذي اطلقته الولايات المتحدة على عملية إخراج الجيش العراقي من الكويت، وانطلقت 17 كانون الثاني سنة 1991 واستمرت 42 يوماً.

لبعضها الآخر، وكذلك تلقت دعماً من معظم البلدان في الأمم المتحدة مع المنظمات الدولية وغير الحكومية (مثل بنك العالم، ومنظمة التجارة العالمية)، وكان ثمة جمع عابر للمجالات عندما تلا الحملة العسكرية التي استغرقت 42 يوماً ضغط عسكري وحصار اقتصادي وتفتيش على السلاح، كما كان ثمة عملية جمع في الوسائل فاستُخدِمَت الوسائل المختلفة في كل مجال وحيثما كان ذلك مفيداُ (وكمثال على ذلك ناقش الكاتبان الحرب العسكرية والنفسية بالتفصيل).

ولا يقدم المؤلفان نفسهما أية أمثلة عن عمليات الجمع ذات المستوى الأعلى في حرب الخليج، رغم أنه من السهل تعريف هذا النوع من الجمع, وأفضل مثال هو استخدام الذخيرة الدقيقة نسبياً: ورغم أن هذا بطبيعته تكتيك، إلا أن له تأثيرات استراتيجية أدت مفعولها من خلال تقنية المعلومات والبث المباشر لتدمير الأهداف، مما استحوذ على سمع ونظر العالم بأسره.

وبِرَصدِ المؤلفين للتطورات الجيوسياسية في النصف الثاني من القرن العشرين يجدان أنه في حين أننا نلحظ انخفاضاً نسبياً في مستوى العنف العسكري نجد في الوقت نفسه زيادة في العنف السياسي والاقتصادي والتقني، بمعنى أن الحرب المفتوحة هي محاولة تغليب للوسائل غير التقليدية وغير العنيفة في الميادين (أي الأعمال غير العسكرية أو غير الحربية) على الوسائل العسكرية البحتة لتحقيق الأهداف المنشودة، في معارك أواخر القرن العشرين وأوائل القرن الحادي والعشرين.

وفي نهاية كتابهما يقترح كياو وانج ثمانية مبادئ تتصف بها الحرب المعاصرة بالأصل وسيكون لها مزيد من التأثير على طبيعة حروب المستقبل:

المبدأ الأول: الضبابية التامة، ووفقاً لهذا المبدأ ستتسم حروب المستقبل بنقص التمييز بين ما هو ميدان المعركة وما ليس ميدان المعركة ولن تشمل المجالات العسكرية فقط (أي البر والبحر والجو....) بل المجالات الاجتماعية كالسياسة والاقتصاد والثقافة وعقول الدول المعنيّة (وحتى الدول المحايدة)، وسيتوجب على المشاركين في هذه الحروب أن:

يولوا اهتمامهم الكامل بكل العوامل المتعلقة بهذه الحرب خاصة، وأن ينظروا الى ميدان المعركة على أنه ميدان معركة محتمل، وأن يصمموا الخطط ويضعوا التدابير ويحشدوا جميع المصادر المستخدمة في الحرب والتي يمكن نقلها، ويجب أن تكون المعلومات كاملة دون أي نقص وأن تكون الرؤيا واضحة دون أي عوائق وأن يكون التوجه مندفعاً للأمام دون أي انحراف.

المبدأ الثاني: التزامن، مما يعني أن الفعل في حروب المستقبل يجب أن يحدث في مجالات مختلفة في ذات الوقت، وحسب كياو ووانج فالتكامل التقني والعولمة لا تسمح فقط بجمع أنشطة مختلفة بوسائل مختلفة في مجالات متعددة بل تسمح أيضاً بمزامنة تنفيذ عمليات الجمع هذه. فإن كانت الأهداف في الماضي تتطلب أن تُنَفّذ على مراحل في معركة هي تراكم لمعارك وحملات ففي المستقبل يجب أن تُنَفّذ في ظروف التزامن والفعل المتزامن والإتمام المتزامن.

المبدآن الثالث والرابع: اللذان سيكونان السمة المميزة لحروب المستقبل حسب كياو ووانج، فهما الأهداف المحدودة والوسائل غير المحدودة، ويوضّح ما سبق أهمية التحديد الصارم والعملي للأهداف في حروب المستقبل، حيث أن وضع أهداف تتجاوز حدود التدابير المتوفرة له عواقب وخيمة، أما مبدأ التدابير غير المحدودة فيعتمد على فكرة إمكانية اختراق القيود والتنقل بين مختلف التدابير بغية تحقيق الأهداف المحددة. وفي حين لا يُضِيف أي من هذين المبدأين شيئاً جديداً على طبيعة الحرب فأن استخدامهما معاً يشكّل الفكرة الرئيسة للأهداف غير المحدودة المفتوحة ذات التدابير والوسائل غير المحدودة.

المبدأ الخامس: يستغل عدم التماثل في نقاط الضعف بين المهاجِم والعدو، وعلى الرغم من أن هذا المبدأ وللمرة الثانية لا يقدّم شيئاً جديداً حقاً في طبيعة الحرب إلا أنه وحسب كياو ووانج فالنَقلَةُ في الحرب من المجال العسكري التقليدي الى المجالات غير العسكرية (مثل السياسة والاقتصاد والثقافة) ستزيد من دور هذا المبدأ مما يوفّر فرصاً أكثر للعامل الأضعف ويكشف نقاط الضعف لدى الطرف الأقوى.

المبدأ السادس: هو "الحد الأدنى من الاستهلاك" عبر التصميم العقلاني للأهداف والاستخدام الرشيد للموارد، يؤكد كياو ووانج على أن النمو المتزايد لعدد عمليات الجمع الممكنة للأهداف في

صراعات المستقبل والتدابير المختلفة لتحقيقهم ستزيد بشكل كبير إمكانية الاستهلاك مع انخفاض الفاعلية, ولذا سيكون من المطلوب (أكثر من أي وقت مضى): "أن نجمع نخبة أنواع متعددة لموارد الصراع بطرق متعددة لتكوين صيغة جديدة تماماً من الاشتباك، بحيث تتحقق الأهداف وفي نفس الوقت تنخفض التكاليف.

المبدأ السابع: هو "التنسيق متعدد الأبعاد" ويتطلب التعاون والتنسيق لتأمين الاحتياجات المطلوبة وفقاً للتدابير الموجودة لتحقيق هدف الحرب. وعلى الرغم من أن الحرب المفتوحة تفترض أن ميدان المعركة لا يقتصر على الميدان العسكري فقط بل إنَّ أي مجال يمكن أن يصبح ميدان معركة، فالمشاركون في حروب المستقبل يجب أن يحاولوا فهم التنسيق المتعدد الأبعاد، والتنسيق بين البعد العسكري ومختلف الأبعاد الأخرى بغية تحقيق هدف محدد.

والمبدأ الثامن: هو "الموائمة والسيطرة على كامل العملية"، إن هذا المبدأ لا يضيف شيئا على سمات الحرب لكن تطبيقه سيكون معقَّداً أكثر عند استخدامه في حرب تتم فيها عمليات جمع عديدة وبشكل متزايد وذات عوامل مؤثرة كثيرة غير متوقعة، وقدرة هذه العوامل المؤثرة على تغطية قضايا الحرب وتأثيرها الكثيف على الحرب يعني أن خسارة السيطرة على أي مِفْصَل سيكون القشّة التي تقصم ظهر البعير وبالتالي خسارة الحرب بأكملها.

وباختصار، من المهم جداً التركيز على ثلاثة اعتبارات لهذه النظرية:

الاعتبار الأول: والأهم هي فكرة أن الصراعات الإنسانية تتجاوز حدود الميادين العسكرية التقليدية، وبالتالي دخول أنواع أخرى من أنواع التفاعل البشري (مثل السياسة والاقتصاد والثقافة) العابرة للوطنية على كافة المستويات، وبالتالي يقول كياو ووانج: *" إن من يريد أن يكسب حروب اليوم أو حروب الغد سيكون لزاماً عليه الجمع بين موارد الحرب (العسكرية وغير العسكرية) ووضعها تحت تصرفه لاستخدامها للانتصار في الحرب".*

الاعتبار الثاني: هو حقيقة أن المؤلفان يدركان أنه لا يوجد إلا القليل مما هو جديد في فكرتهما عن الجمع، فقد قالا إن الاسكندر الأكبر والأجنحة العسكرية لأسرة تشو لم يسمعا عن عملية الجمع لكنهم كانوا يعرفون قيمة الاستخدام المتزامن للأشياء. لكن تبقى القضية الأساسية هي أنه في

الصراعات الحديثة والمستقبلية ستتم عملية الجمع في الأعمال والوسائل والطرق التي لم تكن تُعتَبَر من مكوّنات الحرب.

وهذا يقود مباشرة **للاعتبار والقضية الثالثة** التي صنعتها الحرب المفتوحة وهي العاملان اللذان يقفان وراء ظهور "الحرب التي تجاوزت الحدود" إنهما **التغيرات التقنية والاجتماعية نهاية القرن العشرين (العولمة)** وكرد فعل على هذه المتغيرات ظهر المبدأ الجديد في الحرب بألا "تستخدم القوة المسلحة لتجبر عدوك على الانصياع لإرادتك" وإنما " استخدم كل الوسائل، العسكرية منها وغير العسكرية القاتلة منها وغير القاتلة لإجبار العدو على تحقيق مصالحك".

نظرية حروب الجيل الرابع:

ظهر مفهوم حرب الجيل الرابع لأول مرة مع مجموعة من ضباط البحرية الأمريكية بقيادة الاستراتيجي العسكري وليام ليند[18]، الذي كتب مع رفاقه مقالاً عام 1989 بعنوان: "تغيير وجه الحرب الى الجيل الرابع"، ومنذ ذاك الحين اكتسبت الفكرة شعبية في الدوائر الغربية العسكرية، ومن ضمنها أعمال مارتين فان كريفيلد[19] وصامويل هنتجتون[20] وجذبت العديد من المؤيدين وفي نفس الوقت الكثير من المعارضين للفكرة.

وحسب مؤلفي المقال، ينبغي تحليل الحروب الحديثة بدءاً بمعاهدة وستفاليا سنة 1648، وهي التسوية التي أنهت حرب الثلاثين سنة وأسست لمرحلة احتكار الدولة للحرب، ومنذ ذاك الحين انتقلت الحرب عبر ثلاثة أجيال: **1- القوة البشرية 2- القوة النارية 3- المناورة، وعند نهاية القرن العشرين تطورت الحرب الى الجيل الرابع: وهي صيغة متطوّرة تتضمن تمرداً يستخدم كل الشبكات السياسية المتاحة والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية لإقناع صناع القرار لدى العدو بأن أهدافهم الاستراتيجية إما غير قابلة للتحقيق أو مكلفة للغاية**، وكذلك ووفقاً لنظرية حروب

[18] وليام ليند كاتب أمريكي، له العديد من المؤلفات أشهرها "حرب الجيل الرابع"، وهو مدير المركز الأمريكي المحافظ للتحولات العامة.
[19] مؤرخ ومنظّر عسكري صهيوني.
[20] صامويل فيليب هنتجتون عالم سياسي أمريكي، مستشار وأكاديمي، قضى نحو نصف قرن في جامعة هارفارد حيث عمل مديراً لمركز هارفارد للشؤون الدولية.

الجيل الرابع فإن هذه النقلات في طبيعة الحرب بدأت ليس بعوامل عسكرية صارمة بل بالجمع بين المتغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتقنية الكبرى التي سبقت كل تحوُّل، ومن المثير للاهتمام أن–ودون ذكر هذا صراحة– مؤيدي فكرة مفهوم الجيل الرابع يرددون مفهوم الثوة العسكرية التي طرحها ميشيل روبرت أواخر خمسينيات القرن العشرين وطوّرها مؤرّخون عسكريون ومنظّرون استراتيجيون آخرون مثل كليفورد روجرز[21] وجيفري باركر[22] وماكس بوت[23] ووليامسون ماري[24] وآخرون.

وحسب توماس هاماس[25] أحد أبرز المختصين في حروب الجيل الرابع، فقد كانت حروب نابليون بدايات القرن التاسع عشر ذروة الجيل الأول من الحروب، وكانت هذه الحروب تتويجاً لمرحلة تقاطعت فيها تطورات عديدة مطلوبة للانتقال من عسكرية العصور الوسطى الى جيش نابليون العظيم، وبينما كان التطور المؤكَّد للأسلحة النارية والمدفعية الفعالة أول وأوضح الاعتبارات التي سمحت بالوصول الى الذروة في مجال استخدام القوة البشرية الجماعية، فقد كانت أهم التطورات بذلك الوصول تتعلق بالنظام السياسي والاقتصاديات الوطنية المُدِرَّة للثروة، والبنى الاجتماعية والتقنيات القادرة على ردف الجيوش الكبرى في الحقبة النابليونية، وبكلمات أخرى استغرقت عمليّة التحوّل من حروب العصور الوسطى الى الجيل الأول من الحروب نحو 200 سنة وتسببت بها تغيرات هامة في البنى السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتقنية في ذلك العصر.

---

21 كليفورد روجرز: بروفيسور التاريخ في الأكاديمية العسكرية الأمريكية في ويست بوينت، وعمل في جامعة ليفرهيلم وجامعة سوانسي، وزميل في التاريخ العسكري في جامعة ييل، وزميل فولبرايت في معهد البحوث التاريخية في لندن، من مؤلفاته: "الثورة العسكرية"، "قسوة الحرب وصرامتها"، "جنود أحياء في التاريخ".

22 نويل جيفري باركر مؤرخ بريطاني متخصص في التاريخ الإسباني والعسكري في العصر الحديث، وأشهر كتبه : :الثورة العسكرية: الابتكار العسكري ونهضة الغرب 1500-1800" نشرت مطبعة كامبريدج الطبعة الاولى منه سنة 1988.

23 ماكس بوت مؤلف أمريكي ومستشار ومحرر افتتاحية ومحاضر ومؤرّخ عسكري، عمل ككاتب ومحرر في صحيفة كريستيان ساينس مونيتور، ثم لصحيفة وول ستريت جورنال في التسعينات، ويعمل الآن زميلاً لكير كباتريك كبير زملاء دراسات الأمن القومي في مجلس العلاقات الخارجية.

24 وليام موري كاتب تاريخي أمريكي، ألّف عددا كبيراً من الأعمال في التاريخ والدراسات الاستراتيجية، وعمل كاتباً ومحرراً في العديد من المشاريع الأخرى، وهو استاذ فخري للتاريخ في جامعة ولاية أوكلاهوما منذ سنة 2012.

25 الكولونيل توماس هاماس ضابط متقاعد في البحرية الأمريكية، ويُعتَبَر متخصصاً في مكافحة حرب العصابات.

ليس ثمة ما هو جديد حقاً في هذه الرؤيا، فقد وضع مؤرخون عسكريون أفكاراً مماثلة قبل ظهور مفهوم حروب الجيل الرابع بعدة عقود، وعلى أي حال فسمات حروب الجيل الأول التي قدّمها ليند هاميس وغيره مُهِمّة لفهم نظرية حروب الجيل الرابع. إن السمة الأبرز لحروب الجيل الأول هي تكتيكات الخط والعمود[26] حيث كانت المعارك رسمية وميدان المعركة مرتَّبَاً، ووفقا لليند تأتي الأهمية الرئيسية لهذا الجيل من الحروب من حقيقة أن تنظيم ميدان المعركة خلق ثقافة التنظيم العسكري، فمعظم الأشياء التي تُمَيِّز الجيوش- من اللباس الموحّد والتحية العسكرية والحراسة اليَقِظَة والرُّتَب- جاءت مع الجيل الأول وامتدت لتعزز ثقافة التنظيم.

وبلغت عملية تنظيم ميدان المعركة ذروتها في القرن التاسع عشر ثم بدأت بالتراجع، وفي الفترة التالية كانت الجيوش تتحرك بشكل متزايد بقوة الأفكار الوطنية وانتاج التقنيات العسكرية الحديثة مثل بندقية موسكيت والأسلحة النارية التي تُلَقَّم من الخلف والمدافع الرشاشة مما جعل تكتيكات الخط والعمود تكتيكات عفا عليها الزمن، كما أن ثقافة التنظيم التي كانت متَّسِقَة مع البيئة التي ولّدتها باتت شيئا فشيئا غير صالحة للبيئة الجديدة.

وحسب متخصصين في نظرية الجيل الرابع كانت بداية الجيل الثاني شبيهة جداً ببداية الجيل الاول فقد جاءت نتيجة للجمع بين التغيرات الاجتماعية والسياسية والتقنية، فمن جهة طوّرت الفعالية المتزايدة لقوة الدولة والتصنيع من التقنيات العسكرية وفي نفس الوقت التحسينات في النقل والاتصالات والزراعة والصحة إضافة الى التزايد الكبير في عدد السكان مما سمح بتجنيد جيوش بأعداد كبيرة. ومن جهة ثانية ولّد تصاعد القومية خصوصاً في فترة الحروب النابليونية وما بعدها شعوراً وطنياً بين السكان المدنيين اتجاه الدول القومية، مما جلب ملايين الرجال الى ساحات القتال، وستصل هذه الفترة من الجيل الثاني للحروب ذروتها في النهاية عند وقوع خسائر هائلة في الحرب العالمية الأولى.

[26] تنظيم قوات المشاة بشكل مربعات لسهولة توجيهها وضبطها استخدم هذا التكتيك في الحروب القديمة التي سبقت الحروب التي أدخلت عليها الأسلحة النارية.

ولم تحدث عملية الانتقال من الجيل الأول للحروب الى الجيل الثاني سريعاً بل كان التحول تدريجياً استغرق عدة عقود؛ "من أوائل المعارك في الحرب الأهلية الأمريكية الى معارك جنوب أفريقيا الى خنادق الشرق البعيد التي تعطينا أمثلة مكررة وواضحة عن أثر التغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية على الحرب".

وبينما كان تكتيك الخط والعمود الذي ساد في الجيل الأول من الحروب وتطلّب انتشاراً كبيراً للقوة البشرية فقد وجد الجيل الثاني من الحروب الحل في القوة النارية الكبيرة وكانت معظمها نيران المدفعية غير المباشرة، وبكلمات أخرى أدت التقنيات العسكرية الحديثة الى تحوّلات مرتبطة بها الى التشتيت الجانبي للقوى في ميدان المعركة والقدرة على تركيز النيران على مجال غير مسبوق، وبينما قوّض التغير الأول الثقافة العسكرية التنظيمية التي ترسّخت خلال الجيل السابق من الحروب، لم يحفظ الجيل التالي هذه الثقافة العسكرية فحسب بل إنه أضفى عليها مزيداً من الأهمية. وبكلمات ليند:

تزامنت السيطرة المركزية على النيران بعناية(باستخدام التفاصيل وخطط محددة وأوامر) للمشاة والدبابات والمدفعية التي كانت في المعركة حيث كان القائد أشبه –عملياً– بقائد الاوركسترا، لذا كان التركيز نحو الداخل؛ على القواعد والعمليات والأوامر فقد كانت إطاعة الأوامر أهم من المبادرة، وفي الحقيقة لم تكن المبادرة مطلوبة لأنها تشكّل خطراً على عملية المزامنة وكان الانضباط مفروضاً من الأعلى للأسفل.

وحسب ليند والمؤلفين المساعدين له: على الرغم من أن العامل الرئيسي في الانتقال من الجيل الأول للحروب الى الجيل الثاني كان التقنية إلا أن القوة الدافعة الحقيقة وراء هذا التحول كانت فكريَّة بطبيعتها، وبما أن التقنيات الرئيسية للجيل الثالث من الحرب تطوَّرَ أثناء الحرب العالمية الأولى، فقد كانت هذه تكتيكات جديدة كسرت الجمود الذي أحدثه الاستنزاف بسبب الجيل الثاني من الحرب:

"ولإدراكهم أنهم لا يستطيعون المنافسة على المواد الخام طوّر الألمان تكتيكات جديدة تماماً، تعتمد على المناورة أكثر من الجذب، وكانت تكتيكات الجيل الثالث أول تكتيكات غير خطّيّة حقاً".

وحسب ليند فقد ركّز الجيلان الأول والثاني من الحروب الحديثة على الاقتراب والتدمير "إيصال الفولاذ الى الهدف" أما شعار الجيل الثالث من الحروب فهو التجاوز والانهيار، كما أن الجيل الثاني من الحروب كان قد بدد انتظام القوات لكنه حافظ على ثقافة التنظيم بينما الجيل الثالث يعتمد على تكتيكات المناورة السريعة مما جعل هذه الثقافة مما عفا عليه الزمن.

يركّز جيش الجيل الثالث خارجياً على الموقف وعلى العدو وعلى النتيجة التي يطلبها الموقف وليس داخلياً على العملية والطريقة, والأوامر نفسها تحدد النتيجة المطلوب تحقيقها وليس الطريقة، والمبادرة أهم من الطاعة – كان بوسع الفيرماخت[27] تسيير مواكب عظيمة إلا أنهم كانوا قد تخلوا عن ثقافة التنظيم–.

وعلى غرار الجيلين الأول والثاني لم يكن تطور الجيل الثالث تحوّلاً مفاجئاً لكنه تطور عبر الزمن مع تقدم كل جيش بوتيرته الخاصة، وفي 2004 على سبيل المثال انتقد ليند الجيش الامريكي لعدم قدرته التقدم الى ما بعد الجيل الثاني من الحروب:

"الجيل الثاني متصل بالوقت الحاضر لأن الجيش الأمريكي ومشاة البحرية الأمريكية تعلموا حرب الجيل الثاني من الفرنسيين خلال وبعد الحرب العالمية الأولى، وحلّ الطيران محل المدفعية كمصدر رئيسي للنيران، لكن من جانب آخر (ورغم الاتجاه الرسمي لمشاة البحرية الأمريكية، الذي يعتمد حرب المناورة من الجيل الثالث للحرب) فالجيش الأمريكي اليوم مشابه الجيش الفرنسي (أي الجيش الفرنسي إبان الحرب العالمية الثانية)".

لوضع خصائص الجيل الرابع للحرب الحديثة (أي الحرب المعاصرة) يركّز مؤلفو نظرية حروب الجيل الرابع على: **أولاً**– إسقاط خصائص الأجيال الثلاثة السابقة على طبيعة مستقبل الجيل الرابع للحرب و**ثانياً**– رصد التغيرات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتقنية التي أثّرت في تطور حروب الجيل الرابع.

من جهة، عند تحليل تطور الأجيال السابقة يعرّف مؤيدو نظرية الجيل الرابع العديد من الخصائص للحرب التي تطوّرت وتقدّمت من جيل لآخر، وفي مقاله الأصلي يؤكد ليند على أربع أفكار مركزية

[27] الجيش الألماني إبان الحكم النازي.

صاغت التحولات في أجيال الحروب السابقة. **وحسب ليند فقد اقترنت كل نقلة من جيل لآخر بتشتت أكبر لميدان المعركة، وتقليل الاعتماد على الخدمات اللوجستية المركزية والتركيز على الوحدات الأصغر ذات القدرة العالية على المناورة والحاجة المتزايدة لتقويض قدرة العدو الداخلية بدلاً من السعي لتدميرها مادياً**، وكما يختم هاميس مراجعته للأجيال الثلاثة الاولى:

كل جيل غاص أكثر من الجيل السابق له في أراضي العدو في سعي لهزيمته، فإن كانت حروب الجيل الرابع تقدماً منطقياً فيجب أن تبلغ مواقع أبعد في عمق العدو بالقرب من مؤخرته، فهي تركّز على التدمير المباشر لإرادة القتال السياسية لدى العدو.

وكذلك وحسب هاميس فوتيرة التغيير في تسارع:

لقد استغرق تطور الجيل الاول من الحروب مئات السنين، أما الجيل الثاني فقد تطور وبلغ ذروته في غضون مئة سنة ما بين وواترلو[28] وفيردان[29]، ونضج الجيل الثالث في أقل من 25 سنة، ومن الواضح أن حروب الجيل الثالث لن تكون في طليعة الحروب خلال الستين عاما القادمة.

ومن جهة ثانية وخلال وضعهم لخصائص الجيل الرابع للحرب يركّز ليند وهاميس وآخرون على التغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتقنية التي حدثت وتحدث منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. وبالتركيز على عمليات العولمة من تكاثر المنظمات الدولية والمنظمات غير الحكومية والنمو الاقتصادي وتقنيات الاتصالات والنقل الحديثة، ادعى مؤيدو حروب الجيل الرابع أن هذه التغيرات الاجتماعية الكبرى أثّرت أيضاً على طبيعة الحرب وبالتالي على تشكيل خصائص الطريقة الحديثة للحرب، وبتحليل الحقيقة التاريخية بأن التمرد غالباً ما كان يُهزم بقوى الجيل الثالث من الحروب منذ سنة 1945، **وبالتركيز على حالات الثورة الشيوعية الصينية وحرب فيتنام وعلى انتفاضة الأقصى بالذات قال هاميس أنه وفقاً للتغيرات الجيوسياسية والاجتماعية والاقتصادية**

[28] جرت معركة واترلو في 18 من حزيران سنة 1815 بين فرنسا بقيادة نابليون وتحالف من سبع جيوش أوروبية قرب بلدة واترلو في بلجيكا، وكانت جزءاً من بريطانيا آنذاك، وانتهت المعركة بهزيمة فرنسا، وكانت خاتمة الحروب النابليونية.

[29] جرت معركة فيردان على الجبهة الشمالية الشرقية لفرنسا في الحرب العالمية الأولى بين الجيشين الألماني والفرنسي, تعتبر أطول معركة في الحرب العالمية الأولى استمرت من 21 شباط إلى 18 كانون الأول عام 1916, تعتبر المعركة الأكثر دموية في الحرب العالمية الأولى حيث وصل عدد القتلى فيها إلى المليون قتيل تقريباً, قاد المعركة من طرف الفرنسيين الجنرال الشهير بيتان.

والتقنية، فقد انتقلت طبيعة الحرب من العصر الصناعي الذي يركّز على تدمير القوات المسلحة للعدو الى العصر المعلوماتي الذي يركّز على تغيير عقول صناع القرار من سياسيي العدو.

وبجمع هذين الفهمين معاً (الميول العامة للانتقالات بين الأجيال والتغيُّرات الاجتماعية بعد سنة 1945) يؤكِّد المختصون في نظرية حروب الجيل الرابع على ثلاثة خصائص لحروب الجيل الرابع:

أولاً– يدّعون أنه بازدياد ميول التشتت للقوى في ساحة المعركة يبدو أن حروب الجيل الرابع ستكون مشتتة وغير معرّفة على نحو واسع، والتمييز بين الحرب والسلم منخفض حتى الدرجة صفر.

ثانياً– ستختلط المستويات التكتيكية والاستراتيجية على اعتبار أن البنية التحتية السياسية للعدو ومجتمعه المدني باتا هدفاً قتالياً.

ثالثاً– بما أن حروب الجيل الرابع تستهدف إرادة القتال أكثر من القتال نفسه ستستخدم كل الشبكات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية لإقناع صناع القرار السياسي لدى العدو بأن استراتيجيتهم إما غير قابلة للتحقيق أو أن تكاليفها تزيد على مكاسبها، وبكلمات أخرى وبحسب مؤيدي حروب الجيل الرابع فالحرب الحديثة هي صيغة مطوّرة من حرب التمرد تنطلق من قاعدة أن الإرادة السياسية المتفوّقة عندما توظّف بشكل ملائم يمكن أن تَهْزِم اقتصاداً وجيشاً أقوى، وهي تستفيد من الشبكات الاجتماعية للاستمرار بقتالها "بمهاجمة عقول صناع القرار لدى العدو بشكل مباشر".

ولكن لاحظ مؤلِّفون معينون عدداً من نقاط الضعف في نظرية الجيل الرابع، وحسب انتوليو جوزيف اشيفاريا[30] مؤلف كتاب "حرب الجيل الرابع وأساطير أخرى" فأحد مشكلات المفهوم هي **المبالغة في دور التمرد في الصراعات الحديثة:**

---

30 انتوليو جوزيف اشيفاريا هو محرر المعايير الفصلية في كلية الحرب الأمريكية وشغل مدير الأبحاث لهذه الكلية أيضاً, الدكتور إيشفاريا هو خريج الأكاديمية العسكرية الأمريكية ، وكلية القيادة والأركان العامة للجيش الأمريكي ، وكلية الحرب العسكرية الأمريكية ، وكان زميل أبحاث زائر في جامعة أكسفورد. وهو حاصل على درجة الماجستير والدكتوراه. شهادات في التاريخ من جامعة برينستون

لا يوجد داعٍ لإعادة اختراع العجلة فيما يتعلق بحالات التمرد –الكبيرة منها والصغيرة– أو ما يمت لها بصلة. لقد أُنجِزت الكثير من الأبحاث المعمّقة في هذا المجال، ليشمل تأثيرات العولمة وتقنيات المعلومات التي كانت بحوزتنا سابقاً وحالياً ومستقبلاً على مثل هذه الحركات ولا نحتاج تسمية أخرى، إضافة الى الدعم المنطقي غير المتماسك الذي يجعل الواضح مبهماً.

ونقطة الضعف الثانية في نظرية حروب الجيل الرابع حسب إشفيرليا هي **صلتها المباشرة بالتركيز الواضح الضيق على التمرد**، فهي لا تتجاهل دور الدولة الوطنية في الصراعات الحديثة فحسب بل لا تطرح سوى القليل جداً من الحلول في هذا المجال. إن انتشار استخدام امكانيات مختلفة غير عسكرية (سياسية والاقتصادية واجتماعية...) ليس ظاهرة جديدة في الصراع:

المشكلة الرئيسية التي لم يتطرق لها حتى مؤيدو نظرية حروب الجيل الرابع هي كيف تنسّق أنماطاً متنوعة من القوة، وكل منها يعمل بطريقة فريدة وحسب جدوله الزمني لتحقيق أهداف محددة، ولتحقيق هذا دون إحداث عواقب سيئة غير مرغوبة على الأقل.

نظرية الحرب المركّبة:

تطورت نظرية الحرب المركبة نهاية التسعينات على يد المؤرّخ العسكري توماس هوبر [31]، وهوبر هو أول من صاغ مصطلح الحرب المركّبة سنة 1997 في مقال بعنوان "نابليون في اسبانيا ونابولي: الحرب المركّبة المحصّنة". وبعدها بخمس سنوات أعاد نشر مقاله ليصبح مجلداً بعنوان "الحرب المركبة: العقدة القاتلة" وهو يضم مساهمات لعدد من المؤرخين العسكريين الذين حللوا صراعات مختلفة على ضوء هذا المفهوم.

وبخلاف نظريات الحرب المفتوحة وحروب الجيل الرابع التي وضع أُسُسَها المجرِّبون (أي العسكريّون والعسكريّون السابقون) لم يدّعي المؤرخون العسكريون الذين طوروا مفهوم الحرب المركّبة أنها ظاهرة جديدة، بل قالوا إن الحرب المركّبة مجرد منصة مفاهيم جديدة توفّر طريقة جديدة لفهم

[31] توماس م هوبر هو مؤرخ عسكري وباحث متخصص بالشأن الياباني, له عديد من المؤلفات العسكرية أبرزها "الحرب المركّبة: تلك العقدة القاتلة" وهو الكتاب الذي اقتبس منه المؤلف وناقشه في هذه الفقرة.

حالات صعبة استخدمت فيها القوى النظامية وغير النظامية عملية الجمع بين عوامل القوة، وتاريخ الحرب الطويل زاخر بمثل هذه الحالات، ومثل المؤرخين الآخرين الذين اقترحوا أُطر عمل مفاهيمية (نماذج تفسيرية) بناءً على أمثلة تاريخية (مثل ميشيل روبرتس[32] ومفهومه "الثورة العسكرية" الذي وضعه بناءً على حالة السويد في القرنين السادس عشر والسابع عشر) فالحرب المركّبة مفهوم بسيط يقدّم القليل جداً على صعيد الإطار النظري:

إن الحرب المركبة هي الاستخدام المتزامن للقوات النظامية أو الرئيسية والقوات غير النظامية أو قوّات حرب العصابات ضد عدو ما، فالقوات غير النظامية تقلل من الجهود التي تبذلها القوات النظامية عبر جمع المعلومات والمؤن والقوات وفي الوقت نفسه تحرم العدو منها، (و) تزوّد القوات الرئيسية قوات العصابات بالمساعدة على تثبيت العدو في مكان معين وبالتدريب والدعم بالمعلومات الاستراتيجية وبالنفوذ السياسي المحلي، (إن الحرب المركبة) هي من النوع الذي يكون فيه الكل أكبر من مجموع الأجزاء.

وفي تعريفه للحرب المركبة أوضح هوبر سمتين جوهريتين هما **التباين والاحتلال**– تحدث الحرب المركبة غالباً عندما تحتل قوة رئيسية مُتَدَخِلة كل منطقة القوى الثانوية, (و) حالما تنقسم القوة الرئيسية الى قوى أصغر، تصبح هذه القوى الصغيرة في موقع يسمح بتعرُضِها للحرب المركبة. إن هاتان الخاصيتان مطلوبتان جداً ويقول هوبر إن الحرب المركبة هي بالفعل ظاهرة مرنة، فهي تحوي مصفوفة كبيرة من المتغيّرات تشكّل صيغة جديدة من الحرب يتم كشفها من خلال تحليل الحالات التاريخية، ويدّعي هوبر أن مفهوم الحرب المركبة بشكل عام يفترض أن جانباً واحداً (الأقل قوة) يمكن أن يستخدم أساليب الحرب المركبة ضد العدو الأقوى (المحتل). لكن في بعض الحالات يمكن لكلا الجانبين استخدام أساليب الحرب المركبة، وفي معظم الحالات التاريخية للحرب المركبة يستخدم أحد الأطراف الحرب المركبة بشكل كبير جداً ثم يستخدم الطرف الآخر هذه الأساليب ما استطاع الى ذلك سبيلا، وبالمثل بينما يدّعي هوبر أن نموذج الحرب المركبة يشمل

[32] ميشيل روبرتس "1908 – 1996" سياسي بريطاني وبروفيسور متخصص بالتاريخ السويدي.

نوعين من القوة (نظامية وغير نظامية) فهو يقول أيضاً أن: *"أنواعاً عديدة من الميليشيات يمكن أن تسقط بين قطبي القتال ويمكن أن تساهم بشكل فعّال في عملية الحرب المركبة"*. ومن جهة: يطرح المفهوم أن مشغّل الحرب المركبة (القائد الأعلى في الحرب المركبة الذي يجاهد لتوجيهها بفاعلية) ينسّق بين كل القوى النظامية وغير النظامية التي يقودها، ومن جهة أخرى وبتحليل عدد كبير من الحالات التاريخية يخلُص كوبر الى أنه: *"في الحقائق الأكثر تعقيداً يمكن أن يمتد التنسيق الى جميع العناصر العسكرية المُشارِكة أو بعضها أو لا يصل الى أي منها"*.

ويدعي هوبر أخيراً أنه وبينما ينقسم إطاره التحليلي الى فرعين بفرض أن الصراع إما حرب مركبة أو لا، ففي الحقيقة: يجد المرء درجات من الحرب المركّبة، فيوجد حرب مركبة حيث تتواجد كافة عناصر الحرب المركبة، وما يمكن للمرء تسميته: شبه الحرب المركبة هي الحرب المركبة التي يغيب عنها واحد أو أكثر من عناصرها. ومما يسترعي الانتباه أن هوبر لا ينتقد بساطة طرحه الخاص فقط بل يدافع عن هذه البساطة أيضاً، فهو يقول إن نموذج الحرب المركبة مبسّط بشكل مقصود في معظم أساسياته كي يسمح بالتحليل خارج إطار الأرقام للحالات المعقدة، وبمعنى أن هوبر سعى لتكوين مفهوم يمكن أن يعمل كعدسة مكبّرة يمكن من خلالها رؤية تاريخ الحرب، مدعياً أنه ليس فقط يوجد حالات كاملة تتصارع فيها القوى النظامية وغير النظامية ولكن أن الحرب المركبة ما هي إلا حالة خاصة من الحرب. وبينما تكون الحقيقة معقدة جداً فإن نموذج الحرب المركبة البسيط سيقدم للمحللين نقطة بداية للخوض في هذه التعقيدات.

وحسب هوبر فالمتغير الأكثر حسماً ونجاحاً في الحرب المركبة هو ما يسميه بـ "الحرب المركبة المحصّنة"، وفي هذا النوع من الحرب يضاف الى المكونين الرئيسيين للحرب (القوة النظامية والقوة غير النظامية) قوة نظامية سيكون لديها ملاذ آمن وستكون متحالفة مع قوة كبيرة أخرى، وهذا التحصين لمحرّك الحرب المركبة يشير أكثر الى شعور مجرّد بـ "الحماية من التدمير" و"التعزيز" أكثر من خلال بناء مواقع دفاعية ملموسة، والتحصين يصنع الفرق بين الحرب المركبة التي يصعب هزيمتها والحرب المركبة المحصنة التي يستحيل هزيمتها تقريباً، بمعنى أنه

عندما يكون لمُشَغّل الحرب المركبة ملاذ آمن لقواته الرئيسية (تؤمّن له القدرة على سحب القوة الرئيسية النظامية الى مكان لا يمكن للعدو الوصول إليه بسبب عوامل جغرافية أو تقنية أو دبلوماسية أو سياسية أو غيرها)، ويتمتع كذلك بدعم حليف قوي يمكن له عندئذٍ أن يُبقِي قواته النظامية في الميدان الى أجل غير مسمى، وكذلك حماية وتغذية حرب العصابات بذات الاسلوب.

ويستشهد هوبر باثنتين من حروب المستنقعات واستخدمت فيهما الحرب المركبة المحصنة لهزيمة أعداء ذوي قوة كبرى: اسبانيا من 1808 وحتى 1814 [33]وفيتنام من 1965 الى 1973[34]، لكن من الحالات التي خضعت للتحليل في هذا المجلد حربين آخرتين اندرجتا تحت تعريف هذا المفهوم: الثورة الأمريكية من 1775 وحتى 1783[35] والتدخل السوفياتي في أفغانستان من 1979 حتى 1989، حتى ولو لم يذكرهما المؤرخون الذين حللوا هذه الحروب من منظور الحرب المركبة بشكل واضح، ويبدو أنَّ القول بأن كلتا الحالتين مثالان عن الحرب المركبة المحصّنة كلام صحيح، ففي الحرب الاولى وفّرت التضاريس المتنوعة والواسعة ملاذاً آمناً واسعاً للولايات المتحدة، بينما لعبت فرنسا دور الحليف القوي، وفي الحرب الثانية وفّرت جبال افغانستان المنيعة حماية لقوات المجاهدين من السوفييت، بينما كانت الولايات المتحدة حليفهم القوي.

ومن الجدير بالذكر أن هوبر ومؤيدين لمفهومه لم يقولوا بأن هذا المفهوم ظاهرة جديدة، وبدلاً من ذلك وبمتابعة وتحليل تاريخ الحروب حاول هوبر إيجاد نماذج مشابهة عملت فيها القوى النظامية وغير النظامية بنفس الوقت: "لأن الحرب المركبة المحصنة سمحت وتسمح لمُحَرِّكي هذه الحرب بالقتال والانتصار في كل الحالات التاريخية تقريباً، بنِسَب القوة التقليدية التي تكون فيها ضعيفة

---

[33] حرب شبه الجزيرة، كانت صراعاً عسكرياً بين امبراطورية نابليون وامبراطورية البوربون الاسبانية، للسيطرة على شبه الجزيرة الإيبيرية خلال الحروب النابليونية، وبدأت الحرب بغزو الجيشين الفرنسي والاسباني البرتغال سنة 1807، وتصاعدت الامور سنة 1808 عندما تحوّلت فرنسا الى غزو اسبانيا حليفتها السابقة.

[34] حرب فيتنام، تُعرَف أيضاً بحرب الهند الصينية الثانية، وكانت صراعاً مع الأمريكيين شمل فيتنام ولاوس وكمبوديا واستمر ما بين عامي 1955 حتى 1975 عندما سقطت سياجون عاصمة فيتنام بيد الثوار الفيتناميين.

[35] الثورة الأمريكية جرت ضد الوجود الاستعماري ما بين عامي 1765 و1783، حيث هزم الوطنيون الامريكيون في ثلاثة عشرة مستوطنة امريكية الانكليز بمساعدة فرنسا، حتى نيل الاستقلال عن بريطانيا وقيام الولايات الأمريكية المتحدة.

للغاية أمام القوة الغازية، ومن المرجّح أن تواجه هذه القوى هذا النوع من الحرب في المستقبل". كما أن المخططين العسكريين بحاجة لفهم آلية هذا النوع من الحرب قبل حدوثها.

استراتيجية الدفاع الوطني لعام 2005:

آخر وثيقة ذات تأثير على تطور مفهوم الحرب الهجينة هي استراتيجية الدفاع الوطني عام 2005 التي كتبها وزير الدفاع دونالد رامسفيلد، وحسب هوفمان فإن استراتيجية الدفاع الوطني وضعت الخطوط العريضة للنهج المطلوب للتعامل مع "التحديات غير التقليدية وحالة الضبابية الاستراتيجية" وتلبية تحديات القرن الحادي والعشرين التي تنقسم الى ثلاث أقسام رئيسية: (الأمن الأمريكي في القرن الحادي والعشرين والأمن الاستراتيجي في القرن الحادي والعشرين والامكانيات والميزات المرغوبة) وحددت استراتيجية الدفاع الوطني منهجاً نشطاً على مراحل للدفاع عن الأمة الامريكية ومصالحها. ويبدو أن الهدف الرئيسي لاستراتيجية الدفاع الوطني هو محاولة إعادة النظر في محفظة استثمارات وزارة الدفاع الامريكية في ضوء البيئة الأمنية المتغيرة بعد الحادي عشر من أيلول 2001، وكذلك تحليلها للمجموعات الأربعة الرئيسية من التحديات التي تشكّل البيئة الأمنية للقرن الحادي والعشرين والذي كان ذا قيمة كبيرة لنموذج هوفمان التفسيري.

وتضم المجموعة الاولى "**التحديات التقليدية**" التي تترافق عادة بدول لديها جيوش وبحرية وقوات جوية في أشكال راسخة من المنافسة العسكرية، وتتناول المجموعة الثانية "**التحديات غير النظامية**" من قِبَل الأعداء الذين يستخدمون أساليب غير نظامية بهدف الحد من النفوذ والصبر والارادة السياسية الامريكية، ومتّبعين أسلوباً طويل الأجل لتكبيد الولايات المتحدة تكاليف بشرية ومادية ومالية وسياسية باهظة التكاليف لإجبارها على التراجع الاستراتيجي من منطقة مهمة أو مسار عمل رئيسي. أما المجموعة الثالثة من التحديات فتدعى "**التحديات التخريبية**"، وتأتي هذه التحديات من القوى العدائية التي تسعى لحيازة إمكانات مدمِّرة وخصوصاً أسلحة التدمير الشامل. والمجموعة الرابعة فتضم "**تحديات إحلال الفوضى والتشويش**" التي يفرضها أعداء محتملون يسعون الى تطوير تقنيات المعلومات وما يرتبط بها من الامكانيات العسكرية بشكل ثوري ليحرزوا تغييراً جوهرياً في

مفهوم الحرب. وحسب استراتيجية الدفاع الوطني فهكذا خروقات تشويشيه يمكن أن تحدث في التقنية الحيوية وعمليات الانترنت والفضاء وأسلحة الطاقة الموجهة وما شابه.

من جهة ليس هنالك الكثير مما هو جديد في هذه الأوصاف للتحديات خصوصاً عند الأخذ بعين الاعتبار تعريف التحديات غير النظامية، ومن ناحية أخرى فالمساهمة الرئيسية للاستراتيجية الوطنية للدفاع الامريكي هو اعتبارها أن هذه التحديات قابلة للتداخل، لأن جهة مؤثرة في واحدة من هذه التحديات يمكن أن تحاول تعزيز وضعها بطرق وأساليب الآخرين، **وفي تحليلها لهذه الإمكانات الناشئة للتحديات المتضافرة تنص الاستراتيجية الوطنية للدفاع الامريكي على:**

تشير الخبرات السابقة الى أن أخطر الظروف تنشئ عندما نواجه تحديات معقَّدة، فعلى سبيل المثال مثّل أعداؤنا في أفغانستان والعراق تحديات تقليدية وغير نظامية، والمجموعات الارهابية كالقاعدة تهديدات غير نظامية لكنهم يسعون حثيثاً للحصول على قدرات تدميرية، وتمثّل كوريا الشمالية حالياً تحديات تقليدية وغير نظامية ومدمرة معاً.

وكذلك يخلُص هذا التقرير الى أن الاستراتيجية الوطنية للدفاع تحذّر من سعي أقوى الأعداء في المستقبل لتوحيد امكاناتهم المدمرة في عدة أشكال من الحروب التقليدية والغير النظامية والمدمّرة.

ويجب التأكيد على اعتبارين هامين في استراتيجية الدفاع الوطني:

الاول: هو التركيز على مستوى الاستراتيجية العليا المكتوبة لأهداف محددة للحفاظ على وزيادة المزايا التنافسية الأمريكية في ضوء البيئة الأمنية الجديدة، حيث تضع استراتيجية الدفاع الوطني إطاراً تقليدياً جداً لتحديات ناشئة مختلفة.

الثاني: اعترافها بأن التقسيم بين هذه التحديات بات غير واضح البتّة وأن هذا الانقسام سيُنتِج أعداء لأمريكا أكثر قوة، بمعنى أن استراتيجية الدفاع الوطني تشير الى أن–دون الخوض في التفاصيل لأن هذا ليس هدفها– تحديات الغد لن تمثل تحديات واضحة تماماً ومنفصلة، بل مزيجاً خطيراً من هذه التحديات.

ميلاد الحرب الهجينة:

ناقش الفصل السابق الجدل في المفاهيم حول طبيعة الحرب التي سبقت تطور مفهوم الحرب الهجينة، ويتناول هذا الفصل سمات هذا المفهوم الثاني كما كوّنه هوفمان بدايةً، ويبدأ بتحليل لأعمال هوفمان وكذلك المفكِّرين العسكريين الأمريكيين قبل الخوض في مفهوم الحرب الهجينة في ظروف الثقافة الاستراتيجية الامريكية، وكيف يختلف المفهوم عن النظريات التي نوقِشت في الفصل السابق.

ويهدف الفصل لتقديم نظرة كاملة على المفهوم الأصلي، وعلى سماته في الخطاب العسكري الأمريكي وعن الأسباب التي تقف وراء نجاحه، فرغم أن مصطلح الحرب الهجينة يشير الى "الضبابية والخلط بين سمات سابقة لأشكال مختلفة من الحرب، يمكن القول بأن مفهوم هوفمان نفسه كان مبنياً على أفكار ونظريات مختلفة وهجينة تطورت ما بين أواخر التسعينات وأوائل الألفية الجديدة، وبالإضافة الى المصادر الأربعة التي نوقشت في الفصل السابق والتي أثّرت في تطوير هوفمان للحرب الهجينة –أي الحرب المفتوحة وحروب الجيل الرابع والحرب المركّبة واستراتيجية الدفاع الوطني الأمريكي– فهو يذكر فضل علماء آخرين ومفكرين عسكريين استراتيجيين على عمله: "العديد من المحللين الآخرين اكتشفوا هذه الاتجاهات منهم الروس والاستراليون ومؤلفون أمريكيون يتحدثون عن صيغ الحرب المتعددة النماذج أو المتعددة الأشكال".

خصوصاً وأن هوفمان يوضّح أهمية أعمال ميشيل إيفان[36] وستيفن بلانك[37] وكولن جاري[38] وجون أرجيلا[39] وبروس هوفمان[40] وجون روب[41] في تكوين مفهومه.

[36] ضابط استرالي ومدرس في الكلية الحربية الأسترالية للدفاع, مؤلف كتاب "جيوش المستقبل, تحديات المستقبل, ميدان المعركة في عصر المعلومات"

[37] الدكتور ستيفن بلانك، زميل بارز في مكتب السياسة الامريكية الخارجية، ونشر ما يزيد على 900 مقال حول الجيوش السوفياتية/الروسية والامريكية والآسيوية والاوروبية والسياسات الخارجية.

[38] كولن جاري: كاتب بريطاني أمريكي في الجغرافيا السياسية وبروفيسور في العلاقات الدولية والدراسات الاستراتيجية في جامعة ريدنج، حيث يدير مركزاً للدراسات الاستراتيجية، كما أنه مساعد قديم في المعهد الوطني للسياسة العامة.

[39] جون اريجولا محلل وأكاديمي أمريكي في العلاقات الدولية.

[40] بروس هوفمان: محلل سياسي متخصص في دراسة الارهاب ومكافحة الارهاب وحرب العصابات ومكافحة حرب العصابات.

[41] جون روب: ضابط أمريكي تخرج من أكاديمة القوات الجوية الأمريكية, وحصل على شهادة بكالوريوس في علوم الملاحة الفضائية, درب في الجيش الأمريكي وخدم في القوات الجوية حتى عام 1992, مؤلف كتاب "نحن المدانون, قصة فيلق أجنبي"

وبالتالي يبني هوفمان نظريته عن الحرب الهجينة على الجمع بين دراسات أجراها مفكّرون آخرون على الحرب الحديثة:

"فتأخذ (الحرب الهجينة) من مدرسة حروب الجيل الرابع مفهوم الطبيعة الضبابية للصراع وفقدان الدولة لاحتكار العنف, وتأخذ مفاهيم عمليات الجمع الشامل المتعدد الأبعاد و أفكاراً محورية من المحللين الصينيين، ومن جون آركولا وهاميس قوة الشبكات، وأخذت فكرة الفائدة من تآزر القوات التقليدية وغير التقليدية من أنصار فكرة الحرب المركبة لكن بشكل أقل وعلى مستويات أكثر تكاملاً، وأخذت من الخبراء الاستراليين التعقيد المتزايد والطبيعة التفصيلية للبيئة العملياتية وكذلك الطبيعة الانتهازية لأعداء المستقبل".

ويسمح هذا التعاضد الفكري بين مدارس مختلفة للتفكير الاستراتيجي لهوفمان بالتمييز التام بين مصطلحين هامين ومترابطين كمفاهيم:

الأول هو الحرب الهجينة التي تضم "مجموعة من الأساليب المختلفة للحرب بما فيها الإمكانيات التقليدية والتكتيكات والتشكيلات غير النظامية والأعمال الإرهابية بما في ذلك العنف العشوائي والإكراه والاضطراب الجنائي".

والثاني هو "التهديد الهجين" عدو يستخدم خليطاً من الأسلحة التقليدية والتكتيكات غير النظامية والارهاب والأعمال الاجرامية في أجواء المعركة ليجني ثمارها السياسية.

ورغم أن هوفمان يستعير أفكاراً معينة من نظرية الحرب المفتوحة كنتائج عامة عن التهديدات المجمّعة والطبيعة الضبابية للصراعات الحديثة، ومن دراسات معيَّنة عن التهديد الذي يمثِّلِه المزيج المحتمل للإمكانات ذات التقنية العالية مع الارهاب والحرب عبر شبكة الانترنت الموجّهة ضد أهداف مالية؛ فمفهوم هوفمان عن الحرب الهجينة مفهوم عملي الى حد بعيد. **وبخلاف الحرب المفتوحة التي تحاول استيعاب الصورة بأكملها- وكانت فوائدها أكبر على المستوى الاستراتيجي- يركّز مفهوم هوفمان عن التهديدات الهجينة بشدة على الأنشطة العسكرية العملية والتكتيكية الموجّهة والمنسّقة ضمن أجواء المعركة لإحراز تأثيرات متزامنة.**

بمعنى أنه: كان الهدف من مفهوم الحرب الهجينة هو أن يكون أكثر فائدة للعسكريين الممارسين منه للمنظّرين الاستراتيجيين الكبار، كما سعى الى تلبية الحاجة لفهم "أنماط التهديدات التي يمكن للقوات البحرية مواجهتها في المستقبل أكثر من استخدامها كنموذج استراتيجي للصراع الانساني في المستقبل".

كما أن الحرب الهجينة عند هوفمان مبنيّة بشدّة على نظرية الحرب المركّبة ونموذجها التفسيري للفوائد الجمعيّة من التشغيل المتزامن للقوات النظامية وغير النظامية، **لكنها تختلف عن مفهوم الحرب المركبة، التي تميّز بين القوات النظامية وغير النظامية على المستويات التكتيكية والعملية وكذلك بين امكانيات القوات ومساهمتها في الأهداف الاستراتيجية للحملة، في أنّ الحرب الهجينة يخوضها أعداء يسعون "لتحقيق النصر من خلال الدمج بين تكتيكات غير نظامية وما يتوفّر من أشد الأسلحة فتكاً**". واعترافاً منه بالمساهمة التي قدّمها المؤيدون للحرب المركبة على مفهومه، لم يدّعي هوفمان وجود أي جديد في الجمع بين المكوّنات النظامية وغير النظامية للقوات، وبدلاً من ذلك ادّعى أنه وبينما "في معظم الصراعات تشكّلت هذه المكونات في مسارح مختلفة أو أجسام مختلفة لا يمكن التمييز بينها"، فإنه في الحرب الهجينة "تتحول هذه التهديدات الى تهديد واحد في ساحة معركة واحدة".

وبإضافة الإرهاب والجريمة المنظمة الى القوات غير النظامية الذي يؤكّد عليه مفهوم الحرب الهجينة يجلب هوفمان عدداً من الأفكار التي صاغها أنصار مفهوم حروب الجيل الرابع، مثل الشبكات الاجتماعية وطبيعة الصراع المشتَّتة والمبهمة الى حد بعيد، وكذلك خسارة الدولة لاحتكار العنف. وهكذا فالتأكيد على فكرة: مفهوم حروب الجيل الرابع لهزيمة الإرادة السياسية لدى صنّاع القرار، تكرر عند هوفمان:

"عملياً يهدف المكوّن غير النظامي للقوة والذي يكون منصهراً ومتكاملاً الى إثارة رد فعل مبالغ فيه أو زيادة تكاليف الأمن على المدافع، وقد يشمل توريط الهدف(في الحرب الهجينة) في صراعات

طويلة الأمد مع مجموعة من القوات التي نُزِعَت إمكاناتها القتالية الى حد كبير بغية التخفيف من المقاومة، أو الهزيمة الكاملة لحكومة ذات توجه تقليدي".

لكن على خلاف حروب الجيل الرابع التي تركّز على التمرد بشكل أساسي وتدّعي أن حروب الجيل الرابع يمكن أن تُستَخدَم من قِبَل جهات مؤثرة تابعة للدولة فقط، يقول هوفمان أن الحرب الهجينة يمكن أن تُخاض من قِبَلِ الدول ومن قِبَل جهات مؤثرة متنوعة ليست جزءاً من دولة، وكذلك من خلال عمليات الجمع المختلفة:

"تمزج التهديدات الهجينة بين حالة الصراع الفتّاك للدول وبين الحماسة المتعصّبة والشديدة للحرب غير النظامية، وفي مثل هذه الصراعات يستغل الأعداء في المستقبل (الدول أو المجموعات التي ترعاها الدول أو الجهات ذات التمويل الذاتي) إمكانية الوصول الى القدرات العسكرية بما فيها الأنظمة ذات الأوامر المشفّرة، وصواريخ أرض جو المحمولة، والأنظمة القاتلة الحديثة الأخرى، وكذلك التمردات الطويلة الأمد التي تنفّذ الكمائن وتصنع العبوات الناسفة البدائية وتقوم بالاغتيالات".

كما يمكن تتبع ما ورد في تقرير استراتيجية الأمن الوطني الامريكي عام 2005 ضمن تعريفات الحرب الهجينة. لكن بينما يقول هوفمان أنه استخدم أنواع التحديات الأربعة لصياغة فكرته عن الحرب الهجينة؛ فهو لم يتبنى هذه الأفكار دون انتقادها، وهكذا فقد استحسن طرح استراتيجية الدفاع الوطني بأنّ معظم التهديدات المعقّدة ستسعى للتآزر عبر جمع تحديات مختلفة وأن أنماط التهديد يمكن أن تتداخل، وبالتالي إيجاد أقوى الأعداء والخصوم، ورغم أنه يستبدل التهديدات المدمّرة بالتهديدات الإرهابية "التي قد تكون مدمّرة في القتال" ، ويستبدل التحديات التخريبية بالأعمال الاجرامية المشتقة من "الأعمال المربكة للمجتمع".

وحسب هوفمان فمفهوم الحرب الهجينة:

- **يصف سمات الصراع المتطور أكثر من مكافحة التمرد.**
- **يتحدى التفكير "التقليدي" الحالي، والإطارات الفكرية الثنائية التي تطغى على النقاش.**

- **يسلّط الضوء على التفاصيل الحقيقية وعلى الطيف الواسع للصراع الانساني.**
- **يثير الانتباه حول المخاطر المحدقة وتكاليف كل خيار لمواجهة الموقف/التهديد المستمر.**

لكن تأتي المساهمة الرئيسية لنموذج هوفمان التفسيري في كونه تطبيقياً، خصوصاً بالنسبة لصنّاع القرار على المستوى العملي، بخلاف مؤيدي الحرب المركّبة الذين حصروا أنفسهم بدراسات تاريخية، أما هوفمان فقد انتبه أكثر للمؤسسات الفكرية في نظريته، وبخلاف الضباط الصينيين ومحاولتهم وضع تحليل جامع مانع لطبيعة الصراع الانساني المتغيرة، فتحليل هوفمان مقيّد بالمستوى العملياتي، مما يجعل الحرب الهجينة واسعة بحيث تشمل الحرب المفتوحة وفي نفس الوقت بسيطة بحيث تكون قابلة للتطبيق، وأخيراً ما هو أهم من هذا وعلى النقيض من أنصار حروب الجيل الرابع الذين لا يقدّمون سوى القليل في مجال وضع الحلول، يضع هوفمان قائمة واضحة بالتوصيات التي ينبغي على الجيش الأمريكي أخذها بعين الاعتبار في مجال إعداد القوات والعقيدة والتنظيم والتدريب والتعليم. أي أن هوفمان بخلاف أسلافه لم يكتفي بوضع الخطوط العامة وتعريف طبيعة نظريته؛ بل سعى لشرح صلتها بالنقاش الدائر اليوم حول وضع القوة، فلم يقدّم مفهوماً جديداً مبنياً على تحليل الوقائع التاريخية فحسب بل قدم وصفة مفصّلة للحقائق الجديدة التي يجب تبنيها.

وعند مناقشة منشأ نظرية الحرب الهجينة يستحيل تجنب المثال الرئيسي الذي استخدمه هوفمان لإثبات أهمية نموذجه التفسيري وهو حرب لبنان الثانية سنة 2006 بين الكيان الصهيوني وحزب إيران اللبناني. وفي تحليله للصراعات المختلفة في القرن العشرين التي تمتد من التمرد الايرلندي سنة 1919–1920[42] مروراً بالمجاهدين الأفغان في الثمانينات وصولاً الى تجربة البلقان في حقبة يوغوسلافيا السابقة وانتهاءً بقتال الثوار الشيشان للروس في التسعينات **يَخلُصُ هوفمان الى أننا نجد في كل الحالات تكتيكات غير نظامية وإرهاباً وكذلك أنشطة إجرامية، رغم أن هذه الصراعات افتقرت الى "تعددية الأبعاد" و"التكامل العملياتي" التي ستكون سمة حروب المستقبل الهجينة**

[42] حرب اندلعت بعد اعلان بعض السياسيين الايرلنديين استقلال ايرلندا عن بريطانيا واستمر لنحو عامين وانتهت بإعلان استقلال ايرلندا.

على حد قوله، ورغم أنه يصنّف هذه الصراعات "كنماذج أولية مبكّرة" للحرب الهجينة، فالنموذج الحقيقي الأكثر شمولاً بنظره كان حرب لبنان الثانية، وخصوصاً حزب إيران اللبناني الذي يصفه بأنه "المثال الأوضح عن خصم هجين حديث".

وتقود دراسات هوفمان عن حرب لبنان الثانية الى أربع اعتبارات رئيسية لاستنتاج أن حزب إيران اللبناني يمثّل التهديد المتصاعد الهجين:

الاعتبار الأول يتطرق الى أن حزب إيران اللبناني مثّل **مزجاً حقيقياً بين القوات النظامية وغير النظامية**، فقد كانت قوات حزب إيران اللبناني شديدة الانضباط وجيدة التدريب والتجهيز مما جعل وحداتها أقرب الى الجيش النظامي من حالات التمرد الأخرى التي قاتلت الجيش الصهيوني في الضفة الغربية وقطاع غزة، لكن وفي نفس الوقت كانت هذه القوات منظّمة في خلايا لا تتبع قيادة مركزية مما مكّنها من اتّباع تكتيكات حرب العصابات التكيُّفيّة في المراكز الريفية والمناطق الجبلية في جنوب لبنان.

والاعتبار الثاني: الذي جعل هوفمان يعتبر حزب إيران اللبناني طرفاً في حرب هجينة هو **الاستخدام المنظّم المتزامن لعدد هائل من التقنيات على المستويات التكتيكي والعملياتي والاستراتيجي**، فقد كانت ترسانة حزب إيران اللبناني مكوّنة من العديد من الأسلحة المعقّدة المضادة للدبابات، والتي استُخدِمَت لاستهداف الدبابات الصهيونية والآليات المدرّعة الأخرى، وعدد كبير من الصواريخ المعدّلة قصيرة المدى، وكذلك طائرات مسيّرة مسلّحة، وصواريخ مضادة للسفن، وتقنيات متقدّمة لجمع الاشارات الاستخباراتية.

والاعتبار الثالث: الذي جذب اهتمام هوفمان في حزب إيران اللبناني هو **الاستخدام الناجح المنظّم للأعمال العسكرية والعمليات الاعلامية على المستويات الاستراتيجية والعملياتية**، فبينما كانت انجازات حزب إيران اللبناني موضع شك في الجانب العسكري البحت، استغل التنظيم بكفاءة عالية الحرب الاعلامية لزيادة مكاسبه السياسية الى نجاحاته التكتيكية المحدودة. وفي وصف المعركة الاستراتيجية للمفاهيم خلال هذا الصراع يستنتج هوفمان أنه ورغم الخسائر الكبيرة التي تكبّدها حزب

إيران اللبناني في أكثر جزء من قواته البريّة تدريباً وولاءً، إلا أن مصداقية جيش الدفاع الصهيوني باتت أضعف وخرج حزب إيران اللبناني من الصراع أقوى في الجانب الأيديولوجي.

والاعتبار الرابع: لقتال حزب إيران اللبناني التي استخدمها هوفمان كنموذج أوّلي لمفهومه الحرب الهجينة كان: **استخدامه المتزامن لعمليات الجمع، فقد كان تنظيماً واحداً يستخدم هذه العمليات في ساحة حرب واحدة في مدة زمنية محدودة جداً، مما أعطاه الأفضلية على جيش أقوى (بالمعايير العسكرية التقليدية) وعلى النموذج العسكري الغربي.** بمعنى: عندما تكون قوة ميليشيا ومقاتلين ذوي تدريب عالٍ في ذات المعركة يستخدمون في ذات الوقت صواريخ ذات تقنية منخفضة وطائرات مسيّرة ذات تقنية عالية، وصواريخ كروز ومعدّات استطلاع متطوّرة ومعزّزة بنوع فعّال من الحرب الاعلامية تعظّم من الانجازات على الأرض؛ فإنها لا تندرج تحت أي من التعريفات المختلفة لأنماط الحروب بل إنها تمثّل مزيجاً منهم.

ومن الضروري ملاحظة أن هوفمان يتوقّف قليلاً عن القول بأن نوع الحرب الهجينة التي خاضها حزب إيران اللبناني سنة 2006 كان دليلاً قاطعاً عما ستكون عليه الحروب الهجينة, بل على العكس تماماً، فهو يعترف بأن قرار حزب إيران اللبناني بالجمع بين إمكانيات وقدرات مختلفة كان نتيجة ظروف محددة، مثل قدرة التنظيم على إعداد المنطقة للقتال ضد عدو واحد تمت دراسته جيداً، أو الاستفادة من العلاقات مع إيران وسورية الدولتان اللتان أمدتا الحزب بالمال والسلاح والتدريب العالي المستوى. لذا وحسب هوفمان فصيغة حزب إيران اللبناني للحرب الهجينة مجرد مثال واحد عن عدد كبير من الحروب الهجينة المحتملة. وباستخدام لغة الحرب المفتوحة هو ببساطة خَلطٌ لقائمةٍ كبيرةٍ من التهديدات الهجينة، فعلى سبيل المثال لإثبات تشعُّب مفهومه يحلل هوفمان تجربة البحرية الامريكية ضد إيران في الخليج العربي أواخر الثمانينات، وبالتالي يقول أن مفهومه للحرب الهجينة ليس مقتصراً على الحرب البرية بل إنه ذو صلة بنفس القدر بفهم التهديدات الناشئة في المجال البحري.

كما يقدّم نموذج هوفمان التفسيري للحرب الهجينة مزيتين أساسيتين تفتقر النظريات والمفاهيم التي نوقِشت سابقاً إليهم: **أولاً**- يضع هوفمان نظرية متماسكة من خلال المزج بين أفكار مختلفة من التفكير الاستراتيجي التي ظهرت أواخر التسعينات وحتى عام 2005 لا تتخطى كل مزايا هذه الأفكار فحسب بل تتجاوز حدودها أيضاً. إن النهج التجريدي والفلسفي بعض الشيء للحرب المفتوحة تمثّل بالتطبيق العملي العسكري للحرب الهجينة، والنموذج التفسيري المحدود للحرب المركّبة؛ تلك الفكرة التي صاغها مؤرخون عسكريون تجلى اهتمامهم بالدرجة الأولى بالحالات التاريخية أكثر من النموذج التفسيري، عوّضه هوفمان بنظريته التي كانت أكثر قابلية للتطبيق وأكثر شمولاً، وكذلك التركيز المفرط على التمرد في نظرية حروب الجيل الرابع استبدله هوفمان بفكرة المرونة الكبيرة في تهديدات الحرب الهجينة. **أما المزية الثانية** لنظرية الحرب الهجينة التي تتفوق بها على النظريات والمفاهيم الأخرى التي نوقِشت الى حد الآن هي أن هوفمان وضع أفكاره في سياق نقاش محموم مستمر في أجواء سياسية ذات صلة، وبسبب مشاركته في الصحف الرسمية وتقديمه توصيات وحلول سياسية محددة اكتسبت نظرية هوفمان شعبية بسرعة في الأوساط السياسية والعسكرية الأمريكية.

صعود الحرب الهجينة:

رغم أن هوفمان لم يكن أول من لاحظ استخدام أنماط مختلفة من الحرب في عملية واحدة لدمجها معاً، وبالتالي لم يكن هذا الاستخدام للحرب الهجينة أول مفهوم يتعامل مع هذه الظاهرة، إلا أن مفهومه لاقى بلا شك رواجاً كبيراً, وخصوصاً في الجيش الأمريكي. **ويوجد أربعة أسباب لنجاحه، السبب الأول:** والأكثر وضوحاً هو أن الحرب الهجينة بخلاف النظريات السابقة تقدّم مفهوماً تطبيقياً يعالج بشكل مباشر الخصائص المتطورة للصراع الحديث من وجهة نظر عسكرية واضحة، وبكلمات أخرى، وجد الجيش نظرية الحرب الهجينة أسهل لأنها مصممة لاستخدامها على المستوى

التكتيكي التشغيلي، بدلاً من أن تكون استراتيجية كبرى تنطوي على السياسة والاقتصاد والثقافة (كما في الحرب المفتوحة وحروب الجيل الرابع).

السبب الثاني: لنجاح المفهوم ربما يعود الى سجل مؤلفه الحافل كعقيد في القوات البحرية الامريكية، والذي يضم خدمته في لجنتين وطنيتين وعضويته في ثلاثة مجالس علوم الدفاع، كما يحتل منصباً كزميل باحث في مركز دراسات التهديدات والفرص الناشئة في قيادة القوات البحرية، وكذلك تأليفه عدة كتب ومئات المقالات، لقد كان الشخص المناسب الذي اختار المكان المناسب والوقت المناسب لإخراج أفكاره.

السبب الثالث: لنجاح الحرب الهجينة كمفهوم. ككاتب نشط وعالم مؤثّر تأكد هوفمان من إيصال مفهومه الى كل بقعة في النقاش العسكري الاحترافي عبر نشر المقالات والمنشورات في كل الصحف والمجلات بما في ذلك المعهد البحري للمتابعة والصحيفة الدولية للقوات المسلحة وأخبار الدفاع ومجلة القوات البحرية وصحيفة الحروب الصغيرة ومجلة القوات المشتركة الفصليّة، والإصلاح الاستراتيجي ومنتدى أوربس الاستراتيجي، والعديد غيرها، بما في ذلك كتابه الحرب الهجينة الذي نشره معهد بوتوماك للدراسات السياسية ووصفه مدير المعهد على أنه تحفة من التفكير المستنير.

السبب الرابع: لنجاح نموذج هوفمان التفسيري هو استخدامه لحرب لبنان الثانية كمثال، وباستخدامه نموذج حزب إيران اللبناني في نموذجه التفسيري لتهديدات الحرب الهجينة اكتسبت نظرية هوفمان مزايا عديدة تفوّقت فيها عن كل ما كُتِب قبلها، فقد كانت التجربة الصهيونية في لبنان مشكلة مثيرة للجدل في أوساط العلماء العسكريين الأمريكيين لسنوات عديدة قبل انتهاء الحرب، مما سمح لهوفمان بتخمير مفهومه بهدوء في غمرة النقاش المتواصل حول الدروس العسكرية التي يجب على الولايات المتحدة تعلُّمَهَا من هذا الصراع.

وهكذا اكتسب مفهوم الحرب الهجينة شهرة كبيرة في الأوساط العسكرية الأمريكية مما أنتج كمية كبيرة من الكتابات حول الموضوع، ورغم أنه ليس ممكناً سرد جميع هذه الكتابات هنا، لكن مما يستحق الذكر بعض من الكتابات الأكثر أهمية، الموجة الاولى من كتابات المفكّرين العسكريين

حول الحرب الهجينة أواخر سنة 2000 بما فيها كتابات العقيد ستيفين ويليامسون، الذي اقتفى أثر الرابط الفكري بين نظرية حروب الجيل الرابع ومفهوم الحرب الهجينة، والكولونيل ماراغريت بوند الذي طبّق أفكار الحرب الهجينة على عمليات الاستقرار في الدول الفاشلة، والمقدّم دانيال لاسيكا الذي عالج مسألة النصر الشائكة في الحرب الهجينة، والرائد لاري جوردان الذي حلل عقيدة الجيش الامريكي القتالية من منظور الحرب الهجينة ووضع عدة توصيات بنّاءة لصنّاع القرار العسكري، والرائد سين ماك ويليامز الذي وضع تحليلاً مفيداً لحرب جنوب أفريقيا بين عامي 1976و1989[43] كمثال عن الحرب الهجينة، مما يشير الى أن المفهوم نفسه قد يكون غريباً لكن الظاهرة لم تكن جديدة على الاطلاق، وسَعَت الموجة الثانية من الكتابات الى تقديم سبر أعمق لأغوار مفهوم التهديدات الهجينة، وتطبيقات هذا المفهوم على قواعد الاشتباك.

وظهر أهم منشورين عام 2010 وكانا يؤكدان مركزية مفهوم الحرب الهجينة في النقاش العسكري الاحترافي، وكان **الأول** هو: "الامكانات العسكرية للحرب الهجينة" وهو تقرير نشرته مؤسسة راند الذائعة الصيت، ووصف التقرير أعداء الكيان الصهيوني في لبنان عام 2006 وغزة عام 2008 بأنهم تهديدات هجينة، أو بكلمات أخرى "ليسوا أعداء غير نظاميين ولا جهات تابعة لدول"، والمنشور **الثاني** كان ورقة مختصرة عن الحرب الهجينة نشره مكتب محاسبة الحكومة الأمريكية وعُرِضَت على اللجنة الفرعية المعنيّة بالإرهاب والتهديدات والقدرات غير التقليدية في مجلس النوّاب الأمريكي، ولم تقدّم الوثيقتان جديداً الى النظرية لكن تطبيق هذه الوثائق كان جوهرياً لنجاح نظرية الحرب الهجينة كما أنهم لفتوا انتباه السياسيين الأمريكيين الى النقاش المتواصل في الأوساط العسكرية الأمريكية، وفي السنوات التالية تواصل الاهتمام بمفهوم هوفمان للحرب الهجينة مع تركيز المحللين على تطبيقات جديدة للنظرية، كالتحديات العرقية والاستخدام المتزايد للحرب الاعلامية.

---

[43] حرب حدود جنوب افريقيا، وتُعرَف أيضاً بحرب استقلال ناميبيا، كانت حرباً واسعة النطاق وصراعاً منظماً بدأ في ناميبيا ثم انتشر الى زامبيا وانغولا.

اسهامات الرائد تيموثي ماكوله والرائد ريتشارد جونسون في صياغة مفهوم الحرب الهجينة:

التحليل الأوسع لموضوع الحرب الهجينة موجود في كتاب يعود الى عام 2013 لاثنين من الضباط الصغار هما الرائد تيموثي ماكوله[44] والرائد ريتشارد جونسون[45]، بعنوان الحرب الهجينة، ولم يركّز الكتاب على سلسلة من الأمثلة التاريخية تمتد من الحرب العالمية الثانية حتى "عملية حرية العراق" فحسب بل قدّم تجميعاً شاملاً للمفهوم وصِلَتَهُ بالصراعات المستقبلية، ولذا يستحق الكتاب مزيداً من التناول التفصيلي.

إن تحليل ماكوله وجونسون حيوي لفهم تطورات الفكر العسكري الامريكي في الحرب الهجينة، من حيث مساهمته لتطوير المفهوم وتطبيقاته لاستخدامه في مواقف عملية، ويبدأ الجزء الأول من الكتاب بتحليل شامل للنقاش المعرفي حول نظرية الحرب الهجينة، بعد دراسة تاريخية شاملة لتكتيكات حزب إيران اللبناني عام 2006 والشبكة الحزبية السوفيتية على الجبهة الغربية خلال الحرب العالمية الثانية، استنتج ماكوله أنه: *"تاريخياً تسببت عملية صياغة الحرب الهجينة بالعديد من القواسم المشتركة في مجال التكوين والتأثيرات، والتي يمكن بدورها أن تُعَمَم الى سبعة مبادئ لوصف الحرب الهجينة بشكل عام".*

مبادئ الحرب الهجينة عند الرائد تيموثي ماكوله:

المبدأ الأول للحرب الهجينة كما وضعه ماكوله هو أنَّ: **"مكونات وإمكانات وتأثيرات قوة هجينة يتعلق بالزمان والمكان والثقافة الاجتماعية والظروف التاريخية التي يحدث فيها صراع ما"**، وفي حالة حزب إيران اللبناني انعكس هذا المبدأ على الحكومة المركزية اللبنانية الضعيفة، التي سمحت

[44] رائد في الجيش الأمريكي خدم في أفغانستان وجورجيا والعراق, شارك في مركز العمليات والتخطيط العسكري الأمريكي لدعم العمليات العسكرية الأمريكية في العالم, حاصل على شهادة ماجستير في الفن العسكري والإدارة من المدرسة العسكرية المتقدمة, له كتاب بعنوان الحرب الهجينة نشره عام 2013.

[45] رائد في الجيش الأمريكي باختصاص المدفعية, خدم كقائد وحدة عسكرية في ألمانيا والعراق, حاصل على شهادة في الهندسة المعلوماتية ودرجة ماجستير في الإدارة والعلوم العسكرية من الأكاديمية العسكرية الأمريكية, له كتاب بعنوان الحرب الهجينة نشره عام 2013 مع الرائد ماكوله.

للمنظّمة بأن تحافظ على وضعها العسكري، والقاعدة الشعبية الكبيرة للشيعة التي لعبت دور الداعم الصلب وإيران وسوريا اللتان كانتا راعياً خارجياً، وأخيراً أيديولوجيا حزب إيران اللبناني التي سمحت له باكتساب التعاطف والدعم من الشعب اللبناني، وفيما يتعلق بشبكة الحزب السوفياتي يؤكّد ماكوله أن المناطق الوعرة للسهول الشرقية الروسية، والتجارب الروسية خلال الحرب العالمية الأولى والحرب الأهلية التي أعقبت الثورة البلشفية عام 1917[46] والأيديولوجيا الشيوعية؛ كل هذه الظروف المسبقة أدت الى عسكرة الشعب السوفياتي، وتجنيد فئات واسعة من السكّان لتشكيل شبكة حزبية هجينة.

المبدأ الثاني هو وجود **"أيديولوجيا محددة ضمن القوة الهجينة تخلق قوة دفع داخلي للتنظيم"**، وفي حالة حزب إيران اللبناني، يؤكّد ماكوله على أهمية الأيديولوجيا النابعة من حرس الثورة الإيراني للحفاظ على حالة التنظيم كميليشيا معادية للكيان الصهيوني وحامية لشيعة لبنان، وفي حالة الشبكة الحزبية السوفياتية، كانت الايديولوجيا الشيوعية هي التي جعلت الولاء الشخصي والموارد المادية تحت تصرف أي كيان تدعمه الدولة، وبالذات الجيش الأحمر [47] والشبكة الحزبية.

المبدأ الثالث هو فكرة **"أن تهديداً وجودياً متصَوّراً من عدو محتمل يدفع القوة الهجينة للتخلي عن الحكمة العسكرية التقليدية ليستطيع البقاء على قيد الحياة مدة أطول"**، وبناءً على دراسات ماكوله لحالات في التاريخ العسكري، يقول هذا المبدأ: *"عند مواجهة تهديد وجودي ستسعى القوة الهجينة بكل الوسائل الممكنة للدفاع عن نفسها، بما في ذلك الأساليب غير التقليدية والارهاب والأنشطة الاجرامية التي تدعم التنظيم"*، وكانت هذه حالة حزب إيران اللبناني الذي تعرّض بالفعل للعدوان الصهيوني ووُصِف بأقسى العبارات في البيانات الصهيونية، وكانت هذه أيضاً حالة الحزبيين السوفييت الذين تعرضوا للعدوان الألماني والذي كان بدوره يتغذى من الفكر النازي.

---

[46] كانت الثورة الروسية فترة من الاضطرابات السياسية والاجتماعية عصفت بمعظم مناطق الامبراطورية الروسية، وبدأت بعزل الملك وانتهت بتأسيس الاتحاد السوفياتي تحت حكم البلاشفة بقيادة جوزيف لينين بعد انتهاء الحرب الأهلية.

[47] جيش العمال والفلاحين الأحمر، كان الجيش البري والقوة الجوية لجمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفياتية، وبعد سنة 1922، اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، وتأسس الجيش الأحمر بعد ثورة اكتوبر عام 1917 مباشرة.

المبدأ الرابع هو "**عدم التناسق بين القوى الهجينة وأعدائها المحتملين, أي: عندما تكون قوة هجينة أصغر بكثير في مجال القدرات العسكرية التقليدية، ستسعى لتجاوز هذه المزية الواضحة (لعدوها)**".

المبدأ الخامس للحرب الهجينة حسب ماكوله هو أن "**القوة الهجينة تشمل عناصر تقليدية وأخرى غير تقليدية**" في مجال التقنيات والسلاح والتكتيك.

المبدأ السادس أن "**التنظيمات الهجينة تعتمد على العمليات الدفاعية بطبيعتها**"، ويمكن لهذه العمليات أن تضم عناصر هجومية إلا أن هدفها الأساسي ذو طبيعة دفاعية.

المبدأ السابع والأخير يقوم على فكرة أن "**التنظيمات الهجينة تفرض حرب استنزاف على العدو في المجال المادي والمعرفي**".

يوفّر نموذج ماكوله التفسيري مجموعة مفيدة من العوامل المتغيرة الرتيبة لخصائص الحرب الهجينة، وعزز النموذج هذه العوامل بتحليل واسع لحالات تاريخية، لكنه يعاني من عيبين رئيسيين:

الأول هو أن التمييز بين المبادئ السبعة غير كافٍ- حتى أنهم يكادون أن يكونوا متداخلين مع نقاط مشابهة، مثل الأيديولوجيا والتزامن وعدم التماثل، اللذين استخدمهم ماكوله لوصف المبادئ المختلفة،

الثاني والأهم: لا يوّضح نموذج ماكوله التفسيري فيما إن كانت كل المبادئ السبعة مطلوبة لتعريف العدو على أنه هجين أم أن بعض الجمع بينهم يفي بالغرض.

وعلى الرغم من هذه العيوب يقدّم ماكوله طبقة جديدة من المفاهيم المفيدة كانت غائبة عن نموذج هوفمان التفسيري الأصلي، مما يؤكد أن المفهوم كان مجرّداً بشكل مناسب ليكون ذا صلة بقضايا متنوعة، وواضحاً كفاية لفهم هذه الظاهرة بدقة.

مقترحات الرائد ريتشارد جونسون لمواجهة التهديدات الهجينة على المستوى العملياتي في الحروب الهجينة:

الجزء الثاني من الكتاب الذي كتبه المؤلف المساعد لماكوله ريتشارد جونسون يركّز على التجربة الأمريكية في فيتنام والتدخل الأمريكي في العراق كجزء من "عملية تحرير العراق" كي يكتشف تطبيقات الحرب الهجينة على الفن العملياتي للحرب، وعلى خلاف ماكوله الذي يركّز أكثر على وصف خصائص القوى الهجينة، يؤكّد جونسون على النهج العملياتي المطلوب لهزيمة التهديدات الهجينة، وفي هذا التحليل للمستويات الأمريكية العسكرية المتنوعة من النجاح في قتال الأعداء الهجينيين في فيتنام والعراق، **يقترح جونسون ثلاث ضروريات رئيسية في فن العمليات لهزيمة التهديدات الهجينة في الحرب الهجينة.**

الأولى يقول إن الهدف الرئيسي لفن العمليات هو كسر المنطق الراسخ لدى العدو الهجين، أكثر من التركيز على القضاء المادي على قواته: *"يجب أن يتم تعطيل منطق العدو الهجين وفق الصيغ الحربية التي يستخدمها، أكثر من التركيز على الطرق المادية لمواجهة وسائل وإمكانيات التهديدات الهجينة"*.

الثانية النهج العملي الناجح يجب أن يجمع بين النجاح التكتيكي والأهداف الاستراتيجية في نفس الظروف التي أدت الى ظهور تهديد هجين، وبتحليل تحوّل فن العمليات أثناء "عملية تحرير العراق" استنتج جونسون أن نهج العمليات الناجح يجب أن يتناول العوامل الكامنة التي لها دور في تسريع نشاط التهديد الهجين، ويجب أن يرتّب أعمالاً هجومية تكتيكية في نفس الأطر الثقافية والاجتماعية والايديولوجية والسياسية وغيرها من الأطر المرجعية التي تحافظ على نجاح العدو الهجين.

الثالثة لنهج عملي ناجح في الحرب الهجينة وفقاً لجونسون هو: *"أن هؤلاء الذين يقاتلون العدو الهجين يجب أن يتجنبوا الإجراءات الجاهزة أو الموحّدة في الزمان والمكان، فبما أن سياق بيئة التهديد الهجين يشكّل نظاماً معقّداً بخصائص معينة تتغير باستمرار حسب الزمان والمكان، فالمنهج العملي لا يمكنه ببساطة إعطاء القادة تقديرات بسبب تعقيد المشكلة، وفي نفس الوقت لا يمكنه القفز فوق هذه المشكلات"*، وبدلاً من هذا يجب أن يوازن المنهج التشغيلي بين الإرشادات العامة والتوجيهات العقائدية وحرية القادة تكتيكياً لتطوير المواقف المفصلية والاجراءات الداخلية للنجاح.

وهكذا أسهمت تحليلات ماكوله وجونسون إسهاماً هاماً في النقاش الجاري حول طبيعة الحرب الهجينة عبر البحث في حالات تاريخية مختلفة من منظور التهجين وتعزيز الإطار المفاهيمي الذي تقوم عليه النظرية، لكن واحداً من أهم الاعتبارات في عملهم هو الطبيعة العملية، فالكتاب يجمع بين منشورات عقائدية ذات صلة، مُقدِّماً مجموعة من التطبيقات العملية المطلوبة ليس فقط لفهمٍ أفضل لطبيعة الأعداء الهجينين في المستقبل بل الطرق المختلفة لهزيمتهم.

نجاح مفهوم هوفمان للحرب الهجينة في الأوساط العسكرية الأمريكية:

وهذا يقودنا لسبب آخر لنجاح الحرب الهجينة كمفهوم، وهو سماحها بفهم أعمق لاختلاط أنماط عديدة من الحرب، وبالذات في الثقافة العسكرية الأمريكية، ولا حاجة لتكرار ما ذُكِرَ سابقاً عن الثقافة العسكرية الأمريكية أو الطريقة الأمريكية في الحرب، فقد نوقِشَت الفكرتان بشكل وافٍ في الأدبيات العسكرية، لكن من المهم الإشارة الى الاعتبارات في الثقافة العسكرية الأمريكية التي باتت أكثر صلة بنجاح الحرب الهجينة كمفهوم، حيث سلّط مؤيدو المنهج الثقافي في الشؤون العسكرية الضوء على تأثير السرد الثقافي على الطريقة التي تخوض فيها الدول الوطنية الصراعات، والولايات المتحدة ليست استثناءً فقد أثّرت الجغرافيا والتاريخ والمواريث الثقافية والأهداف السياسية بعيدة المدى في السلوك الأمريكي لخوض الحرب، **وفي معرض تحليلها للثقافة العسكرية الأمريكية تشير الأبحاث مراراً وتكراراً الى ثلاث خصائص أساسية لهذه الثقافة:**

1: النشر الواسع والحاسم للعسكريين والوسائط النارية لإنهاء الحرب بالسرعة الممكنة،

2: والاعتماد الكبير على التقنيات الحديثة،

3: الطبيعة غير السياسية للعقلية العسكرية الأمريكية، والتي لا تولي الكثير من الاهتمام بالعواقب غير العسكرية لما تفعل، وعلى الرغم من أن بعض الباحثين قالوا إن هذه الخصائص الثقافية أوجدت صعوبات واسعة للجيش في تعامله مع عدو غير تقليدي، إلا أنها تساعد في تفسير نجاح الحرب الهجينة كمفهوم. وعلى خلاف نظرية كلاوزفيتز التقليدية التي تقول "إن الحرب مجرد

استمرار للسياسة بوسائل أخرى"، فالعديد من الباحثين قالوا إن الطريقة الأمريكية في الحرب بُنيت تقليدياً على افتراض أن الحرب ليست استمراراً للسياسة، وإنما دليلاً على فشلها.

ويقول كرّاس الجيش الأمريكي للاستراتيجية الذي نُشِرَ سنة 1936 ببساطة أن: *"السياسة والاستراتيجية متلازمتان بشكل وثيق، فالاستراتيجية تبدأ من حيث تنتهي السياسة، وكل ما يطلبه الجنود هو تسوية سياسية، ويجب اعتبار أن الاستراتيجية والقيادة بعيدتان عن السياسة"*، بمعنى أن العقلية العسكرية الأمريكية تميل بحكم الثقافة الى التمييز بين الأعمال العسكرية والأبعاد الأخرى للصراع الانساني كالسياسة والاقتصاد، وهذا الميل لا يقتصر على الولايات المتحدة فقط. كما يمكن القول بأن الثقافة العسكرية الأمريكية فشلت باستمرار باستيعاب الصلة بين كل هذه الأبعاد، وكذلك بما أن الأمريكيين يعتبرون الحرب شراً لا بد منه فإنهم يرون أنه يجب إنهائها بأقصى سرعة ممكنة، وليس مفاجئاً أن الباحثين وجدوا ميلاً في التقاليد العسكرية الأمريكية الى تثمين التجربة العملية على حساب النظرية، والى إغفال أهمية التعليم العسكري الاحترافي المطلوب للتحضير لصراعات المستقبل، وتقليدياً آمن الأمريكيون بتفوقهم تقنياً ولوجستياً، آخذين بعين الاعتبار أن هذا سيمكنهم من تركيز ما يكفي من قوّات وقوة نارية لإنجاز ما يعتبرونه الهدف الرئيسي للحرب "التحطيم التام للعدو (و) تدمير جيشه". وبالتالي فليس من المستغرب أن الجيش الأمريكي فشل تماماً في تبني الفهم الكامل للاستراتيجية التي تمتد إليها الأعمال العسكرية البحتة: فببساطة لم يكن لها. وكما أكّد العديد من الباحثين، فالثقافة العسكرية الأمريكية تميل الى النظر للتقنية على أنها بوصلة النجاح العسكري، "فلم تولي أمة في التاريخ أهمية لدور التقنية في التخطيط وشن الحرب كما فعلت الولايات المتحدة"، **فالانبهار بالتقنية والعلوم متأصل في الشخصية الأمريكية، ولطالما استُخدِم على أنه البلسم لشؤون الأمن القومي**، حيث أنفق الجيش الأمريكي مئات مليارات الدولارات لاستبدال النظام الأكثر تطوراً على هذا الكوكب بنظام آخر أكثر منه تطوراً بقليل. ولم يؤدي هذا الغرام بشؤون التقنية العسكرية في العقلية الأمريكية الى فهم الحرب الهجينة على أنها منافسة بين التقنيات فحسب وإنما على أنها نهج عقائدي لقضايا معقّدة، تراها مشكلات تتطلب حلّاً هندسياً، وهذا التوجه التقليدي نحو الأفعال والنتائج السريعة والميل المتأصل لاستيعاب الحقائق المعقّدة للحرب من وجهة نظر

مرجعية عسكرية بحتة، والانحياز الى فهم تقني مركزي للحرب؛ شجّع الجيش الأمريكي "للقتال في حروب تعتمد على التكنولوجيا بتنظيم وتخطيط وتجهيز عالٍ"، **وهكذا فهذا الاستعداد لتبسيط الحرب الى مشكلة يمكن للجيش أن يحلها بسرعة باستخدام الأدوات التقنية الصحيحة شكّل مرجعيّة متأصلة للجيش الأمريكي في مفهومه الواقعي للحرب على حساب فهم شامل وكامل لطبيعة الصراع البشري. وبكلمات أخرى تثمّن العقلية الأمريكية وفقاً لثقافتها مفاهيم قابلة للتطبيق وميدانية فيما يُمَكِّن للجيش عمله، أكثر من التركيز على نظريات أكاديمية مجردة،** ويتناسب مفهوم هوفمان للحرب الهجينة مع هذه المرجعيات الثقافية، وبما أن مفهوم الحرب الهجينة كتبه الجيش الأمريكي ولأغراض عسكرية أمريكية فقد عالج هذا المفهوم المتطلبات الأساسية للثقافة العسكرية الأمريكية وهما **التوجه العسكري المحض والتطبيق العملي المفاهيمي، أولاً** حوّل مفهوم هوفمان مشكلة العدو المعقد وغير واضح البنية ولم يرد في ملفات سابقة الى المجال العسكري البحت، وبالتالي إيجاد إطار مفاهيمي جديد يمكن للجيش فهمه، **وثانياً** سعى هوفمان والمؤيدون الآخرون للحرب الهجينة لتأكيد الطبيعة التطبيقية للنظرية، فلم يناقشوا ما هي الحرب والتهديدات الهجينة فقط بل ما يمكن فعله على المستوى العملي أيضاً لمواجهة مثل هذه التهديدات بنجاح، وعلى خلاف الطبيعة المجرّدة و"أحادية الاتجاه" للحرب المفتوحة تُقَدِّمُ الحرب الهجينة مفهوماً واقعياً رغم أنه لا يخلو من التعقيد، وهو مما يمكن حله بالوسائل العسكرية، وبدلاً من الدراسات التاريخية التي تقف وراء النموذج التفسيري للحرب المركبة؛ يقدّم مفهوم الحرب الهجينة مفردات مفاهيمية يمكن للعسكريين العمل بها. وأخيراً وبدلاً من الدراسات ذات الطابع الاستشرافي لحروب الجيل الرابع دون توصيات سياسية رصينة لا يقدّم مفهوم الحرب الهجينة تعريفات للمشكلة فقط بل يقدّم حلولاً عملية أيضاً ذات نتائج تساعد على تطوير العقيدة القتالية.

أسباب صعود مفهوم هوفمان للحرب الهجينة في الأوساط العسكرية الأمريكية:

ولتلخيص أصول وصعود الحرب الهجينة كتعليل مفاهيمي في بداية القرن الحادي والعشرين والبيئة الأمنية والتهديدات التي يخلقها، من الضروري التركيز على اعتباراته الثلاث الرئيسية كنظرية للحرب.

الأول هو الحداثة الفكرية فمن ناحية ومن التحليل آنفاً فالحرب الهجينة هي مجرد نموذج تحليلي جديد لظاهرة موجودة مسبقاً، وتظهر التحليلات التاريخية أنه بات جزءاً مكمّلاً للحرب منذ القِدَم، والاعتبار الوحيد الجديد هو أن جهات معينة مثل التقنيات العسكرية المعاصرة ووسائل الاتصال (الانترنت والهاتف الخليوي وشبكات التواصل الاجتماعي الخ) مهّدت للاختلاط بين القوات النظامية وغير النظامية والمفاهيم العملياتية والوسائل التنظيمية، ويعترف هوفمان نفسه بأن مفهومه لا يوصّف ظاهرة جديدة بقدر ما يدمج وبشكل محسّن القدرات والتكتيكات والأساليب المختلفة التي سبق وفُصِّلَت زمانياً ومكانياً، وعلى الرغم من حداثة الحرب الهجينة من حيث وضع المفهوم، وعلى عكس النظريات السابقة، فقد قدّم النموذج التفسيري للحرب الهجينة مفهوماً قابلاً للتطبيق من الناحية العملية، وأوجد حلولاً عملية يمكن للعسكريين تطبيقها.

وهذا يقودنا **للاعتبار الثاني**: المنهج الفعّال للحرب الهجينة في التعامل مع أي تهديدات منتظمة أو غير منتظمة، وعند مناقشة مشكلة نشوء التهديدات الهجينة يعالج هوفمان المشكلة من المنظور العسكري البحت، فيعزل صناع القرار عن المستوى العملياتي، **بمعنى أن الحرب الهجينة والتهديدات الهجينة توصّف المشكلات التي يمكن للجيش أن يحلها بمجرّد أن يكون لديه عقيدة قتالية مناسبة، ويتم تدريبه وتجهيزه وفقاً لهذه العقيدة ويتمتع بالدعم المطلوب من القيادة السياسية.** وكانت الغاية من هذه النظرية من البداية تحسين الأداء العملي للوحدات العسكرية في ساحة المعركة، والاستجابة للمنشورات الرسمية ذات الصلة وتقديم توصيات محددة وحلول. ويقول هوفمان:

"إن اكتسبنا فهماً أفضل للمساحة الرمادية الكبيرة بين التصورات المثالية عندنا وبين التصنيفات الغربية البِكر، فسنحقق تقدماً، وإن ثقّفنا أنفسنا حول كيفية إعداد أفضل لتلك الظاهرة الرمادية الفوضوية وتجنبنا مصير غروزني ومقديشو وبنت جبيل[48] مستقبلاً فسنخطو خطوات كبيرة للأمام".

الاعتبار الثالث والأخير هو نجاح الحرب الهجينة كنظرية في المجال العسكري والأكاديمي، فمن جهة نجحت أفكار هوفمان في انتزاع اهتمام المفكرين الغربيين والباحثين والمنظّرين الاستراتيجيين، ونالت النظرية شعبية خاصة في المؤسسة العسكرية الأمريكية، كما نجحت في جذب اعتراف العديد من الباحثين غير الأمريكيين ممن شاركوا في الحوار الفكري، ومن جهة ثانية، من المهم ملاحظة أنه رغم الجهود التي يبذلها مؤيدو هذه النظرية إلا أن المؤسسة العسكرية الأمريكية بقيت مترددة في إضافة نظرية الحرب الهجينة الى منشوراتها التي تخص عقيدتها القتالية. رغم أن أفكاراً معيّنة جاءت من المفهوم وجدت طريقها الى بعض منشورات الجيش الأمريكي، وما زالت تُعامَلُ على أنها "مفهوم بديل عن الطبيعة المتطورة باستمرار للصراع الحديث" أكثر من كونه مفهوماً تم تبنيه على نطاق واسع، وفي الواقع حتى قاموس المصطلحات العسكرية الصادر عن وزارة الدفاع الأمريكية لا يدرج أي تعريفات للحرب الهجينة أو التهديدات الهجينة.

[48] حيث دارت معارك غير متوازنة بين طرفين يتبع أحدهما أساليب هجينة ويعتمد الآخر على القوة العسكرية البحتة المفرطة.

الفصل الثاني

النظرة الروسية للحرب الهجينة

قراءة في نظرية يفجيني مسنر لحرب التخريب:

كان يفجيني مسنر ضابطاً روسياً مهاجراً مُنِعَت كتبه في الاتحاد السوفيتي بسبب آراءه المعادية بشدة للشيوعية، لكن أعماله انتشرت بشكل متزايد، وأخذت مكانها وسط المدرسة الروسية في التفكير العسكري، ولأن أعمال مسنر بقيت لمدة طويلة غير معروفة للقارئ الغربي، فمن المهم التعريف به وبعمله الذي شكّل آراءً هامة عن ظاهرة الحرب في القرن العشرين.

يفجيني مسنر: رجل النظرية والتطبيق

وُلِدَ يفجيني إياردوفيش مسنر في الثالث من أيلول (16 في التقويم الجورجي) من عام 1891 في محافظة خرسوف جنوب منطقة اوكرانيا في الامبراطورية الروسية، وكان جده الأكبر نبيلاً من وتربرغ[49] هاجر من روسيا في عهد الملكة كاترين العظمى[50]، وكان أبوه لوثرياً وأمه كاثوليكية لكنهما ربياه وأخاه الأكبر فيكتور على التقاليد الروسية الأرثوذكسية؛ "الاحتفال بالأعياد الارثوذكسية وتسمية أبنائهم بأسماء تسمح لهم بالتحول الى الارثوذكسية دون الاضطرار لتغيير هذه الأسماء" وهو ما فعله الوالدان بالفعل قبل أن يتزوجا.

وبعد تركه المدرسة في أوديسا قُبِلَ يفجيني في كلية الفيزياء والرياضيات في جامعة نورومبرغ الامبراطورية، لكن دراسته لم تستمر طويلاً فقد ترك يفجيني الجامعة بعد انضمامه إليها بسنة ليصبح ضابطاً في الجيش، ويقول يفجيني متذكراً:

لقد قررت أن أصبح ضابطاً في سن مبكرة جداً، لكن القدَرَ عارض هذا: فبعد انتهاء المدرسة الثانوية ولسنتين متتاليتين لم أتمكن من دخول مدرسة ميخلوسفسكي للمدفعية لأسباب صحيّة (أولها حمى التيفوئيد ولاحقاً إصابة بليغة بمباراة كرة قدم)، ولتعويض الوقت المهدور، اتّبعت نصيحة

---

[49] وتربرغ منطقة ألمانية تاريخياً تقابل المنطقة الثقافية واللغوية في سوابيا جنبا الى جنب مع بادن وهوهينزوليرن وهما إقليمان تاريخيان آخران، ويشكِّلان الآن ولاية بادن فورتمبيرغ.

[50] كاترين الثانية أو كاترين العظمى، أصبحت امبراطورة لروسيا من 1762 حتى 1796، وهي أطول مدة تحكم فيها البلاد امرأة، واستلمت مقاليد السلطة بعد انقلاب ديتات الذي نظّمته والذي أدى للإطاحة بزوجها بيتر الثالث.

صديق والدي العقيد ميندي وكان يعمل مُدّعياً عامّاً عسكرياً، باختيار طريق سريع رغم صعوبته الشديدة الى رتبة ضابط: عبر خوض امتحانات المدرسة النهائية كطالب خارجي.

وباتخاذه هذا القرار انتقل مسنر الى سانت بطرس بيرغ[51] حيث وجد مدرسة تُعِدُّ طلاب المستقبل لدخول المدارس العسكرية، وبعد دفع "مبلغ خيالي" قبلته المدرسة ليتدرب على يد مجموعة خاصة من الضباط الأكاديميين (الضباط الذين تخرجوا من الأكاديميات العسكرية) الذي درّبوه على اجتياز الامتحان النهائي لأكاديمية ميخانوسكي للمدفعية، وأثبت مسنر أنه طالب موهوب جداً وأنهى البرنامج الدراسي خلال ستة شهور بدلاً من سنة –كما ورد في تزكية مدرّبيه– وفي شهر نيسان من سنة 1912 اجتاز مسنر بنجاح الامتحانات النهائية في الأكاديمية، التي تُعَدُّ واحدة من أفضل المعاهد التعليمية العسكرية في الامبراطورية الروسية، ونال الدرجة الأولى، وكانت هذه الدرجة العالية نادرة جداً وتُعتبَر استثناءً بالنسبة الى طالب خارجي. ويقول مسنر بعدها بسنوات مستذكراً نجاحه: *"يعود سبب نجاحي هذا الى إمكاناتي العملية وذاكرتي الاستثنائية وثالثاً بل ربما أولاً لرغبتي أن أصبح ضابطاً وأن أقتفي خطوات عمي الحبيب الكسندر (ضابط سيصبح لاحقاً رئيس هيئة الأركان العامة)".*

والد مسنر المهندس المعماري في مكاتب مؤسسات الامبراطورة ماريا (المكتب الحكومي للأعمال الخيرية في الامبراطورية الروسية) –كان مسؤولاً عن إعمار وتجديد دور الأيتام في أوديسا– كان داعماً قوياً لرغبة ابنه مزاولة المهنة العسكرية، رغم أنها بدت رغبة عمه اليكسندر ياكوفليتش مسنر الذي كان قدوة يفجيني في شبابه، وساعدت صلة الأسرة بعقيد في هيئة الأركان، بودبورشيك (ملازم ثانٍ) بتعيين مسنر في الثالث من تشرين الأول عام 1912 في البطارية الخامسة من فوج المدفعية الخامس عشر، الذي يتمركز في بلدته أوديسا، وأثبت مسنر نفسه كضابط نشيط وموهوب، وسرعان

[51] سانت بطرس بيرغ: ثاني أكبر المدن الروسية بعد موسكو، ويبلغ عدد سكانها 5 ملايين نسمة وتقع في الشمال الغربي من روسيا وتشكِّل بمرفأها وتراثها مركزاً تاريخياً مهماً وسمِّيَت لينينغراد بعد الثورة البلشفية 1917، وجرت فيها إحدى أهم معارك الحرب العالمية الثانية.

ما مضى قدماً في سلسلة الرتب العسكرية، وفي الثالث عشر من آذار سنة 1914 انتقل الى وحدة التدريب في الفوج كمدرّب، وكان هذا غير مألوف أبداً بالنسبة لملازم لم يقضي في الخدمة سوى ستة شهور، مع أن هذا المنصب يكون عادة لملازم أول أو على الأقل ملازم ذو خبرة، وفي غضون أقل من سنة بعدها، في الثلاثين من كانون الثاني سنة 1914 رُقّي مسنر ثانية الى منصب معاون نائب العقيد سيرجي لكشفيش (رغم أن هذا المنصب كان أكبر بكثير من رتبته الصغيرة)، قائد الكتيبة الثانية في الفوج.

وخلال الحرب العالمية الأولى استمر مسنر بارتقاء سُلّم الرتب العسكرية حيث أثبت نفسه كضابط موهوب وشجاع، وفي 15 نيسان من عام 1915 رُقّي الى رتبة ملازم أول، وفي شهر آب من نفس السنة نُقِلَ الى أوديسا على إثر وعكة صحية خطيرة، وهناك تزوج لويدميلا إيمنلوفنا كالينين التي كان قد خطبها منذ سنة 1913، وكانت لويدميلا ابنة الجنرال المتقاعد في هيئة الأركان العامّة إيمانويل كالينين، الذي عارض في البداية زواجه قبل أن يُتمّ صهره المستقبلي دراسته في الأركان العامة، لكنه غيّر رأيه بسبب الحرب وكان الزواج، وفي 23 تشرين الأول سنة 1916 أُرسِل مسنر الذي كان قد رُقِي الى رتبة نقيب الى أكاديمية نيكولاس الامبراطورية العسكرية (أكاديمية الأركان العامة) وأنهى دراسته كواحد من العشرة الأوائل على دفعته، وبداية شهر شباط سنة 1917 عاد مسنر الى الجبهة وعُيّن مباشرة قائماً بأعمال رئيس أركان الفرقة.

وفي الجبهة وجد جيشاً مفككاً أُصيب بعدوى الأفكار الثورية وفقدان الرغبة باستمرار القتال بشكل عام، وكضابط محترف أُحبِطَ مسنر بشدة من تغلغل الأفكار الثورية في قلوب وعقول الكثيرين في الجيش، ورغم هذا الموقف المُحبِط، واصل مسنر أداء واجباته حتى أوائل ربيع سنة 1918 عندما سُرِّحَت فرقته من قِبَل الحكومة السوفيتية المنشأة حديثاً[52]، ووصل مسنر الى أوديسا في آذار من عام 1918 مع من تبقى من أفراد فرقته، وكانت حصيلة تجربته في الحرب العالمية الأولى كالآتي: خوض أكثر من 1000 يوم من القتال الشرس حيث جُرِح وأُصيب سبع مرات، ونال 12

[52] الحكومة التي تشكلت بعد قيام الثورة البلشفية 7 تشرين الثاني سنة 1917.

ميدالية منها صليب سانت جورج، وارتفع منصبه من معاون نائب قائد كتيبة مدفعية الى رئيس أركان فرقة.

وانضم مسنر الى الحركة البيضاء حال عودته الى اوديسا بداية ربيع سنة 1918، وخدم في مناصب مختلفة خلال الحرب الأهلية حيث قام بدور نشط في قتال القوات البلشفية[53]، وأبرزها آخِر رئيس أركان لفرقة كوميلوف في جيش الجنرال رانجل، وفي شهر تشرين الثاني سنة 1920 غادر العقيد الركن يفجيني مسنر روسيا من القرم في آخِر السفن التي أخلت قوات الحركة البيضاء[54] المهزومة.

وبعد مغادرته روسيا اتجه مسنر الى بلغراد حيث مارس دوراً نشطاً في الحياة الاجتماعية والأكاديمية في مجتمع المهاجرين الروس، ونُشِرَت أعماله في التنظير العسكري والتكتيك في صحف دورية عسكرية مختلفة في الصحافة الروسية في الخارج، مثل: فويني سبورنيك (المجموعة العسكرية)، روسكي فويني فيستنيك (النشرة العسكرية الروسية) وفيستنيك فوينيخ زناني (نشرة المعرفة العسكرية) وأخرى غيرها. وفي سنة 1931 عندما افتُتِحَ فرع للمدرسة العليا للعلوم العسكرية للجنرال نيكولاي جولوفين في بلغراد، دُعِي مسنر للالتحاق بالمدرسة كمُحاضِر، حيث أثبت في هذه الفترة عداءه الشديد للشيوعية ولعب دوراً نشطاً في الحياة الاجتماعية والسياسية للتجمع العسكري الروسي (تنظيم أنشئه الجنرال رانجلر لجمع قدامى محاربي الحركة البيضاء).

وبعد اندلاع الحرب العالمية الثانية واصل مسنر محاضراته في المدرسة العسكرية العليا في بلغراد لإعداد ضباط من الفيلق الروسي (قوة مسلّحة مكوّنة من المهاجرين الروس المناهضين للشيوعية في المناطق الواقعة تحت السيطرة الألمانية من سيبيريا)، وخدم مسنر في قسم البروبوغاندا العسكرية للفيرماخت "الجيش الجنوبي الشرقي" حيث قاد القسم الروسي وكان داعماً نشطاً لتأسيس

---

[53] القوات الثورية، وكلمة بلشفي تعني الكثرة أو الأكثرية، وأطلِقت هذه التسمية على الجناح اليساري الموالي للينين بعد الثورة.

[54] كان جيشاً تطوعياً نشأ جنوب روسيا وبدأ كجيش صغير ثم نما سريعاً ليصل تعداده الى أكثر من ثلاثة ملايين مقاتل، وكان مناوئاً للشيوعيين البلاشفة.

جيش التحرير الروسي (جيش فلاسوف- مجموعة من القوات الروسية البارزة تحت قيادة ألمانية) وفي آذار من سنة 1945 وصل مسنر الى منصب رئيس قسم البروبوغاندا في الجيش الوطني الروسي الأول، الذي أسسه الجنرال الروسي المهاجر بوريس أليكسيفويش سيملسلوفيسكي هولمستون، وبعد توقيع اتفاقية الاستسلام في ليشتينشتاين في أيار سنة 1945 ورفض طلب نفي أفراد جيشه الى الاتحاد السوفياتي، انتقل مسنر مع زوجته الى الارجنتين[55] خريف عام 1947، وفي الأرجنتين واصل مسنر عمله السابق كصحفي وناشر وكاتب ومنظّر عسكري، وأحد أبرز إنجازاته تأسيس الفرع الأمريكي الجنوبي لمعهد أبحاث الحرب والسلام في بوينس آيرس (عاصمة الأرجنتين)، الذي سُمِّيَ على اسم الجنرال والبروفيسور جولوفين، وواصل مسنر نشر أعماله عن السياسة وشؤون الأمن والتاريخ العسكري الحديث في مختلف منشورات المهاجرين الروس في الأرجنتين حتى وفاته سنة 1974، مثل صحف: روسكي سلوو (الكلمة الروسية) تشاسوي (الحارس) وناشي فيستي (أخبارنا). وركّزت معظم منشوراته على تفسيراته للتطورات السياسية والعسكرية المستمرة ضمن أجواء الحرب الباردة، وثلاثة من أهم كتبه (وجه الحرب المعاصرة) (التخريب-عنوان الحرب العالمية الثالثة) (الحرب العالمية التخريبية) ركّزت على النموذج التفسيري للحرب بناءً على تجربته الشخصية وتفسيره للصراع بين الغرب والشيوعية (الاتحاد السوفيتي والصين لاحقاً).

قراءة يفجيني مسنر: تجاوز العقبات الأيديولوجية:

من المهم عند قراءة أعمال مسنر إدراك الآراء الايديولوجية القوية التي طغت على كتاباته، فقد تمسّك مسنر بشدة بآراء متحفّظة جداً، وكان ناقداً للتطورات الاجتماعية والسياسية في النصف الأول من القرن العشرين. فلنلقي نظرة على أحداث القرن العشرين:

[55] انتقل الى الارجنتين الآلاف من أعضاء الحزب النازي بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية.

دمار الحركة الانسانية التي حاولت استبدال المنهج الروحي الذي كان سائداً إبان العصور الوسطى بتحرير روح الانسان: فشلت؛ الاشتراكية (بما فيها الشيوعية) التي كانت تحاول ضبط الروح الجمعيّة الإنسانية والروح الانسانية- فشلت أيضاً؛ الديمقراطية التي وُلِدَت مع الثورة الفرنسية ومثّلها النظام البرجوازي الذي أُنشِئ آنذاك، بات خَرِفَاً؛ الثقافة التي بلغت ذروتها في القرن التاسع عشر- (كما اليوم) فشلت هذه الثقافة بالصمود في وجه الضغوط الناجمة عن انحسار مفاهيم الرغبات البرجوازية؛ الهيمنة الأوروبية على العالم- الثقافة الأوروبية والحكم (و) العادات فشلت في نقل الثقافات الألفيّة الجامدة، وأنظمة الحكم (و) العادات في آسيا، الى إخضاع (ليس بالطريقة الاستعمارية بل بطريقة نفسية) أفريقيا؛ دمار المسيحية التي ابتعدت عن الروح المقدسة للمسيح وتبنّت الكنيسة الجديدة، والمنافقين الجدد والتلمودية الجديدة[56].

وكنتيجة لهذا التحفظ غالباً ما رسم مسنر مقارنات غير محمودة بين العادات الاجتماعية في النصف الأول والنصف الثاني من القرن العشرين، التي اعتبرها تعبيراً عن عدمية الأخلاق والعادات التي كانت سائدة في الماضي, حيث يقول:

لقد بدأ هذا سنة 1913 عندما قُصِّرَت تنانير النساء بعض الشيء وكان يُسمح بظهور جزء من جسد المرأة، أما هذه الأيام فلم تعد تنانير النساء مطلوبة، ويمكن للمرأة أن تدخل الكنيسة مرتدية بنطالاً وتتمشى على الشاطئ مرتدية سروالاً قصيراً جداً... وفي بداية القرن كان من المعيب أن تكون شهوانياً أو أن تتصرف بشهوانية جنسية، لكن اليوم من المعيب ألا تكون ذا جاذبية جنسية أو لا تكون متقبلاً للجاذبية الجنسية. إن كان الأمر ذائعاً فهو ليس عيباً، هذا هو قانون الأخلاق الجديد.

وإضافة لكونه محافظاً؛ كان مسنر مناهضاً من الصميم للشيوعية، فكان يؤمن بأن "موسكو الحمراء" و"بكين الحمراء" كانتا مهووستين بهدف تفكيك النسيج الثقافي والاجتماعي والأخلاقي

[56] التلمود هو النص الرئيسي لليهودية الحاخامية والمصدر الرئيسي للديانة اليهودية، والبعض اتخذ وجهات نظر تاريخية ناقدة للتوراة المكتوبة، في حين تبنى البعض قراءة جديدة (العودة الى الكتاب المقدس).

الغربي، الذي كان موقفه ضعيفاً جداً إزاء العودة للقتال. ومتهماً الغرب بالاستسلامية والسلميّة واليسارية والراديكالية الانسانية والبراغماتية، وادعى مسنر أن هذه الأفكار تغطي أوروبا، والقارتين الأمريكيتين، وتهزم بشكل أو بآخر الثقافات الوطنية فيقول:

لقد حطم لينين وستالين وخروشوف الثقافة الروسية، وفعل ماو الشيء نفسه (في الصين) بأسلوب متسرّع (الثورة الثقافية)، ويزرع ماو وبريجنيف تغييب الثقافة في كامل العالم: عبر استخدام وسائل مخفيّة جداً أو أخرى علنية، مثل غرس الأناركية العدمية[57] *(رفض التنظيم)، (و) إدمان المخدرات وتشجيع الفجور (الجنس في كل الأعمار والشذوذ الجنسي والإباحية).*

ومن المثير للاهتمام، قول بعض الباحثين الروس المعاصرين في معرض تفسيرهم لعِداء مسنر للأيديولوجيا الشيوعية وأفكارها التآمرية: "في النهاية، كما لو كان العالم الحر يستمع لنظرية وتوصيات مسنر والمحللين الآخرين وفهموا خطر الحرب التخريبية الشيوعية وبدأوا بالعودة للقتال ضدها وتحقيق النصر في نهاية المطاف"، وبشكل مشابه يكتب أحد الباحثين الروس:

مَنَع التحامل الأيديولوجي مسنر من بناء تقييم موضوعي لسلسلة من الأحداث المتصلة بالمصادر السياسية لحرب التخريب، فبشيطنة الاتحاد السوفياتي والصين اللتان اعتبرهما المصدر الرئيسي للتخريب قدّر وبرّر بوضوح دور الولايات المتحدة والناتو في شن حرب التخريب، ويمكن القول إن هذا الاعتقاد الراسخ (لدى مسنر) قد يكون خطأه الأساسي، فقد بات معلوماً لمن يعيش في عصرنا أن سمة هذا العصر هي انهيار الاتحاد السوفياتي نتيجة للحرب الباردة التي شنّتها الولايات المتحدة الأمريكية.

وبكلمات أخرى، وبما أن يفجيني موروزوف أحد المحللين المعاصرين لأعمال مسنر فقد وضع القاعدة التالية: *"إن كلام مسنر صحيح لكن في الاتجاه الآخر تماماً"*، وبالأخذ بعين الاعتبار أن

[57] تكون الظروف في التنظيم الاجتماعي سيئة للغاية بحيث تجعل التدمير مرغوباً من أجل المصلحة المستقلة عن أي برنامج أو احتمال بناء"، الاناركية العدمية تنطوي على رفض الحكومة والسلطة والأخلاق.

مسنر كان يتحدث عن الأوقات التي عاشها، فمن الضروري قراءة هذه الأعمال بطريقة تركّز على الخصائص المفاهيمية لنظريته أكثر من التركيز على آراءه المحافِظة للغاية، وبعد كل شيء وبكلمات باحث معاصر آخر، لقد كان مسنر جزءً من:

الضباط الروس الذين وَضَعَهُم القَدَرُ في وضع مأساوي في أرض أجنبية وظرف غير طبيعي من اللجوء والنفي المرهِق، وهؤلاء المهاجرون أنجزوا أعمالهم العسكرية والاجتماعية القيّمة دون أي دعم رسمي (وكنتيجة فهذه الأعمال تتسم بأنها) نالت حرية غير مسبوقة في التفكير العسكري (وبدقة أكثر: حرية التعبير الفكري)، فطبيعتها خالية من الرقابة ومرنة ونظرية تماماً ومتعددة الأيديولوجيا، مما يَسِمُ أعمالهم بطابع النقد اللاذع والتشهير.

وبكلمات أخرى، يجب أن تُقرأ أعمال مسنر وتُفهَم في سياقها الصحيح، خصوصاً وأن كتابات اللاجئ الروسي يفجيني الذي استمر بالنضال من أجل وطنه بالقلم أكثر من البندقية بعد ثورة عام 1917 قد سرقت منه الكثير، وبرغم مرارته الكبيرة التي اتجهت نحو الحكم البلشفي، فالغرب أيضاً يستحق الملامة بنظره لفشله ببذل ما يكفي من الجهود للقتال ضد الأفكار الشيوعية.

الثورة العالمية:

عند تحليل التاريخ الانساني عموماً وتاريخ الحرب خصوصاً يميل العديد من المؤرخين الغربيين المعاصرين والمنظّرين الاستراتيجيين الى تقسيم التاريخ الى عدة فترات حسب التغيرات الاجتماعية والعسكرية السريعة والمترابطة، فعلى سبيل المثال: طوّر ألفين وهيدي توفلر[58] نظرية الأمواج الثلاث؛ الزراعة ,الصناعة ,المعرفة. واقترح ماكس بوت[59] أربع ثورات: البارود, والثورة الصناعية الأولى، والثورة الصناعية الثانية، وثورة المعلومات.

---

[58] الفين توفلر كاتب أمريكي ومستشرِف للمستقبل ورجل أعمال معروف بسبب أعماله التي تتناول التقنيات الحديثة، بما فيها الثورة الرقمية وثورة الاتصالات، مع التأكيد على تأثيرها على الثقافة العالمية, كما كان الفين محرراً مساعداً في مجلة فورتشين.

[59] باحث أمريكي متخصص بالتاريخ, ومن ابرز أعضاء تيار المحافظين, وعضو لجنة العلاقات الخارجية في الكونجرس الأمريكي.

وعرّف ويليامسون موري[60] وماكجروجر كنوكس[61] خمس ثورات عسكرية رئيسية، حيث تتداخل الثورتان الثانية والثالثة معاً: ظهور الدولة الحديثة في القرن السابع عشر وظهور العسكرية الحديثة، الثورة الفرنسية، الثورة الصناعية، الحرب العالمية الأولى، الأسلحة الذرية والصواريخ العابرة للقارّات ذات أنظمة التوجيه. ورغم التنوع في المصطلحات، فقد ذكر جميع المؤرخين أنهم لاحظوا ذات النموذج التاريخي الذي وصفه موري بالزلزال في التطور الانساني الذي يؤدي الى تغيرات منهجية في الميادين السياسية والاجتماعية والثقافية، وإعادة صياغة طبيعة المجتمع والدولة، إضافة الى التنظيمات العسكرية.

وكان مسنر يكتب عدة أعمدة في الصحف قبل نشر هذه الأعمال، ورغم أنه لاحظ ذات النموذج التاريخي، الذي أسماه الثورة العالمية؛ وفي معرض تحليله للتاريخ في النصف الأول من القرن العشرين، قال مسنر بأن سلسلة التغيرات الاجتماعية والسياسية والعسكرية مضت بالعالَم قدماً الى الثورة العالمية التي وُلِدَت "في كلا الحربين وكذلك في العديد من الحروب المحلية"، وكانت تحدث بستة أبعاد مختلفة: الوعي والأخلاق والعلاقات الاجتماعية والاقتصاد والسياسة والدبلوماسية (العلاقات الدولية). ومثل موروي الذي يقول بأن هذه الزلازل الاجتماعية والثقافية والسياسية والعسكرية لا تحدث بين ليلة وضحاها وإنما يمكن تتبع التغيُّرات الطفيفة التي أدت إلى هذه الزلازل وكانت أقل صدمة يقول مسنر:

يمكن أن نجد بذور ثورة القرن العشرين العالمية في القرن التاسع عشر، مثل البيان الشيوعي واختراع محرّك الاحتراق الداخلي ورفض العنف الذي نادى به تولستوي واكتشافات اديسون وغيرها. لقد باتت العوامل التي ظهرت في السنوات الأخيرة قبل القرن العشرين وكان بعضها فكرياً وبعضها الآخر مادياً ثورياً وقوياً، وبالتالي جاءت بالثورة العالمية في هذا القرن.

---

[60] ويليامسون موري مؤرخ أمريكي ومؤلف، ألّف العديد من الأعمال عن التاريخ والدراسات الاستراتيجية، وعمل كمحرر صحفي في العديد من المشروعات الاخرى، وهو أستاذ جامعي فخري في جامعة أوهايو الحكومية.

[61] ماكجروجر كنوكس مؤرخ أمريكي للقرن العشرين في أوروبا، وعمل منذ 1994 وحتى 2010 أستاذاً جامعياً للتاريخ العالمي في جامعة لندن للاقتصاد، وهو ابن العالم البريطاني المولد والمؤرخ بيرنارد كنوكس والروائية بيانكا فاناوردن.

وفي معرض تحليله للتطورات الاجتماعية الثقافية والسياسية والجيوسياسية من منظور الأبعاد الستة للثورة العالمية، يشير مسنر بدقة الى حزمة من الظواهر، منها صعود العلمانية والليبرالية، والثورة الجنسية وحركات حقوق الانسان، ومكننة الانتاج التي أخرجت عدداً كبيراً من الناس من دائرة الأعمال الشاقة مما قاد الى ازدياد الحراك الاجتماعي، والقوة المُتَصاعِدة للنقابات التي تدافع عن الحقوق الاجتماعية للعمال، وصعود الطبقة الوسطى وعمليات التمدن وتفكيك الاستعمار وظهور المؤسسات والتنظيمات العالمية القوية وتزايد المشاركة الشعبية في العملية السياسية. وهذا ما سيتحدّث عنه الباحث الاجتماعي ستيفن بنكر[62] على أنه الاتجاهات التاريخية الإيجابية الستة للتقدم الانساني، وسمّى مسنر الثورة العالمية بـ "فترة الجنون الشامل" حيث تجتاح الكارثة في نفس الوقت كل ميادين حياة الانسان المادية والروحية لكل القبائل والشعوب البشرية.

ورغم معاداته للشيوعية وآراءه المحافِظة إلا أن مسنر لم يحمّل الشيوعية المسؤولية عن خلق ونشر الثورة العالمية، وبدلاً من ذلك اعترف بأن مثل هذه الثورة كانت نتيجة للتقدم المادي والاجتماعي الذي تسارَعَ بعد الحربين العالميتين:

يظن العالم الشيوعي أنه بحاجة لإطلاق الثورة العالمية، لكنهم مخطئون، فالثورة العالمية حدثت بالفعل، وتقسيم البشرية الى عالَمَين بات مضللاً: فلا يوجد اليوم سوى عالم واحد خاضع للثورة، حيث تقسِّم ستائر الحديد والخيزران البلدان بثورة أعمق من البلدان الخاضعة لثورة أقل عمقاً[63]، وما يُعتَبَرُ كفاحاً من أجل ثورة وضد ثورة ما هو في الواقع سوى كفاح لتعميق أو ضد تعميق ثورة حدثت مسبقاً.

[62] ستيفين آرثر بنكر باحث اجتماعي ادراكي ولغوي وهو كندي أمريكي، ومؤلف علمي ذائع الصيت، وهو أستاذ عائلة جونستون في قسم علم النفس في جامعة هارفارد، معروف بدفاعه عن علم النفس التطوري والنظرية الحسابية للعقل.

[63] يقصد أن التفاوت المادي الكبير بين البلدان والشعوب والذي يرمز إليه باختلاف الستائر بين حديد وخيزران، يمثّل نتائج الثورة الحقيقية، أكثر من التسميات الشكلية للثورات.

وبرأي مسنر، كان الاتحاد السوفياتي ببساطة يستغل التغيرات الاجتماعية السياسية والثقافية التي أحدثتها الثورة العالمية، مثل المصارعة اليابانية؛ حيث يستخدم المصارع قوة ووزن خصمه لصالحه، والامبريالية الحمراء تستخدم القوى المعادية لإحداث خلل في العالَم'، وكان ويليان ليند قد طرح الفكرة سنة 1989 وهو أحد أوائل المؤيدين لنظرية حروب الجيل الرابع، فقال: "في الحرب المعاصِرة يستخدم الارهاب تكتيكات الجودو عبر السعي لاستخدام قوة العدو ضده":

يستخدم الارهابيون الحرية الاجتماعية المجانية والانفتاح، وأعظم قوى المجتمع ضده، فيمكنهم التحرك بحرية في المجتمع وفي نفس الوقت يعملون بدأب لتقويضه، ويستخدمون حقوقنا الديمقراطية ليس للاختراق فقط بل للدفاع عن أنفسهم أيضاً، فالإرهابيون يمكنهم شن حربهم الهجينة الخاصة بشكل فعّال وفي نفس الوقت يتمتعون بحماية المجتمع الذي يهاجمونه.

ووفقًا لما ذكره مسنر، ففي حين أن الثورة العالمية كانت حقيقة تاريخية لا يمكن إنكارها، إلا أنه يمكن إبطاء العملية نفسها أو تسريعها لأن الحياة كفاح من بدايتين:

التقدميّة والمحافَظَة، التغيير والحفاظ على النوع، التطوُّر والجمود، وهكذا فالتطور تكبحه المحافَظة، والمحافظة يحييها التطور، وهذه هي الحياة.

وعلى أي حال وبغضّ النظر عما إن كانت التحولات الاجتماعية الثقافية الجوهرية سوداوية كما تحدَّث عنها مسنر، أم إيجابية كما وَصَفَها بنكر بمصطلحاته، فالنتيجة الرئيسية هي أن المُمَثِّلين السياسيين القادرين على استغلال هذه التحولات لمصلحتهم سيكون لهم اليد العليا في النهاية.

تأميم الحرب:

خلال التسعينات جادلَ مؤيدو حروب الجيل الرابع بأن طبيعة الحرب في تغيُّر، وبتحليل التحولات الاجتماعية والثقافية والسياسية والتقنية والعسكرية منذ اتفاقية ويسفتاليا للسلام سنة 1648 توصّلوا الى أن **'كُلَّ جيلٍ وصل الى عمق مناطق العدو سعياً لهزيمته' وأنه –في مفهوم الحرب**

المعاصِرة– يركّز الأعداء على التدمير المباشر للإرادة السياسية للعدو بالقتال' عبر استخدام شبكات التواصل الاجتماعي بغية الهجوم المباشر على عقول صناع القرار لدى العدو.

ووصل مسنر الى ذات النتيجة قبل ليند وهاميس وأنصار فكرة حروب الجيل الرابع بأكثر من نصف قرن، ففي بداية سنة 1931 كتب مسنر:

في أيامنا تعيش الانسانية فترة من الكارثة الاجتماعية (يقصد الثورة العالمية): كل طرف منخرط في الحرب لديه فرصة كبيرة لحشد حلفاء متنوعين من معسكر العدو، وبالتالي فالحرب لن تشتمل على العناصر التقليدية للحرب المفتوحة فحسب بل عناصر الحرب الأهلية أيضاً: التخريب والإغارات وإثارة الاضطرابات وستهزُّ حروب العصابات كيان الدولة، وستكون الوظيفة المناسبة المطلوبة بشدة في لحظات الصراع القاتل مع عدو خارجي، وستتغلغل العداوة في قلوب الناس، ليس العداوة للأجانب فقط، أو لأولئك الذين شنوا الحرب بل للقريبين أيضاً، حيث ستقوّض النزاعات قوة الأمة وتفسد روحها، مما يجعل الالتزام بواجب الخدمة للحرب أكثر صعوبة.

بمعنى: حتى قبل الحرب العالمية الثانية: **كان مسنر يجادل بأن المحاولات لإضعاف العدو سياسياً عبر التأثير على عقل شعبه سيكون جزءً أساسياً من حروب المستقبل،** ويبدو أن مسنر توصل لهذه النتيجة بناءً على قراءته للاستراتيجيين السوفييت المعاصِرين، كما في مقال نُشِر سنة 1926 في المجلة العسكرية الألمانية ويسن ووهر:

يبدأ القادة الشيوعيون بامتداح أنفسهم مدّعين أنهم أوجدوا شيئاً جديداً في المجال العسكري، وأنهم أسسوا مذهب الحرب الثورية، كما يكتب بودويسكي، وهذا لا يكون بجعل المدفعية السلاح الرئيسي –كما فعل الألمان– بل بقوة الكلمة أيضاً، ويقول ستيبانوف: كانت نتيجة معارك الامبريالية جبالاً من الجثث وملايين المشوهين والمعاقين، ونتيجة الحرب الثورية على العكس منها: تحطيم العداوة عبر قوة الدعاية مما سيحوّلِ الأعداء الى حلفاء. ويوصي بيليتز بتحديد حجر الزاوية في العلاقات

الاجتماعية وبالعمل على قوى العدو بالأفكار والشعارات والوعود حتى يتزعزع استقراره، وبعده توجيه طعنة قوية سريعة الى أضعف نقطة سياسية في جبهة العدو، مما سيحقق نجاحاً غير مشروط.

وسنأتي على مناقشة قوة الكلمة ودور الحملات الدعائية في كتابات مسنر لاحقاً، **فهي ضرورية للتركيز على: لماذا أصبحت معركة كسب قلوب وعقول شعب العدو مهمة لشن الحروب، وهذا التغيير في طبيعة الحرب بات نتيجة 'لتأميم الحرب'.**

والأهم من هذا أن كلمة التأميم لا يُقصَدُ بها أن الحرب تشكلت عبر الخصائص الوطنية للدول المعنية، بل إنها مستخدمة للتأكيد على فكرة مسنر أنه في الحروب المعاصرة سيكون لكل فرد من شعب معين (أي الأمة) مشاركة فعّالة في جهود الحرب، أي أنه وحسب مسنر فإن شن الحروب الآن يشمل كيان الأمة بأكمله:

اليوم يجب أن نضع في حسباننا أنه لا يوجد خط فاصل واضح بين مسرح الحرب وبين البلد في حالة الحرب- أي مجموع مناطق الأعداء - هذا هو مسرح الحرب, ***اليوم ليس ثمة تفريق بين الجيش والسكان، فهم جميعاً مساهِمون في الحرب بأشكال مختلفة ودرجات متفاوتة من الشدة والإصرار، فالبعض يقاتل علناً والبعض يقاتل سراً، والبعض يقاتل بشكل مستمر والبعض يقاتل حينما تسنح الفرصة فقط.***

لذا -في حروب سابقة- إن كان الجيش يحطِّم جيش العدو، وفي الحرب العالمية الثانية كان الجيش يحطِّم جيش العدو وشعبه، وفي حروب المستقبل سيحطِّم الجيش وشعبه جيش العدو وشعبه: فالشعب سيساهم بنشاط في الحرب وربما يصبح أكثر نشاطاً من الجيش، وفي حروب سابقة كان الجزء الأهم هو الاستيلاء على الأرض، واعتباراً من الآن سيصبح غزو النفوس في دولة العدو هو الأهم.

وحسب مسنر فإحدى أهم مخرجات الثورة العالمية هي أنَّ **الناس -كشعوب- أصبحت ناشطة سياسياً، أو بمعنى أن السياسات في الدول باتت مؤمَمَة:**

في بداية القرن وقف كل مواطن وحيداً في وجه حكومة قوية، فلم تكن للأحزاب (السياسية) سوى أهمية قليلة، أما اليوم لا يريد المرء أن يُحكَم بل يريد أن يَحكم نفسه بنفسه، فهو لا يثق بالمبعوثين والنوّاب، والشعب لا يثق بوزرائه ورؤسائه، بل يريد أن يحكم نفسه بنفسه.

وهكذا وبناءً على التغيرات الاجتماعية الثقافية والسياسية في القرن العشرين أصبح الناس وعلى نحو متزايد منخرطين في العملية السياسية، ونفس الحالة في حالة الحرب، حيث يقول مسنر أن: *"الشعب توقَّف عن لعب دور المراقب السلبي والضحية الصامتة للقتال العسكري": المواطن في الدولة الحرة معتاد على ممارسة معارضة واسعة ضد الحكومة، وهذا يجعله ميّالاً لمعارضة القوى المحتلّة مع جيشه أو بنفس القَدْرِ ضد سلطات بلده في اتحاد مع طرف مُقاتِل آخر.*

بمعنى أن تأميم الحرب (أي المشاركة المتزايدة للشعب في الشؤون السياسية والعسكرية) حسب مسنر كانت واحدة من المُخرَجات الرئيسية للثورة العالمية في القرن العشرين، وهي واحدة من العمليات الرئيسية التي يجب استغلالها لإحراز أهداف سياسية في هذه البيئة الاجتماعية السياسية الجديدة.

البعد النفسي للحرب والدعاية الإعلامية:

ثمة تشابه آخر بين عمل مسنر والأفكار التي وضَعَها منظّرو حروب الجيل الرابع بعده بثلاثة عقود وهو الاستنتاج بأن **تحوّل الحرب "تميّزَ بتشتت أكبر في ساحة المعركة"**، وبينما قسّم ليند وهاميس وغيرهم من مؤيدي فكرة حروب الجيل الرابع التاريخ الى أربعة أجيال، يستخدم مسنر لغة أبسط للوصول الى ذات النتيجة، حيث ينطلق مسنر في نقاشه لفكرة 'أبعاد الحرب' من مفهومه عن الحرب المعاصِرة، فيقول: منذ بداية الوقت كانت الحرب تجري في أرض ذات بعدين، وأحياناً في نطاق مشابه ببعدين في البحر، لكن في هذا العصر اكتسبت الحرب بعداً ثالثاً، على الأرض الارتفاع، وفي البحر العمق، وكنتيجة لهذا البعد الثالث 'باتت مآسي الحروب والمعاناة والخطر مصير جميع الناس'، فإن كان الناس في الماضي يشعرون بالأمان من وراء جيشهم، فاليوم لا

سبب للوثوق بالقوات البرية أو الجوية (لتأمين السكان)، فَهُمْ لا قِبَلَ لهم بمنع غارات طائرات العدو على السكان في الجبهة الداخلية.

في حروب 1854[64] و1877[65] و1904[66] وجزئياً 1914[67] كانت الحروب مبارزات بين الجيوش وكان السكان في موقع ثانوي، أما اليوم أُستُبدِلَت المبارزة بهجوم شامل: بمساعدة الطيران انتقلت الحرب من النطاق السطحي الى النطاق المجسّم، فقد اكتسبت بعداً ثالثاً؛ لقد باتت الحرب مجزرة.

فمن ناحية، حوّل البعد الثالث الحربَ الى حرب شاملة، مع التدمير الشامل والتقتيل الشامل والجنون الشامل، وبات تعريف كلمة هدف عسكري موسّعاً، للحد الذي بات فيه معمل الأزرار ومزرعة الحليب "منشآت عسكرية", **ومن ناحية ثانية** قال مسنر أن هذا الانخراط الشامل للسكان قاد الى مزيد من التحول الراديكالي للحرب مع وُلُوجِها بُعداً رابعا، ألا وهو البعد النفسي. بما أن الحرب بدأت باشتمال كل المجتمع: فقد أصبحت معنويات مجتمع العدو أكثر الأهداف الاستراتيجية أهمية، فتحطيم الروح المعنوية لمجتمع العدو والحفاظ على معنويات شعبك من الانهيار هو معنى القتال على البعد الرابع، الذي بات أكثر أهمية من الأبعاد الثلاثة الأخرى، ويقول مسنر في وضع مفهومه للبعد النفسي للحرب:

"في الحرب السابقة (الحرب العالمية الثانية) لم يكن خط الجبهة الذي يفصل بين الأعداء واضحاً ففي بعض الأماكن كان ثمة موالون للأعداء في الخطوط الخلفية يمكنهم محو خط الجبهة وقت يشاؤون، وفي حروب المستقبل لن تُشَنَّ الحروب على خط الجبهة بل على كامل مساحة مناطق

---

64 حرب القرم، بين روسيا من جهة وتحالف جمع بين الدولة العثمانية وبريطانيا وفرنسا وسردينيا، وكان السبب المباشر للحرب تدخل روسيا بحجة حماية حقوق الأقليات في الأرض المقدسة (فلسطين)، وانتهت هذه الحرب بهزيمة روسيا.

65 حرب عام 1877–1878 بين الدولة العثمانية وتحالف غربي أرثوذكسي بقيادة روسيا وشاركت فيه بلغاريا ورومانيا وصربيا ومنتينجرو، في البلقان والقوقاز، وانتهت الحرب بهزيمة الدولة العثمانية وتوقيع معاهدة سان ستيفانو.

66 الحرب الروسية اليابانية، ما بين عامي 1904 و1905، بسبب الأطماع اليابانية بمنشوريا وكوريا، وكان مسرح العمليات الرئيس هو شبه جزيرة ليادونغ وموكدن جنوب منشوريا، وانتهت بتوقيع معاهدة بورتسماوث.

67 الحرب العالمية الأولى

كِلا العدوّين، لأن جبهاتٍ سياسية واجتماعية واقتصادية ستظهر خلف الجبهات العسكرية، ولن يكون الصراع مستوياً بِبُعدَين فقط كما في حروب سابقة، أو مجسّماً بثلاثة أبعاد كما كان منذ انطلاق الطيران العسكري، بل فضاءً بأربع أبعاد، حيث تكون معنويات الشعب المقاتِل هي البعد الرابع.

إن المُخرَجَات الرئيسية للثورة العالمية هي تسييس المجتمعات وما نتج عنه من تأميم الحرب، لكن ليس كل الشعب ولا جزء منه حتى، قادراً على التفكير باستقلالية أو التعبير عن مشاعرهم، فالشعب قوة سلبية، قوة مقاومة أو قوة عاطفة. والحشود قوة نشطة، إنها آلة توظِّف طاقات الناس، لكن هذه الآلة ليست مستقلة، إنها خاضعة للسيطرة، وتهيمن عليها الأنظمة الجمهورية، على اختلاف المجتمعات ويعتلي القيادة قادة على القمة... أبطال –أو أحياناً أبطال بين قوسين– صنعوا ويصنعون التاريخ.

بكلمات أخرى: المشاركة المتزايدة للجماهير في الشؤون السياسية والعسكرية جَعَلَتهم هدفاً أوّلياً في الحرب ذات البعد النفسي، أكثر من كونهم هدفاً مادّيّاً. ومع إدخال البعد النفسي لا يكون الهدف الرئيسي للحرب بحسب مسنر، انتزاع أراضي العدو مادّيّاً بل غزو معنوياته على مبدأ 'دمِّره من مواقعه الأيديولوجية لخلق الفوضى والهزيمة في معنوياته'، والوسيلة الرئيسية لفعل هذا تكون من خلال الحملات الدعائية والتهييج.

كما يركّز مسنر في تحليله للظاهرة على خصائصها الأساسية، وبالذات الحملات الدعائية بالكلمة أو الحملات الدعائية بالفعل والحملات الدعائية الهجومية أو الحملات الدعائية الدفاعية:

الحرب في القرن العشرين ليست شأناً عسكرياً محضاً فهي تتكون من سياسات لا تقل أهمية عن التكتيكات، والأرض في هذه الحرب يجب أن يغزوها الجيش، وكذلك يجب أن تُغزا بالحَمَلات الدعائية. بوسع شعوب اليوم أن توقف الغزو المادّي وأن تواصل المقاومة المعنوية حتى بعد

استسلام الجيش، فباستخدام الحملات الدعائية يمكن للمرء سكب إكسير الحياة لجماهيره والسُّم لجماهير عدوه، وباستخدام ترياق الحملات الدعائية يمكن للمرء حماية جماهيره من سموم العدو.

عند مناقشة دور الحملات الدعائية يميّز مسنر بين **الحملة الدعائية بالكلمة والحملة الدعائية بالفعل،** فبينما تتضمن الأولى الراديو والخُطَب الرسمية والمنشورات والمسرح والسينما والمعارض، تتضمن الحملات الدعائية بالفعل أفعالاً ناجحة وفي وقتها المناسب. أي أن مسنر يقول إن الحملة الدعائية ليست ما يُقال أو يُكتَب أو يُنشَر أو يُذاع فحسب، بل ما يُفعَلُ أيضاً في أوقات الحرب النفسية، ولا يكون الانتصار في المعركة ولا المكاسب على الأرض أهدافاً بذاتها: بل إنَّ قيمتهم الرئيسية تكون في تأثيراتهم النفسية، كما أن الحملة الدعائية بالأفعال لا تقتصر على الأنشطة العسكرية؛ بل تشمل أيضاً الأعمال السياسية الناجحة والاقتصادية والاجتماعية التي يمكن استخدامها للتأثير على الحالة النفسية للسكان، تماماً كما 'يزيد إضراب عام ناجح من الثقة بالنفس لدى الطبقة العاملة، وكما يزيد استقرار العملة من سلطة الحكومة'.

وفي معرض حديثه للفرق بين الحملات الدعائية الهجومية والدفاعية وعمليات التهييج، يقول مسنر إنه بينما تكون الغاية من الحملة الدعائية الهجومية إضعاف العدو، تكون الحملة الدعائية الدفاعية مصممة لتقوية الروح المعنوية في الوطن، ومع ذلك فلا يجب أن تكون دفاعية أو اعتذارية أو تبريرية، بل يجب أن تُنشِّط المشاعر والأفكار لجنودنا ومقاتلينا وحتى غير المقاتلين، وهكذا يجب أن: *"يتم اختيار نغمة الحملة الدعائية بالتوافق مع ذوق ونفسية كل شعب، فالحملة الدعائية محكومة بالفشل إن بدت على أنها حملة دعائية"*، وهكذا يجب أن تكون الحملة متعددة الأوجه، نصفها حقيقي موجّه للجماهير -ونصفها الآخر موجّه للعدو- ومناسب لكل مستوى من الوعي ولكل صنف من الأعراف والميول والمصالح. ولتلخيص نموذج مسنر التفسيري لدور البعد النفسي للحرب على العموم، والحملات الدعائية على وجه الخصوص؛ من الضروري التأكيد على عنصرين في التفكير، الأول: ما هو السر الكامن وراء الحملة الدعائية الناجحة: '**إنه لا يرتبط كثيراً بما تقدمه، بل والى حد بعيد كيف تقدمه**'، فالأداة الرئيسية في الحملة الدعائية هي 'الكلمة

العاطفية، أما المنطق السليم والحقيقة فليستا ضروريتين لخلق العواطف'، والعنصر الثاني هو الدور المتزايد للبعد النفسي، مما يسمح للدول المنخرطة في الحرب بالتلاعب بعواطف الشعب الآخر. وهكذا في حروب المستقبل: *"ستُوجِدُ الدول وتدعم حركة فئة معينة في أراضي العدو حيث يمكنها دعمها ايديولوجيا ومادياً عبر الحملات الدعائية والتمويل، مما يعزز الفئات المعارِضَة والانهزامية، وحيث ستغذّي العصيان والتخريب والتدمير والارهاب".*

وكما هو الحال مع اعتبارات أفكار مسنر الأخرى فالنتيجة التي توصّل إليها فيما يتعلق بظهور البعد الرابع للحرب سبقت نتائج مشابهة لمؤيدي فكرة حروب الجيل الرابع بثلاثين سنة، وهكذا فبينما قال مسنر مع بداية البعد الرابع النفسي: *"من الأسهل أن تعمل على انهيار الدولة من أن تغزوها بالسلاح"*، سيدّعي منظّرو حروب الجيل الرابع لاحقاً أن الهدف الرئيسي لحروب الجيل الرابع هو 'تحطيم العدو داخلياً أكثر من تدميره مادياً'، وخصوصاً عبر التلاعب بوسائل الإعلام.

مسنر والحرب الباردة:

مع بداية الحرب الباردة تأثّرت أفكار مسنر للشؤون العالمية السياسية والعسكرية منها بالتنافس بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، وفي محاولة منه لوضع نموذج تفسيري لهذا الموقف الجديد في سياق غمرة الايديولوجيات من جهة واحتمالات التدمير المتبادل من جهة ثانية، قال مسنر إن وصف تروتسكي[68] لمعاهدة برست ليتوفيسك سنة 1918[69] بأنها 'ليست اتفاقية سلام ولا اتفاقية حرب' يمكن أن يكون قد طُبِّقَ عالمياً بعد سنة 1945 في مؤتمر بوتسدام:

---

[68] ليون تروتسكي، منظِّر يهويدي روسي ثوري ماركسي، وسياسي سوفياتي، وله مذهب سياسي يسمى التروتسكية، اغتيل سنة 1940 على يد فرقة اغتيال أرسلها له جوزيف ستالين بعد اتهامه بالعمالة لصالح الإمبريالية والرأسمالية.

[69] معاهدة بريست ليتوفيسك، وقِّعَت في الثالث من آذار سنة 1918 بين الحكومة الروسية البلشفية الجديدة والقوى المركزية، مما أنهى مشاركة روسيا في الحرب العالمية الاولى.

أصبح المجتمع الدولي ضحية الخداع عبر صيغة 'لا سلام ولا حرب' آخذاً سِمَتَهُ الأساسية: صراع دبلوماسي شديد يتخلله اندلاع ثورات واضطرابات مسلحة، إنها الحرب الباردة، كما يمكن تسميتها 'الدبلوماسية الساخنة' بصيغة 'لا حرب ولا سلام' فقد كان ثمة بعض الحرارة لعمليات عسكرية.

وبدأ مسنر الكتابة عن الردع النووي بداية سنة 1959، وبرأيه:

يجب على الغرب أن يرفض استراتيجياً وتكتيكياً التخطيط للحرب وفق النموذج النووي، فالغاية من الاسلحة النووية هو الردع المتبادل وليس استخدام السلاح النووي، فالخوف من الانتقام يمنع من ارتكاب الجريمة، وحتى أكثر القادة عنجهية لن يرسل قتلة ليغتالوا أعدائه، لأنه يخشى أن تُستخدم الطريقة نفسها في القتال ضده.

وإن كان في الزمن القديم قد:

تم اختراع المدافع الرشاشة القادرة على استهداف العدو في القلب دون خطأ لتحل محل مسدسات المبارزة، فلم يؤدي هذا الى إلغاء المبارزات: فالناس واصلت المبارزة باستخدام السيف، الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي لديهم 'مدافعهم الرشاشة الثقيلة'، أي أسلحتهم النووية، وهي موجَّهة بعناية الى نقاط ضعف أعدائهم، لكنَّ هذه الأسلحة لن تلغي الحرب، بل قد تؤدي الى حرب تحت تهديد استخدام القنابل الهيدروجينية، دون استخدام هذه القنابل، الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي سيعلنون بشكل متبادل تجميداً نووياً استراتيجياً، وكل منهما يراقب الآخر بيقظة، سيقاتلون بتكتيكات الحرارة النووية واستراتيجية المزاج النووي، وهكذا ليس بانشطار ذرة الهيدروجين، بل بانشطار شعب العدو ومعنوياته ونفوسه.

أي أنه: بما أن المواجهة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي غير ممكنة، سيقاتل الطرفان بعضهما بالحرب النفسية أكثر من الأبعاد المادية للحرب. ويسوق مسنر تفسير الحروب بالوكالة تلك الفترة كدليل على كلامه، فهي كما يقول جزء من استراتيجية أوسع بكثير بهدف التأثير على معنويات شعب العدو:

يجب أن نتوقف عن التفكير بالحرب على أنها تبدأ بالقتال، وبالسلام على أنه يحل حيث لا قتال، فالولايات المتحدة واستراليا ونيوزيلاندا والفيليبين وتايلاند ليست في حالة حرب ضد فيتنام الشمالية، لكنهم يقاتلون ضدها، ويوجد هدنة بين كوريا الشمالية والجنوبية لكنهما تقتتلان، بسبب مبادرة كوريا الشمالية التي يقف ورائها أنصار ترسيم الحدود والطلاب العنيفون في سيؤول. الاسرائيليون والعرب يُعتَبَرون في هدنة، لكنهم منخرطون في قتال عنيف ضد بعضهم، وربما يعود هذا للمفاوضات بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي حول عدم الاعتداء أو وقف التسليح وفي نفس الوقت شن الحرب: الاتحاد السوفياتي يقاتل ضد الولايات المتحدة عبر تقديم السلاح والمشورة والمال والامدادات لأولئك الذين يقاتلون الولايات المتحدة، ويفسدونها من داخلها.

ويقول مسنر محللاً استراتيجية الجمود بين القوتين العظمتين:

في هذه الحقبة من السلام النووي، لا يمكن التفكير بالحرب التقليدية (جيوش غفيرة، مناورات، معارك)، وبما أن الجميع يتوقع أن تنزلق الحرب التي تبدأ بالمدفع الرشاش والمدفعية الى حرب نووية بتأثير شخص متحمس سيستخدم أكثر الأسلحة تقدماً والتي قدّمها أعظم العلماء -أينشتاين- الى الانسانية الى حرب نووية.

وبفرض أن هذه الفرضية الكلاسيكية لم تعد ممكنة، فإن نوعاً جديداً من الحرب بدأ يتطور مكانها، ووضع مسنر هذا النوع الجديد -أو الأنواع- تحت مسمى نصف حرب و 'الدبلوماسية العدوانية' التي تشير الى أنشطة مختلفة تسمح للفاعلين السياسيين بإنجاز أهدافهم السياسية دون إعلان حرب، وبكلمات أخرى صنوف من العلاقات الدولية 'ليست حرباً وليست سلاماً'.

نصف الحرب والدبلوماسية العدوانية:

بناءً على ما سبق يقول مسنر إنه لم يعد ثمة تفريق بين 'الدولة في حالة الحرب' و 'الدولة في حالة السلم'، رغم أن ذلك كان بسيطاً في الأيام الخالية:

كُلِّف كوتوزوف[70] بمهمة هزيمة تركيا وتوقيع معاهدة سلام معها حسب ما يراه مناسباً، وكانت الكلمة الأخيرة للاستراتيجية أكثر من الدبلوماسية, وحدد كلاوزفيتز [71] مبدأً معاكساً: تُحَدِدُ الدبلوماسيةُ الأهدافَ، وعندما تكمل أعمالها، يأتي دور الاستراتيجية لتقرر، وهكذا أسس لأولوية الدبلوماسية، **لكن الآن عفا الزمان على مقولة كلاوزفيتز: 'الاستراتيجية هي استمرار للسياسة (أي الدبلوماسية)'، وهي فاقدة القيمة لأن التمييز الجلي بين المرحلة التي تقوم فيها الدبلوماسية بأعمالها والمرحلة التي تقوم فيها الاستراتيجية بأعمالها قد أنتهى، والخط بين السلام والحرب زال، ولا يوجد مزيد من التبادل: سلام –حرب ثم سلام ثانية، بل إن السلام متشابك مع الحرب والدبلوماسية مع الاستراتيجية.**

إن واحدة من أهم نتائج هذا هو المزج بين الدولة في الحرب والدبلوماسية المسالمة في العلاقات الدولية، وما يرافق ذلك من خلق أنواع جديدة من العلاقات بين الدول التي تتراوح بين الحرب المفتوحة والسلام المُعلَن: *"يوجد اليوم أربعة أشكال للعلاقات الدولية: الحرب، نصف الحرب، الدبلوماسية العدوانية، الدبلوماسية"*، وبينما يحدد مسنر الحرب والدبلوماسية بطرق مثالية تقريباً على أنها: 'صراع مفتوح بالسلاح'، و 'أنشطة سياسية –تبقى فيها القفازات في اليدين– تستند الى الطرق التقليدية في الإقناع والتهديد والاستجداء والابتزاز', والشكلان الآخران الموجودان في المنتصف أكثر تعقيداً.

يقول مسنر إنه لم يعد ممكناً رسم خط واضح بين العلاقات السلمية والعدوانية، خصوصاً في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، فإن 'كانت الدول سابقاً تعيش في سلام، أو تشن حروباً' فإن صيغة تروتسكي: 'لا حرب ولا سلام' قدّمت وضعاً جديداً: 'هذه الصيغة مِنْ رَفْضِ إرساء السلام لها معنىً جديد: رفض شن حرب مفتوحة', وبالتالي قال مسنر أنه عندما يُمحى الخط الفاصل المحدد

[70] الأمير ميخائيل الارينوفيش جولينشوف كوتوزوف كان ماريشالاً في الامبراطورية الروسية، وعمل كواحد من ألمع الضباط والدبلوماسيين الروس في عهد القياصرة من أسرة رومانوف: كاترين الثانية وباول الأول والكسندر الاول.

[71] كارل فيليب جوتفريد كلاوفيتز (1780–1831) جنرال بروسي ومنظّر عسكري شدد على الأخلاق والاعتبارات السياسية في الحرب، وأهم أعماله "عن الحرب".

والواضح بين العلاقات الدولية السلمية منها والعسكرية، فإن مزيجاً مختلفاً من اللاسلم واللاحرب يبدأ بالظهور.

ووصف مسنر أول شكل من أشكال العلاقات الدولية بنصف حرب "الانخراط الخفي بالحرب أو مناصبة العداء" : *"كانت الصين الحمراء خلف "فيت منه"*[72] *الذي قاتَلَ ضد فرنسا في فيتنام، وتشن واشنطن نصف حرب ضد بكين عبر المناورة التي يجريها الأسطول السابع في خليج فورمزا، ومصر تقاتل ضد فرنسا بطريقة غير مباشرة –كانتقام على مهاجمة ميناء بورسعيد– فَتُذكِي العِداء لها في الجزائر"*.

واصطلح مسنر على تسمية الشكل الثاني في العلاقات الدولية بـ ’الدبلوماسية العدائية‘، التي تشير الى ’السياسة التي تهدف الى إرغام دولة أخرى على تعديل سياستها‘، ويحدث هذا عندما لا تَكْسِرُ بلد معينة التعايش السلمي (المزعوم) مع دولة لا يمكن استرضائها، لكن في نفس الوقت تحرّك تلك البلد المعارضين والثائرين في تلك الدولة عبر الحملات الدعائية والرشوة.

ومن نواحٍ كثيرة لا تقدِّم تعريفات مسنر لنصف الحرب والدبلوماسية العدائية الكثير مما هو جديد لدراسة الحرب والعلاقات الدولية، فالتاريخ زاخر بأمثلة عن دول لا تحاول تحقيق أهدافها بالحرب المفتوحة ولا بالمفاوضات السياسية المباشرة، وإنما بشيء بينهما، على سبيل المثال دعم الملك لويس الثامن سياسياً التمرد في حرب البارونات الأولى (1215–1217) ضد التاج الانكليزي (قبل أن تتحول الى حرب ضمن الأسرة المالكة، أي من الدبلوماسية العدائية الى الحرب)، وبشكل مشابه ولسنوات عديدة دعمت فرنسا المستعمرات الامريكية عبر تقديم السلاح والامدادات والمتطوعين سراً (وأشهرهم الماركيز دي لافاليت[73]) قبل إعلان الحرب رسمياً على الامبراطورية البريطانية سنة 1778 (بتوقيع المعاهدة الامريكية الفرنسية، حيث تحولت نصف الحرب الى حرب).

[72] فيت منه، زعيم فيتنامي شيوعي.

[73] الماركيز دي لافاليت فرنسي من الطبقة الارستقراطية وضابط قاتل في حرب الثورة الأمريكية، وقاد القوات الامريكية في العديد من المعارك من ضمنها حصار يوركتاون.

لكن تبقى المساهمة الرئيسية لتصنيفات مسنر هي: سياقات الحرب الباردة، المترافقة مع تأميم الحرب وصعود البعد النفسي للحرب، مما يجعل هذا النوع من المواجهات 'لا حرب ولا سلام' طريقة سائدة لتحقيق غايات سياسية، عبر القول أنه في المستقبل ستستخدم الأطراف المتحاربة أساليب مختلفة لتقويض السلطة المحلية والسياسية الدولية للطرف الآخر، فقد كان مسنر واحداً من أوائل المنظّرين العسكريين الذين قالوا بأن هذه الأنواع كانت تَحِلُّ محل حروب القرن العشرين التقليدية في القرن العشرين ذاته، وهكذا فما سيسميه الاستراتيجيون الامريكيون بحروب الجيل الرابع بدايات التسعينات، وما سيصطلح عقيدان صينيان على تسميته الحرب المفتوحة لاحقاً في نفس العقد، كان مسنر قد أرسى مفاهيمه على أنه حرب التخريب قبلهم بثلاثة عقود.

نظرية حرب التخريب (myatezhevoyna):

قبل الخوض في مفهوم مسنر عن حرب التخريب من المهم توضيح بعض المسائل التي تحيط بكيفية ترجمة مصطلح myatezhevoyna ، فبعض الناشرين باللغة الانكليزية (وخصوصاً التي يكتبها باحثون من شرق أوروبا) ترجموا myatezhevoyna على أنها حرب التمرد، لكن هذه الترجمة غر صحيحة، فكلمة تمرد هي العصيان المفتوح ضد السلطات، خصوصاً الذي يقوم به الجنود أو البحارة ضد ضباطهم، وهذا يعني بالروسية bunt (الشغب)، والترجمة المباشرة لكلمة myatezh هي حرب العصابات، ولذا تكون الترجمة المباشرة لكلمة myatezhevoyna من الروسية الى الانكليزية هي 'a war by insurgency' أو 'insurgency-war' (حرب العصابات)، ومع ذلك يوجد سببان يجعلان هذا المصطلح إشكالياً، **السبب الأول** يذكره مسنر نفسه، حيث يقول إنه ثمة فرق بين myatezhevoyna وحرب العصابات (أي حرب التمرد), فالأولى توصِف ظاهرة أوسع، وحرب العصابات هي إحدى الطرق لشن myatezhevoyna, **والسبب الآخر** هو أن مسنر يستخدم مصطلح myatezhevoyna ليشير لنشاط يُقصَد منه تآكل تماسك العدو ثقافياً واجتماعياً وعسكرياً، وهذا الفعل أقرب الى تعريف التخريب من تعريف حرب العصابات، ولذا ستُترَجم كلمة myatezh من الآن وصاعداً الى كلمة تمرد، لكن كلمة

myatezhevoyna ستُترجم الى حرب التخريب. كما من الضروري ملاحظة أن مسنر يولي اهتماماً خاصاً في تحليله للتحول في طبيعة الحرب في القرن العشرين بالتمرد كأسلوب للحرب.

منذ عصر نابليون كانت الحرب تُشَنُّ باتباع القواعد التي وضعها نابليون وكلاوزفيتز وديلبرك[74] (وفي النموذج الروسي وفقاً لقواعد جوميني[75] ولير[76] وميخنيفيتش[77]، ومنذ خيضت حرب لودين دورف[78] (1916) بالاستفادة من أفكار الاقتصادي آدم سميث[79] حيث استكمل الكفاح الاقتصادي المواجهة العسكرية، وأضاف ستالين وتشرشل (وكلاهما ليسا جنرالين ولا عسكريين حتى) لأطروحات كلاوزفيتز وسميث نظريات لمدنيين في الفن العسكري-كارل ماركس وإنجلز[80] وكوتسكي[81]- الذين عَزَوا الأدوار الرئيسية في شن الحروب ليس للجيوش ولا للاقتصاد بل للتمردات. ومنذ بدء حرب الهند الصينية[82] باتت مشاركة الجيوش في المواجهات العسكرية أقل

[74] هانز ليبولد ديلبيرك (1848-1929), باحث الماني متخصص بالتاريخ العسكري, ابرز مؤلفاته "التاريخ العسكري في اطار التاريخ السياسي- 4 أجزاء" وكتاب "وصف استراتيجية بيرسليس من خلال استراتيجية فريدريك الكبير".

[75] انتوني هنري بارون جوميني (1779-1869) جنرال سويسري عمل كجنرال في الجيش الفرنسي ثم في الجيش الروسي، وهو أحد أشهر الكتاب عن فن الحرب لدى نابليون. من أشهر كتبه "فن الحرب" و "حياة نابليون".

[76] الجنرال جينيرياخ لير (1829-1904), جنرال روسي بدرجة بروفيسور ورئيس أكاديمية التكتيكات العسكرية في سانت بطرسبورغ, ألف تسعة كتب في العسكرة وعدد من المقالات في المجلة العسكرية الرسمية الحكومية.

[77] جنرال روسي (1849-1922) له عدد من المؤلفات العسكرية أبرزها كتاب الإستراتيجية, يعتبر من ابرز من اعتمد عليه الاتحاد السوفيتي في أفكاره العسكرية.

[78] ايرش فريدرتش ويليام لودندروف (1865-1937) كان جنرالاً ألمانياً انتصر في معركتي تانينبرغ في شهر آب من سنة 1916، وبتعيينه قائداً للجيش الألماني أصبح المسؤول عن المجهود الحربي الألماني في الحرب العالمية الأولى.

[79] آدم سميث (1723-1790) كان اقتصادياً اسكوتلندياً وفيلسوفاً ومؤلفاً وفيلسوفاً أخلاقياً ورائداً في الاقتصاد السياسي وشخصية أساسية خلال عملية تحويل اسكتلندا الى دولة انكليزية، ويُعرَف كذلك بلقب "والد الاقتصاديين" و "والد الرأسمالية".

[80] فريدريش انجلز (1820-1895) فيلسوف ألماني، شيوعي وعالم اجتماعي وصحفي ورجل أعمال، وكان والده يملك معامل نسيج ضخمة في سالفورد بانكلترا وبارمن ببروسيا.

[81] كارل جون كوتسكي (1854-1938) فيلسوف تشيكي نمساوي، وصحفي ومنظِّر ماركسي، ويُعرَف كوتسكي على أنه أكثر مصادر الماركسية الارثوذكسية بعد وفاة فريدريش إنجلز سنة 1985 وحتى اندلاع الحرب العالمية الأولى سنة 1914.

[82] الهند الصينية، هو البر الرئيسي جنوب شرق آسيا وهو الجزء القاري من جنوب شرق آسيا، وتقع شرق شبه القارة الهندية وجنوب الصين ويحدها المحيط الهندي من الغرب والمحيط الهادئ من الشرق، وتشمل دول ميانمار وتايلاند وشبه جزيرة ماليزيا ولاوس وكمبوديا وفيتنام.

أهمية: وتنحى كلاوزفيتز وإنجلز جانباً أمام المبشرين الجدد بالنوع الجديد من الحرب من أمثال جياب[83] وماو[84] وجيفارا[85].

وحسب رؤية جيفارا فإن صراعات الجيوش التي حدثت في السنوات الخمس والعشرين التي تلت الحرب العالمية الثانية كانت جميعها مترابطة، 'فمرضٌ معدٍ في قفص واحد قد يكون حادثاً، أما الآلاف من الحوادث المترافقة فهي وباء'، وهذا الوباء يتكون من عدد كبير من المواجهات التي تبدو غير مترابطة، وكل واحدة منهم اندلعت لأسباب مختلفة (دينية، عرقية، اجتماعية، عنصرية، قبلية، أيديولوجية، سياسية، إلخ) لكنهم جميعاً يشتركون بأن هدفهم واحد: تدمير العالم، الذي بات بالياً وبات الخروج من هذا النفق المظلم الذي وضع العالَمُ فيه نفسَهُ متعذَّراً. وبالأخذ بالحسبان نزعة مسنر المحافِظة فليس مفاجئاً أنه نسبَ هذه الصراعات التي تبدو مستقلة لِمَا يَصِفُهُ بالثورة العالمية، وحتى مع معارضته لما حدث كجزء من الثورة العالمية، إلا أن عملية "التداخل بين الثقافات" آخذة في التسارع, ومن الضروري فهم كيف حدثت وكف يمكن الاستفادة منها لتحقيق أهداف سياسية:

يوجد كثير من الأحداث المبهمة في العالم، وخصوصاً إن نظرنا بمنظور التعريف القديم للحرب، لكن استخدام عدسات جديدة لحرب التخريب يمكن أن يقدّم شرحاً أوفى، ومن ثم سنتوقف عن وصف الأعمال الاستراتيجية التي هي جزء من حرب التخريب على أنها أحداث إجرامية، وسنتوقف عن وصف الفصول العملياتية التكتيكية من حرب التخريب على أنها اضطرابات لا صلة لها بالحرب.

جرت الحرب الأولى في الهند الصينية في الجزء الفرنسي منها عام 1946 وامتدت حتى سنة 1954وكان القتال بين القوات الفرنسية وأنصار فيت منه.

[83] فو نيجين جياب (1911–2013) جنرال في جيش التحرير الشعبي الفيتنامي وسياسي، ويُعتبر واحداً من أبرز المنظِّرين العسكريين الاستراتيجيين في القرن العشرين.

[84] ماو زيدوغ (1893–1976) يُعرَف أيضا بالرئيس ماو، كان شيوعياً صينياً ثورياً وأصبح الأب المؤسس لجمهورية الشعب الصينية، التي حكمها كرئيس للحزب الشيوعي الصيني منذ تأسيسه 1949 وحتى وفاته سنة 1976.

[85] إرنستو تشي غيفارا (1928-1967) ثائر ماركسي ارجنتيني، وهو كذلك سياسي ومؤلف وقائد في حرب العصابات ودبلوماسي ومنظِّر عسكري. ويمثِّل الشخصية الرئيسية في الثورة الكوبية، وباتت صورته الأنيقة رمزاً ثقافياً في كل مكان للتمرد والثورة في الرموز والشارات العالمية للثقافة الشعبية.

لقد جاء تأميم الحرب كنتيجة للثورة العالمية، ولذا فقد تزايدت مشاركة الجماهير (سياسيا وعسكرياً بشكل مباشر وغير مباشر) في صنع الحرب كمشاركين فاعلين أو كأهداف للحرب: اليوم، خسرت القوى النظامية احتكارها العسكري، والقوات غير النظامية تقاتل مع قوات نظامية (وحتى أكثر من نظامية).

بينما كان انتشار حروب التمرد على حساب الحروب التقليدية عملية خارج السيطرة وحتمية في ظروف الثورة العالمية، يمكن استغلالها أيضاً من قِبَل لاعبين سياسيين لتحقيق غايات سياسية معيَّنة يمكن الوصول إليها عبر التشجيع الهادف لصراعات داخلية، وهذه الصراعات ستخلق بدورها مشكلات وأزمات، ستُقصي الجماهير عن حكوماتها، أو بعبارة أخرى تقوّض الشرعية السياسية للعدو، وهذا النوع من حرب التخريب –حسب مسنر– ما هو إلا حرب نفسية تهدف لهزيمة عقل وروح الشعب للأمة المُهاجَمَة.

لذا فإحدى أهم الخصائص المميزة لحرب التخريب هي صدارة البعد النفسي:

يجب النظر في هذه الظاهرة الجديدة من جوانب عدة، لكن يبقى الجانب الأهم هو الجانب النفسي: إن كانت الروح المعنوية للجيوش الصامدة في الحروب التقليدية على درجة كبيرة من الأهمية فإن العوامل النفسية باتت هي الأهم في الحقبة الحالية بالنسبة للجيوش والحركات الشعبية التي تتبنى العنف. إن جيش شعب معين هو كائن نفسي، لذا فالحركة الشعبية هي ظاهرة نفسية محضة، والحرب التي تجمع جيشاً مع حركات شعبية –حرب التخريب– هي حرب نفسية.

عندما كانت الحرب منافَسَةً بين جيشين:

كانت سهلة نسبياً: جِد ميداناً كبيراً وقاتِل لتدمير تشكيلات العدو، وحاول تحطيم القوة بالقوة، أما اليوم، في الحرب النفسية لا يكون الانتصار في المعركة ولا المكتسبات في الأرض أهدافاً بحد ذاتها: فقيمتهم الرئيسية بتأثيراتهم النفسية، لذا لا يجب على المرء التفكير بتدمير قوة العدو البشرية، بل بسحق قوّته النفسية، وهذه أضمن طريقة للانتصار في حرب التخريب.

في الوقت الذي يمكن أن يُنظَر فيه لحرب العصابات حول العالم على أنها أحداث فوضوية غير مترابطة فإنَّ هذه الفوضى لا تُنشَئ بطريقة عشوائية، بل بطريقة منهجية تماماً، منظَّمة ومدروسة بإرشاد من المراكز الاستراتيجية، التي تنسّق الحرب ببعدها النفسي لتسريع التناقضات الداخلية التي أوجدتها الثورة العالمية بهدف إضعاف الخصم السياسي، ويقول مسنر في معرض وصفه لهذا التنسيق:

إن شن الحرب فن، وشن تمرد (ثورة) فن أيضاً، واليوم الفن الجديد هو شن حرب التخريب، ويواجه الاستراتيجيون خيارات صعبة في تحديد أهداف أعمالهم (المرحليّة والنهائية)، وفي حرب التخريب بالذات الخيار مختلف، بسبب كثرة الأهداف والاختلافات في اهميتها (سواء النفسية البحتة أو المادية ذات الجانب النفسي، أو المادية البحتة).

ويمكن ترتيب هذه الأهداف بالتسلسل:

1- حلّ الروح العامة لدى العدو

2-هزيمة الجزء النشط من العدو (الجيش، التنظيمات الحزبية، الحركات الشعبية العنيفة)

3- السيطرة على الأهداف ذات القيمة النفسية أو تدميرها

4-السيطرة على الأهداف ذات القيمة المادية أو تدميرها

5-خلق انطباع يهدف لاكتساب حلفاء جدد وسحق الروح المعنوية لدى حلفاء العدو.

وليس ثمة الكثير مما هو جديد في هذا الترتيب للأهداف، فمسنر يعترف بأن حرب التخريب تأتي بعد الخطوات التي وضعها الصيني ماو زيدوغ: الإحباط، الشغب، الارهاب، التجنيد التدريجي للمتمردين (حركات متمردة)، إعادة بناء نفوس الشعب (بناء "إنسان جديد") وأخيراً بناء منظومة اجتماعية انسانية جديدة. وبدلاً منها فالابتكار الأساسي لسلسلة مسنر هي كيفية تنفيذ الخطوة الأولى، بسبب الثورة العالمية اندمجت الحروب بأعمال التخريب وأعمال التخريب بالحروب مما أنشئ شكلاً جديداً من الصراع المسلّح، وهو ما سنسميه حرب التخريب، حيث لا يكون المقاتلون هم

ذات القوات المحاربة تماماً، وإنما حركات شعبية، وبما أن الثورة العالمية ظاهرة عالمية وغير خاضعة للسيطرة، فقد تسعى حركات عامة مختلفة لذات الهدف، لكن عملها سيكون فوضوياً وغير منسق. فعلى سبيل المثال يقول مسنر في مناقشته للثورة الفيتنامية أن المشكلة الرئيسية للولايات المتحدة هي عدم قدرتها على استيعاب–إضافة الى الحرب المباشرة مع الفيتناميين الشيوعيين– أنها كانت تقاتل مجموعة من المخربين يقودهم:

أمريكيون أفارقة يرأسهم ستوكلي كارميشيل[86]، والحمائم في الكونجرس، والطلاب الأناركيون في أوروبا[87] وعلى رأسهم دوتسكي وتيوفل وكوهن بينت، ودعاة السلام من العديد من البلدان وعلى رأسهم بابا الفاتيكان، وكذلك مجلس الكنائس العالمي واللورد روسيل، والأحزاب الشيوعية (حول العالم) والاتحاد السوفياتي ممن لم يكن بإمكان جونسون[88](رئيس الولايات المتحدة حينها) مد جسور الصداقة إليها، وكل هذه القوى تشن حرباً على المعنويات في البيت الأبيض من خلال حرب تخريب واسعة وإضعاف إرادة القتال للولايات المتحدة.

حسب مسنر، فإن الانتصار في حروب المستقبل يعتمد على استغلال التغييرات الاجتماعية السياسية التي خلقتها الثورة العالمية، لذا ففي القلب من فكرة حرب التخريب ثمة فكرة أن الجهات السياسية يمكنها استغلال هذه التغييرات عبر الدعم النَّشِط للمواجهات المحلية التي أوجدتها الثورة العالمية بهدف تدمير أعدائهم وإحباط الروح المعنوية لمواطنيهم، وبالتالي إحداث تآكل في الشرعية السياسية لأعدائهم. ومن الضروري ملاحظة أن مسنر لم يدَّعي أن حرب التخريب تشمل أعمالاً مباشرة مادية أو نفسية ضد العدو، رغم أنها مشابهة للحروب التقليدية من نواحٍ عدة، فحرب

---

[86] ستوكلي كارميشيل (1941–1998) منظِّم اجتماعي أمريكي بارز في حركة الحقوق المدنية في الولايات المتحدة وحركة الأفارقة العالمية، وُلِدَ في ترينداد وترعرع في الولايات المتحدة من سن 11 وأصبح ناشطاً خلال دراسته في جامعة هاوارد.

[87] هي حركة قادها طلاب الجامعات ضد التراتبية السلطوية في عهد تشارلز دي جول في فرنسا وأطلق عليها "الحركة الأناركية" وتعني اللاسلطوية.

[88] ليندون بينز جونسون سياسي أمريكي، ووصل الى منصب رئاسة الولايات المتحدة ليكون الرئيس ال37 من سنة 1963 وحتى سنة 1969 عقب اغتيال الرئيس كندي الذي كان نائبه، وتفاقمت في عهده حرب فيتنام، وجرت حرب حزيران في عهده حيث كان مسانداً قويا جدا للكيان الصهيوني، وكان معروفاً بولعه بالنساء وخصوصاً باليهودية الصهيونية ماتيلدا كريم.

التخريب يمكن شنها ضد عدو بالدعم النشط للمعارضة في دولة العدو، ويتضمن الفن الحقيقي لحرب التخريب حسب مسنر: أعمالاً غير مباشرة وتبدو غير مترابطة وتشجِّع على المواجهات الداخلية، وهكذا فرص يجب أن تُحَدَدَ من خلال الاستطلاع النفسي 'لا يوجد مهام أكثر دقة وتعقيداً من مهام الاستطلاع النفسي، فبينما يتعامل الطبيب النفسي مع نفس واحدة مريضة، يتعامل الاستطلاع النفسي مع نفوس شعوب برُمَّتِها'. وبما أن حرب التخريب تُشنُّ أولاً وقبل كل شيء على البعد النفسي، فمن الضروري فهم العوامل النفسية والاجتماعية الموجودة مسبقاً والتي قد تقوِّض العدو، مثل الاتحاد السوفياتي الذي ينثر بذور حرب التخريب وفي نفس الوقت لا يثير حرباً كبيرة، ولا يعرِّض نفسه لحملة غربية صليبية. وأفضل مثال على حرب من هذا القبيل حسب مسنر كانت حرب فيتنام، حيث كانت إحدى أهم ميادين القتال بين موسكو الحمراء وواشنطن (على أراضي الولايات المتحدة)، حيث كان الانهزاميون والمشاغبون والخونة والعملاء للكرملين أو المتعاطفون معه يحاولون الكفاح لانتصار فيتنام الشمالية. ومثال آخر معاكس كان الصراع العربي الاسرائيلي، حيث كانت غاية موسكو من وراء حرب التخريب: *"مواصلة استنزاف الولايات المتحدة اقتصادياً وأخلاقياً في فلسطين لإكمال ما بدأوه في فيتنام"*. وعند تلخيص مفهوم مسنر لحرب التخريب من الضروري توضيح خاصيتين رئيسيتين، **أولاً**– أنّها لا تدعم الفوضى السياسية أو حركات المعارضة أو التمردات، بل تستخدمهم بشكل مباشر أو غير مباشر لتحقيق غايات سياسية، كما كان الحال مع دعم الاتحاد السوفياتي لفيتنام الشمالية بهدف إطالة أمد الحرب، 'على أمل أن لا يكون الانتصار في أراضي فيتنام بل في أراضي الولايات المتحدة'، حيث كانت المعركة الرئيسية الفعلية تُشن ضمن المجتمع الأمريكي، **ثانياً**– تتسم حرب التخريب بغموضها حيث لا يمكن التنبؤ بها، ورغم أنها تُشن في البعد النفسي وتستفيد من التناقضات الاجتماعية الثقافية والسياسية، إلا أنه أحياناً من الصعب التنبؤ بالمسار النفسي ذي المنطق الكاذب الذي ستتخذه، كما أن التعقيد في الاعتبارات الاستراتيجية النفسية المختلفة الموجودة في حرب التخريب في سياق الثورة العالمية وتأميم الحرب الناتج عنها يضيف مزيداً من الإبهام.

الهدف العسكري التقليدي –جيش العدو– بات مشتتاً الى أناس في الحرب، والهدف الجغرافي التقليدي –العاصمة– بات واحداً من عواصم عديدة، أي المراكز المختلفة للبنى التحتية للشعب. لقد كان خط سير نابليون الاستراتيجي فيلينوس[89]–سمولونيسك[90]–موسكو، أما خط سير مولتكه[91] فكان يمتد من سيدان[92] الى باريس مباشرة، أما اليوم فيمكن للفكرة الاستراتيجية أن تبدو مثل كرة، يركلها لاعب كرة قدم من ملعب الى آخر: يوجد في النهاية مرمى واحد لكن يوجد أيضاً العديد من المرامي البينيّة، كما تتواجد في ميادين مختلفة: العسكرية والاقتصادية والدبلوماسية والاجتماعية السياسية والنفسية المنطقية.

إحياء أفكار مسنر في روسيا في حقبة ما بعد الاتحاد السوفياتي:

بقي مسنر غير معروف بشكل عام في الاتحاد السوفياتي بسبب آرائه المعادية للشيوعية ومناصرته للحركة البيضاء وبعدها للنازية الألمانية، وكتبه ومقالاته مشابهة لأعمال المهاجرين الروس المنشورة في الخارج، وربما وصلت الى الاتحاد السوفياتي، لكن وصولها كان مقتصراً على عدد محدود من المسؤولين رفيعي المستوى والخبراء، ورغم ذلك في الحقبة السوفياتية السابقة أصبحت أعمال مسنر متاحة لعدد كبير من المفكّرين العسكريين، وكان ثمة نمو متزايد في إحياء مفهوم مسنر عن حرب التخريب لتحليل الموقف الجيوسياسي الراهن والسياسة، والمواجهات السياسية والعسكرية والاقتصادية (على سبيل المثال: في البلقان وصعود التنظيمات الارهابية والربيع العربي والأزمة الاوكرانية)، ويوجد سببان لعملية الإحياء هذه:

[89] فيلنويس عاصمة ليتوانا وأكبر مدنها.

[90] سمولونيسك: مدينة في غرب روسيا، وجرت فيها معركة شهيرة عند انطلاق الهجوم الألماني على روسيا في الحرب العالمية الثانية.

[91] هلموث كارل بيرنهارد جراف فون مولتكه: ماريشال بروسي، وكان رئيس أركان الجيش الروسي لثلاثين سنة، ويُعتبَر مؤسس الطريقة الحديثة لتوجيه الجيوش في الميدان.

[92] سيدان: مدينة فرنسية شرق فرنسا، جرت فيها معارك شهيرة خلال الحربين العالميتين.

العامل الأول– عملية الإحياء العامة لأعمال المفكرين العسكريين من المهاجرين الروس بعد نهاية الحرب الباردة مباشرة، فبعد انهيار الاتحاد السوفياتي وتدهور الجيش الروسي ماديّاً (بسبب تقسيم الجيش الأحمر بين خمس عشرة دولة جديدة) وفكرياً (بسبب خسارة العقيدة السوفياتية)، بدأ المفكّرون العسكريون السوفييت بالبحث عن فلسفة جديدة للحرب، كما صرّح بذلك ضابطان روسيان سنة 1994:

بعد رفض الدور الحصري الذي كانت الماركسية تلعبه كمعلّم وحيد للحقيقة يشرح طبيعة وخصائص الحرب، وضعنا أنفسنا أمام ضرورة توضيح الأساس العلمي العسكري لنظرتنا للعالم، وآرائنا عن الحرب كظرف اجتماعي خاص، ولذا فبعد الاختفاء للماركسية اللينينية كأيديولوجية للدولة، والذي حدَّ في السابق من الوصول الى المهاجرين الروس من مفكّرين وسياسيين، والتعطّش الى رؤيا جديدة لمفهوم الحرب، بات الجيش الروسي مهتماً بهذا النتاج الأدبي بشكل متزايد.

وكتب العقيد الروسي اليكساندر سافينسكي –مؤسس ورئيس التحرير في روسسيكي فويناي سبونيك (المجموعة العسكرية الروسية) وهي سلسة من الكتب تدعمها الكلية الحربية الروسية ووزارة الدفاع الروسية_ ما لا يقل عن تسع كتب أعادت نشر وحللت أعمال المهاجرين العسكريين الروس والمفكّرين السياسيين، ويقول:

لم يحل المهاجرون البيض ولم يستطيعوا حل مشكلاتهم السياسية، لكنهم خلّفوا ورائهم ميراثاً معنوياً وقيماً وإرشادات لتطوير تعليم وطني لمستقبل القوات المسلحة لتحرير روسيا، ولذا فإحياء معنويات الجيش اليوم مستحيل دون دراسة وفهم التفكير الوطني والعسكري للمهاجرين الروس، وأفكار الحركة البيضاء وتقاليدها.

وإضافة لسلسلة الكتب، فتحليل الأفكار التي أنتجها المهاجرون العسكريون الروس امتد الآن ليشمل عدداً كبيراً من الكتب والمقالات، وكلها تؤكد على أن:

ظاهرة الثقافة العسكرية الروسية في الخارج فريدة من نوعها في التاريخ الحديث، فمن الواضح أن العديد من البيانات والأفكار كانت مختلفة كثيراً عن تلك التي وجّهتنا على مدى سنين عديدة. لكن يجب أن نتذكّر أن هذا التراث مبني على تجربة تاريخية مريرة، مخضبة بالدماء والدموع التي بذلها وطننا، والأعمال هي نتاج أفضل العقول العسكرية في المنفى ونأمل أن يستفيد منها الجيش الروسي في المستقبل.

والعامل الثاني وراء إحياء نظرية مسنر هو حقيقة أن أفكاره تستجيب مباشرة للنموذج التفسيري للمفكرين العسكريين الروس المعاصرين حول الخصائص المتغيرة للحرب في حقبة ما بعد الاتحاد السوفياتي: "عدد من الخبراء العسكريين الروس اعتبروا أن الحروب في المستقبل لن تُشنَّ كحروب تقليدية بل باستراتيجية الأعمال غير المباشرة (حرب التخريب) حيث ستلعب الأعمال الإرهابية دوراً رئيسياً، وكذلك التشكيلات العسكرية غير الخاضعة للقانون ووسائل التأثير النفسي الإعلامي.. إلخ". وكانت نقطة البداية لهذا النموذج التفسيري هي تحليل هزيمة الاتحاد السوفياتي في الحرب الباردة–أكبر كارثة جيوسياسية في القرن الحادي والعشرين، حسب الفريق أليكسندر فلاديميروف– وليس مستغرباً أن هذا التحليل قاد في النهاية بعض المفكّرين الروس لاستنتاج أن: "نموذج الحرب الباردة يثبت أن الاتحاد السوفياتي كان أول وأهم ضحية لحرب التخريب، مما يثبت ضرورة توسيع طيف معايير الحرب"، أو بكلمات العقيد الروسي:

كان جوهر الحرب الباردة صراعاً منظَّماً منسّقاً ذا غايات بين دولتين، وكفاحاً معقداً لا هوادة فيه على التحالفات الداخلية، ومن الجلي أن عدم القدرة (أو عدم الرغبة) على تحقيق النصر من خلال وسائل القتال المسلّح هو ما أوجد ضرورة لوسائل وأساليب أخرى، تكون فعّالة بما يكفي لاستبدال العنف المسلح وإجبار العدو على تقبُّل هزيمته دون قتال فعلي.

ويقول البروفيسور إيفان راديكوف مُلَخِّصاً تحليله للحرب الباردة ودور الوسائل والطرق غير العسكرية في الصراعات المعاصرة:

إن كانت الأولوية في الحروب التقليدية للبعد المادي (المجهود العسكري، القوات المسلحة، الاقتصاد، المجهود الديموغرافي للعدو) فقد انحرف محور الصراع نحو أبعاد: العقل (وعي النخب، ووعي الجماهير، وحالتهم النفسية، ووسائل التواصل معهم) والروح (وعي الشعب الديني، الأخلاق العامة، والعلاقات بين أتباع الدين الواحد والعلاقات بين أتباع الأديان المختلفة، والنظام الديني التقليدي).

وبينما كان تطوير هذا الفهم الواسع لظاهرة الحرب مبنياً بشكل خاص على تحليلات عن الحرب الباردة، يمكن تحديد العلاقة الداخلية بين التفكير العسكري المعاصِر ونظرية حرب التخريب بسهولة عبر العدد الكبير من مراجع أعمال مسنر في الأدب الروسي، كما أن فكرة مسنر بأنه في أوقاتنا من السهل التسبب في تدهور الدولة أكثر من إخضاعها، وجدت طريقها الى اثنين من نظريات الحروب المعاصرة الرئيسية اللتان تطورتا في روسيا أواخر التسعينات وأوائل الألفية الجديدة: 'حرب الشبكة المركزية' و 'حرب المعلومات'، التي يتناولها الفصل القادم، كما أن هاتين النظريتين تم تأصيل المفهوم التفسيري لكل واحدة منهما بمعزل عن الأخرى، وحتى بمعزل عن مفهوم مسنر لحرب التخريب، وهما تشتركان بالعديد من الاعتبارات والفرضيات، وكلها تشكّل في النهاية النموذج التفسيري الروسي للحرب الهجينة.

نظرية حروب الشبكة المركزية والحرب الاعلامية

النظريات الجديدة لحروب التخريب:

كما ذكرنا في الفصل السابق، بالإضافة الى الاهتمام بإحياء أعمال مسنر فقد طوّر باحثان روسيان نظريتين بارزتين آخرتين غيرها خلال ذات الفترة –الشبكة المركزية وحروب المعلومات، وهما أليكسندر دوجين وإيجور بانارين، وعلى الرغم من أنهما لم يذكرا أعمال مسنر إلا أن جوهر مفاهيمهما ما هي إلا صدى لأفكار مسنر، وبالفعل فجوهر نظرية حرب الشبكة المركزية لدوجين

وحروب المعلومات لبانارين كانتا (إضافة الى حرب التخريب لمسنر كما فسّرها العديد من المفكّرين الروس المعاصرون) متشابهتين للغاية، وكل هذه النظريات تدّعي أنه **وفقاً للحقائق الجيوسياسية والتقنية في القرن الحادي والعشرون، فمن الأسهل إنجاز الأهداف السياسية عبر تقويض السلطة السياسية للعدو بالتلاعب بالنخب السياسية وإيجاد منشقّين سياسيين وعمليات انفصال ومشكلات اجتماعية، أكثر من شن حروب تقليدية وعمليات عسكرية.**

أليكسندر دوجين: نظرية حرب الشبكة المركزية

أليكسندر جيليفيش دوجين عالِم سياسة روسي، وفيلسوف جيوسياسي، ومؤرّخ ديني وسالفوفيلي[93]، وبدأ نشر أعماله أواخر الثمانينيات من القرن العشرين وأثبت جدارته ككاتب ومتحدّث، ومنذ ذلك الحين، فرض نفسه كمؤلّف خصيب الانتاج، فنشر عدة كتب (غالباً كتاب واحد كل سنة) إضافة للمئات من المقالات والتعقيبات واللقاءات الاعلامية، تُرجِمَ بعضها الى الانكليزية، كما شغل دوجين عدة مناصب استشارية رفيعة المستوى في المؤسسة السياسية الروسية، ومنذ 2009 وحتى 2014 خدم كرئيس للعلاقات الدولية في قسم الاجتماع في جامعة لومونوسوف الحكومية في موسكو. إن المناقشة الكاملة لأفكار دوجين تتجاوز نطاق هذا الفصل، لكن من الضروري إيضاح عدة اعتبارات للأفكار ذات الصلة بالنقاش الحالي.

أولاً- دوجين واحد من أبرز أنصار فكرة الحضارة الروسية الأوروبية الآسيوية، وهي الفكرة التي صُممَت للحفاظ على السمات الاجتماعية التي تمتاز بها الثقافية الروسية، والتاريخ والدور العالمي، ولذا يقول دوجين:

المجتمع الاوروبي مجتمع أوروبي متوسطي، فهو أوروبي جزئياً وليس أوروبي جزئياً أيضاً، ولذا فهي ظاهرة فريدة من نوعها ومميزة نوعاً ما، ونحن لا نعيش على هذه الأرض ضمن هذه الحدود

[93] السلوفينيا حركة فكرية تعود جذورها الى القرن التاسع عشر، كانت تهدف لتطوير الامبراطورية الروسية بالقيم والتشريعات المشتقة من تاريخها القديم، ويعارض السلوفينيون تأثيرات أوروبا الغربية في روسيا.

بالصدفة، ولم نُقِم هذه الحدود ونوطّدها بالصدفة أيضاً، فبيننا وبين هذه الأرض والحدود علاقات اجتماعية وثقافية وجينية وسببية ومفاهيمية وشكلية مباشرة.

ثانياً- يشغل دوجين موقعاً أيديولوجياً مستتيراً قوياً في العلاقات بين روسيا والغرب، ويقول إن الحضارة الروسية الاوروبية الآسيوية وُجِهَت باستمرار بالعدوان الغربي، وخصوصاً من الولايات المتحدة: *"الولايات المتحدة هي تجميع للغرب وسياساته وطليعته الدينية والأيديولوجية، إنها تجميع للغرب، للرأسمالية الغربية، إنها مركزها ومحورها، وجوهرها"*. وحسب دوجين لطالما كانت روسيا أحد الأعداء الحيويين للغرب، وهذا الصراع بين الحضارة الغربية البروتستانتية (التي قادتها الامبراطورية البريطانية أولا ثم الولايات المتحدة بعدها) والحضارة الروسية الأرثوذكسية الأوروبية الآسيوية ثانياً، يمكن تتبعها عبر مئات السنوات من المواجهات:

من أواسط القرن العشرين، المواجهات الجيوسياسية التي تتبَّعَهَا المهتمون بالشؤون الجيوسياسية وصولاً الى النزاعات القديمة في أثينا وأسبارطا وروما وقرطاج... والتي تبلورت أخيراً في الصدام بين العالم الغربي (الولايات المتحدة وأوروبا الغربية) والاتحاد السوفياتي وما يدور في فلكه في أوروبا وآسيا.

ثالثاً- الاعتبار الأهم في أعمال دوجين تتعلق بالكيفية-حسب رأيه- التي شن فيها الغرب (وبالذات الولايات المتحدة) عدوانه على روسيا في القرن العشرين وأوائل القرن الحادي والعشرين، وفي سنة 2007 نشر دوجين كتاباً بعنوان الجغرافيا السياسية لما بعد الحداثة، ويقدِّم فيه تفسيره لمفهوم الولايات المتحدة عن 'حرب الشبكة المركزية'، وبعد هذا الكتاب واصل دوجين توضيح أفكاره في سلسلة من المقالات والكتب الأخرى، تُعَرِّفُ الجمهور الروسي بمصطلح حرب الشبكة المركزية، وبما أن تفسير دوجين لهذا المصطلح يختلف جذرياً عن الجزء الأمريكي منه، وكذلك كيف نوقِش المصطلح الأمريكي أصلاً في الأروقة العسكرية الروسية، فمن المهم توضيح هذه الاختلافات قبل الخوض في المناقشة.

يُعَدُّ مفهوم حرب الشبكة المركزية من بنات أفكار الجيش الأمريكي، وظهر بدايةً أواخر التسعينات في منشورات البحرية الأمريكية، وسنة 1998 انعكس على التغيرات الاجتماعية والاقتصادية والتقنية التي كانت تحدث في العقد الأخير من القرن العشرين، حيث قال اللواء البحري آرثر سبروسكي: *"نتيجة للتغيرات الجوهرية في المجتمع والاقتصاد الأمريكيان ستستفيد العمليات العسكرية بشكل متزايد من التطورات والميزات لتقنية المعلومات، وتطور مفهوم الشبكة المركزية أكثر على يد مجموعة من الخبراء من برنامج أبحاث القيادة والسيطرة داخل مكتب وزارة الخارجية، والذين اشتقّوا نظريتهم من سلسلة من دراسات حالة عن كيفية استخدام معلومات وتقنيات تواصل جديدة لتحسين تحليل الموقف، بإسقاط ذات المفهوم على النشاط العسكري"*، ومما يقولونه:

تتعلق حرب الشبكة المركزية بالسلوك الانساني والتنظيمي، وتعتمد على تبني طريقة جديدة في التفكير -تفكير الشبكة المركزية- وتطبيقه على العمليات العسكرية، وتركّز حرب الشبكة المركزية على القوة القتالية التي يمكن أن تأتي من الربط الفعّال أو وصل شبكات مشاريع القتال، وتتسم بقدرة القوات المشتتة جغرافياً (المكونة من كيانات) على خلق مستوى عالٍ من الوعي في ميدان المعركة مما يمكن استغلاله من خلال المزامنة التلقائية وعمليات الشبكة المركزية الأخرى لإنجاز ما ينوي القادة تحقيقه.

بمعنى أن: الفكرة الرئيسية لحرب الشبكة المركزية حسب هذا النموذج التفسيري الأساسي، هي تحسين فاعلية الوحدات العسكرية في ميدان المعركة عبر زيادة كفاءة المجموعة والتجميع والتحليل والتواصل للبيانات القيّمة والمهمة من عدد كبير من جامعي المعلومات: 'مدعومة بالمعرفة المستمدة من الوعي المشترك بساحات المعارك والفهم المشترك لنيات القادة' يمكن لقواتنا أن تكون قادرة على المزامنة الذاتية، والعمل في مساحة ضيقة وأن تكون أكثر فعالية عند العمل بشكل مستقل.

وبينما عرّف الخبراء العسكريون الروس حرب الشبكة المركزية بطريقة مشابهة لنظرائهم الأمريكيين، فالأمر مماثل لما قام به دوجين لكن بشكل أوسع، وهكذا فبينما ادعى المفكرون العسكريون الروس

والأمريكيون ببساطة أن تبني مفاهيم حرب الشبكة المركزية في العمليات العسكرية يزيد من فعالية القوات المنتشرة، قال دوجين أن حرب الشبكة المركزية نتجت من تحولات أوسع، فالشبكة نفسها ظاهرة جوهرية ومطلقة، وتطوُّر يُبَدّل بين الصورة الانثروبيولوجية[94] للعالم. ولذا يجب أن لا يقتصر تحليل حرب الشبكة المركزية على المجال العسكري، ولم يحصر دوجين تفسيره لحرب الشبكة المركزية على الجانب العسكري، فتعريفه للشبكة يمتد كثيراً خارج نطاق ما له صله بالعمليات العسكرية بحد ذاتها، ويقول في كتاباته: '**الشبكة هي البعد المعلوماتي الذي يمكن من خلاله تطوير عمليات رئيسية استراتيجية، بما فيه الإعلام والدبلوماسية والاقتصاد والدعم التقني**'، **وتتضمن عناصر عديدة كانت تُعتَبَر منفصلة في السابق، مثل: 'الوحدات العسكرية وأنظمة الاتصالات والدعم المعلوماتي العملياتي وتوجيه الرأي العام والتدابير الدبلوماسية والعمليات الاجتماعية والمخابرات ومكافحة المخابرات المعادية وعلم النفس العرقي والأديان والميول الجمعيّة ودعم الاقتصاد والأروقة الأكاديمية والاختراعات التقنية... إلخ**'. ويقول دوجين بناءً على نموذجه التفسيري الذي يعتمد على **تقسيم عام للحضارة الانسانية الى ثلاث فترات هي الفترة الزراعية، الفترة الصناعية، الفترة المعلوماتية (ما قبل الحداثة والحداثة وما بعد الحداثة)**: أن الشبكة هي السمة الرئيسة للحقبة المعلوماتية المعاصِرة، وأن نظرية حروب الشبكة المركزية ما هي إلا انعكاس لاعتبارات مهمة للتطورات في مرحلة ما بعد الحداثة في ميدان العلوم العسكرية. ولذا فحسب دوجين بقيت أهداف حرب الشبكة المركزية مشابهة لتلك في الحروب التقليدية: 'فرض السيطرة على منطقة ليست بحوزة الطرف المقاتل، أو الاستمرار بالسيطرة على منطقة بحوزة الطرف المقاتل لمنع زحف العدو'، لكن الحقائق الجديدة خلقت فهماً جديداً تماماً عن ما هي 'المنطقة' وماذا تعني السيطرة ومن هو العدو في حرب الشبكة المركزية، والواقع ليس أولوية في علاقته بالواقع الافتراضي، والصورة أهم من الحقيقة، والحقيقة نفسها تُمسي حقيقة فقط بعد تقارير عنها

[94] الانثروبيولوجيا هي العلم الذي يدرس البشر والتصرفات البشرية والمجتمعات في الماضي والحاضر، ونماذج الدراسات الانثروبيولوجية الاجتماعية لأنماط السلوك والمعنى الثقافي بما في ذلك الأعراف والقيم، وتتناول الانثروبيولوجيا اللغوية الكيفية التي تؤثِّر بها اللغة على الحياة الاجتماعية.

تَظهَرُ في الأبعاد المعلوماتية، ولذا فالعامل الرئيسي هو السيطرة على البعد المعلوماتي، **فمن يسيطر على البعد المعلوماتي يسيطر على كل شيء**، والدعم المعلوماتي للحرب لا يتوقف عند كونه عامِل دعم ثانوي (كما كانت الحملة الدعائية التقليدية)، لكنه يصبح سبب وجود الحرب، فالحرب في جوهرها باتت معلوماتية، حيث العمليات العسكرية تلعب دوراً ثانوياً فحسب.

الخاصية الأولى التي تميّز حروب الشبكة المركزية في حقبة ما بعد الحداثة عن الحروب التقليدية (الحديثة) هي المنطقة التي تُشَنُّ فيها الحرب، وحسب دوجين فهذه المنطقة ليست محسوسة ومحددة الحدود بدقة، بل بُعْدٌ افتراضي أوجَدَتهُ وقدّمَته شبكة من الميول المعلوماتية المترابطة، وفي حروب الشبكة المركزية لا يكون الاحتلال أو ضم المناطق مطلوباً، لأن فرض السيطرة على الشبكة سيكون كافياً، للسيطرة على الاعلام الجماعي والأدوات المالية والوصول الى التقنيات والنخب السياسية والثقافية ومراكز الشباب الناشطين. **بمعنى:** بما أن الشبكة ظاهرة اجتماعية متمثّلة في البعد المعلوماتي، فحرب الشبكة المركزية تكون عندما يحاول طرف سياسي فاعل (ليس بالضرورة بوسائل عسكرية) أن يسيطر على شبكة أقوى وأوسع، مما يقوّض شبكة العدو وفي نفس الوقت يحمي شبكته من هجوم العدو.

الخاصية الثانية المميِّزة لحرب الشبكة المركزية هي –حسب دوجين– الطريقة التي يمكن أن تتم بها السيطرة على الشبكة، أو بالأحرى كيف يمكن خوض مثل هذه المعركة، رغم أن العامل الأهم في تحديد الشبكة هو المعلومات، وبما أن كمية المعلومات القابلة للوصول متزايدة باستمرار، **فالهدف الرئيسي للأطراف المنخرطة في حرب الشبكة المركزية ليس السيطرة على المعلومات نفسها بل التحكم والتلاعب بطبيعتها، فبالتحكم بكيفية وماهية المعلومات التي تتوافر وتتجمّع وتُصاغ يمكن للخبراء في استراتيجيات الشبكة أن يعطوا حتى المعلومات السيئة والخطيرة جداً دوراً معاكساً تماماً، فيجعلونها أقل أذىً أو يتجنبون تأثيرها.** بما أن جوهر السيطرة في حرب الشبكة المركزية لا يتعلّق بالبعد المادي بل بالبعد المعلوماتي (الافتراضي)، فالدور الرئيسي هو لكيفية صياغة

المعلومات وتفسيرها وبنائها وتقديمها بحيث تحسّن من القدرة على السيطرة على الشبكة المركزية الصديقة، وفي نفس الوقت تقوّض قدرة العدو على السيطرة على شبكته.

الخاصية الثالثة المميّزة لحرب الشبكة المركزية من المنظور الامريكي وبالذات طبيعة وهويّة العدو، وبما أن طبيعة الشبكة ديناميكية جداً ومرنة، وبما أن حلفاء اليوم يمكن أن يصبحوا أعداء الغد (والعكس بالعكس) فعملية التفريق بين العدو الصديق في هذا النوع الجديد من الحروب، مؤقت للغاية، ولذا تُشنُّ عمليات حروب الشبكة المركزية على الجميع على قدم المساواة، مما يشكّل النموذج السلوكي للأصدقاء المثاليين والأطراف المحايدة والأعداء في مواقف السلم والأزمة والحرب, ويؤدي هذا في النهاية لصورة أكثر ديناميكية للعدو، الذي يمكن تحديده وفقاً لمعايير افتراضية أكثر من المعايير المادية. وبالإضافة الى ذلك: بما أن حرب الشبكة المركزية هي بُعد معلوماتي (افتراضي) فيمكن أن تُخاض ضد عدو افتراضي (خيالي) حتى وإن كانت عواقب مثل هذه الحرب مادية تماماً:

تمثّل القاعدة والإرهاب الدولي قوة عابرة للحدود لا يمكن تعقّبها، تحت تعريف يمكن من خلاله توصيف حقائق مختلفة للغاية: فتارةً هي طالبان في أفغانستان (التي ترتبط بدرجة معينة بالحركات السلفية لـ 'الاسلام النقي' مثل تنظيم اسامة بن لادن)، وتارة أخرى هي عراق الحسين (وهذه لها أيديولوجيا أخرى ولا صلة لها بالقاعدة) وتارة شيعة إيران (وهم معادون سياسياً ودينياً وعقائدياً وتنظيمياً للقاعدة).

أي أن هذه النماذج من المواجهة تركّز على السيطرة على عملية تجميع المعلومات ذات الصلة بمجموعات نشطة (أي الشبكة) وتفسيرها وحل شيفرتها والتلاعب بها في محاولة لتحقيق أهداف سياسية معينة.

ويشير دوجين الى الطرق المختلفة للسيطرة على الأنواع المختلفة من الشبكات في حرب الشبكة المركزية كالتالي:

النوع الأول هو ’الشبكة الطبيعية‘ وتتكون من الأقليات العرقية والدينية (والى حدٍ ما الجنسية)، وعادة ما تفتقر هذه الجماعات الى وضع سياسي رسمي بحكم الواقع وليس بحكم القانون، بما يسمح لهم بالتصرف دون جذب انتباه القانون والإجراءات القانونية، وبما أن ممثلي هذه الجماعات من المنظور القانوني مواطنون عاديون، تماماً مثل أي شخص آخر، وعادة يطلبون عدم التسجيل كممثلين لجماعتهم ليحافظوا على اتصالات شبكتهم، وتكون هذه الجماعات عموماً غير قادرة عادة على تحقيق أهداف استراتيجية هامة بشكل مستقل، **ومع ذلك ففي حرب الشبكة المركزية فهم الهدف الأول والرئيسي لممثلي القوى الأجنبية السياسية، الذين يحاولون إنشاء شبكتهم وتقويض شبكة النظام القائم، عبر التأثير والتلاعب بهذه الجماعات:** ’يمكن عبر الاستثمار في جذب الانتباه والمهارات التقنية للاعبين مهمين في هذه الشبكات تحقيق نجاحات باهرة‘. **والطريقة الثانية** لتأسيس شبكة قادرة على تسهيل التدفق المطلوب من المعلومات يكون عبر إيجاد **’شبكات مصطنعة‘**، من شأنها إتمام الشبكات الطبيعية، ويشير دوجين بمصطلح الشبكات المصطنعة الى منظمات غير حكومية مختلفة مثل حركات حقوق الانسان والشركات غير التجارية والمبادرات التعليمية ومراكز دعم الأنشطة البحثية، والشبكات الأكاديمية والاجتماعية، والمنظمات العامة.. إلخ. وبما أن هذه المنظمات غير الحكومية تتصرف عموماً بطرق تحترم القانون، فمن الصعب أن تعرف متى تتصرف كعميل أجنبي ومتى تسهّل وتروّج المعلومات المبنيّة على أساس قيم الشبكة الأجنبية وتقوّض الشبكة الموجودة. وهذان النوعان من الشبكات (الطبيعية والمصطنعة) يقودان الى **الطريقة الثالثة** لتشكيل التدفق المطلوب من المعلومات، وهي تشكيل **’عملاء التأثير‘**. من المهم ملاحظة أنه في تفسيرات دوجين يفقد هذا المصطلح معناه التقليدي (أي تجنيد العملاء أو تلقينهم ما يقولون) ويشير الى ظاهرة أوسع، وخصوصاً أي جهة سياسية فاعلة تقدّم معلومات أو تسهّل استخدامها لتحسين الشبكة، وعملاء التأثير هؤلاء يَضُمّون في صفوفهم هؤلاء الذين يروّجون لقيم ومصالح الشبكة الأجنبية عن عمد (بسبب معتقدات ايديولوجية أو لمصالح أخرى) أو سراً (دون معرفة أن المنظمة التي هم جزء منها تُشكّل شبكة أجنبية)، ورغم هذا فعملاء التأثير هؤلاء ربما لا

يَضُمُّون أولئك الذين يروّجون قيم الشبكة الأجنبية ويدافعون عنها فقط بل أولئك الذين يرفضونها علناً *"مثل عملية الإبحار: فيمكن للمركب أن يتقدم للأمام رغم الرياح التي تواجهه، وذلك عبر حصر التأثير على أعمال معينة وتجميع بقية الأعمال معاً في عرض دقيق ومتزامن للمعلومات"* وبالعودة الى مثال تنظيم القاعدة الذي تم الاستشهاد به آنفاً، فقد أصبح بن لادن عميلاً مؤثراً مهماً رغم معارضته القيم الغربية، حيث استُخدِمَت صورته وأفعاله بمهارة في البعد المعلوماتي، لتحسين الشبكة الغربية وليس تقويضها. **والطريقة الرابعة** والأخيرة لتأسيس الشبكات والتأثير فيها بغية تسهيل وتوجيه التدفق المطلوب من المعلومات: هي **عملية العولمة**، ففي الحقيقة يقدّم إدراج موارد الاقتصاد والطاقة والاعلام والأكاديمية لدولة ما في الشبكات العالمية ميزة تلقائية لأولئك الذين يتحكّمون في الكود والبروتوكول وخوارزمية عمل سير هذه الشبكات، بينما تُقَدَّمُ العولمة في البعد الاعلامي كعملية موضوعية إيجابية وتقدميّة تؤدي الى التطوير والتحديث، وفي الحقيقة يقول دوجين إنها *'تزيد مخاطر تأسيس سيطرة خارجية فالمصممون الذين وضعوا وتحكموا في هذه الشبكات العالمية في وضع ذا أفضلية كبيرة على أولئك الذين يتّصلون بها'* ، ويمضي دوجين قدماً فيقول:

"إن العولمة ومؤسساتها النشطة مثل: منظمة التجارة العالمية وصندوق النقد الدولي والبنك العالمي وغيرها، هي واحدة من الطرق التي يَشُنُّ فيها المساهِمون الأقوياء في العملية العالمية (أوّلهم وفي مقدمتهم الولايات المتحدة) حرب شبكة مركزية ضد الأطراف الأضعف منهم". وهذا يؤدي الى المكوِّنات الفكرية لمفهوم دوجين التفسيري لحرب الشبكة المركزية، فهذا النوع الجديد من الحرب حسب دوجين تطوَّرَ وتبلور على يد الولايات المتحدة، ويقول بأن الغرض الأساسي من حرب الشبكة المركزية التي تشنها الولايات المتحدة هو فرض سيطرة تامة ومطلقة على كافة المساهمين في الأنشطة العسكرية الفعلية والمحتملة، وعلى كامل مناوراتهم في كافة المواقف، عندما تُشَنُّ الحرب أو عندما تنضج أو عندما يحل السلام. ويجب انجاز هذا –بحسب دوجين– بالفوز بالسيطرة المطلقة على البعد الاعلامي (المعرفي)، فكما قلنا من قبل: الإعلام له دور عظيم الأهمية إن لم

يكن دوره مركزياً في حرب الشبكة المركزية، مما يخلق معظم البيئات السائدة في حروب الشبكة المركزية، التي تطورت الى ميدان مستقل: "مجال المعلومات" ويُعتَبَرُ منفصلاً ونظيراً للأبعاد المادية. **على سبيل المثال: واحدة من أهم أغراض حرب الشبكة المركزية الامريكية –حسب دوجين– هو أن يغرس في كل عقل أن المنافسة العسكرية مع الولايات المتحدة عديمة الجدوى ويجب تجنبها بأي ثمن، ومن خلال البعد الاعلامي، يقول دوجين** *"ان واشنطن عكفت على السعي لبناء نظام لسيطرة الولايات المتحدة عالمياً على كامل العالم، أي تنفيذ الصيغة الجديدة للاستعمار والإخضاع، في مرحلة ما بعد الحداثة تحت ظروف جديدة في أشكال جديدة وأساليب جديدة، فلا حاجة للاحتلال المباشر، أو انتشار كبير للقوات أو انتزاع المناطق، فالشبكة سلاح أكثر مرونة، إذ تَستَخدِمِ العنف والقوة العسكرية في الحالات العصيبة فقط، بينما تحقق النتائج الرئيسية عبر التأثير المرحلي لمجموعة كبيرة من العوامل: الاعلامية، الاجتماعية, الفكرية....إلخ."*

يقول دوجين بما أن التحول الى عصر ما بعد الحداثة (أي ما بعد الصناعة والاعلام) كان بقيادة الولايات المتحدة، فإنها وبدءاً من أواخر سبعينيات القرن الماضي أخذت في انتهاج اسلوب حرب الشبكات، وكان الاتحاد السوفياتي هدفها الأول في هذه الحرب الجديدة، ويقول دوجين:

"لا تستطيع الولايات المتحدة ضرب الاتحاد السوفيتي لا في مواجهة مباشرة ولا في معركة ايديولوجية، ولا بأي طريقة مباشرة للقتال بين أجهزة الامن، وبالتالي اُستُخدِمَ المبدأ الأساسي لاستراتيجيات الشبكة: التسلل الاعلامي والتركيز على إيجاد نقاط الضعف وعوامل الانهيار الحتمي الغامضة في التسلسل الهرمي السوفياتي، لم يُهزم الاتحاد السوفياتي بقوة معادية ولا بتنظيمات معادية وإنما عبر إحداث قدر معين من الفوضى وإعداد هذه الفوضى بعناية وجعلها متنقّلة والمناورة بها".

بما أن سقوط الاتحاد السوفياتي كان نتيجة لهزيمته في حرب الشبكة المركزية التي شنها الغرب (وعلى راسهم الولايات المتحدة) فقد وصل الاختراق الغربي للمجتمع الروسي ضمن حرب الشبكة

ذروته في التسعينيات، وخلال تلك الفترة دمج الغرب بنشاط المجتمع والاقتصاد والمجتمع الأكاديمي الروسي والمجموعات المؤثرة الاخرى في شبكته، ويدرج دوجين هؤلاء على النحو الآتي:

النظام المالي، الاقتصاد (من خلال الأقليّات)،

النخب السياسية (من خلال افكار الليبرالية ومؤيدي الغرب)،

الاعلام (من خلال استنساخ المسلسلات والبرامج الغربية).

معايير التعليم (من خلال تقليد أنظمة التعليم الغربي وتبني مناهج تعليمية كُتِبَت في الغرب أو وفقاً للقيم الغربية).

المؤسسات العلمية (عبر نظام لتصدير العقول أو تقديم المِنَح الغربية).

البيئات الشبابية (عبر الموضة والصور والانترنت).

وأدى ارتباط هذه المجموعات بالشبكة الغربية (الامريكية) –على حد قول دوجين– الى وضع الاقتصاد والسياسة الروسية تحت السيطرة الاجنبية اعتباراً من أواخر التسعينات، إضافة الى السلبية وقلة الكفاءة الفكرية للقيادة السياسية العليا، التي وضعت الدولة على حافة الانهيار. ويقول دوجين إن هذا تَغَيَّرَ مع وصول فلاديمير بوتين الى السلطة، إذ بدأ على الفور باستعادة السيادة على الشبكات الروسية التقليدية، وبالتالي تقويض تأثير الشبكة الغربية على روسيا، وكتب دوجين:

عزل بوتين وَحَيّدَ أخطر أجزاء الشبكة الاطلسية: الأقليات، الليبراليون المؤيدون للغرب، مروجو المصالح الامريكية، المنظمات غير الحكومية، ممن انخرطوا بشكل مباشر في أنشطة التجسس. فكك بوتين العمليات التخريبية بما فيها الأقليات العرقية بجعل تعاونهم مع الحكومة أكثر جاذبية، وبالتالي إعادة الشيشان الى الملفات الروسية.

ورغم تقييمه الايجابي لأعمال بوتين، إلا ان دوجين يستنتج أن هذه الأعمال ليست نتيجة لاستيعاب مفهوم الشبكة ونظرية حرب الشبكة المركزية، بل نتيجة لحصانة بوتين ضد تأثير الشبكة الغربية، وبالتالي فقد وُجِّهَت هذه الأعمال بالحدس أكثر منها بالخطط المطوَّرة بوعي. ولذا فعلى الرغم من نجاح بوتين في التغلب على أكثر مراحل حرب الشبكة المركزية التي يشنها الغرب ضد روسيا في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين حرجاً قال دوجين:

فلم تُجتَث أيٌ من بُنَى الشبكة الغربية، التي كانت ومازالت تعمل على الأرض الروسية تماماً، كما أن التقنيات تطوّرت وجُرِّبَت طوال الوقت، وبعض المهارات في شن الحملات الاعلامية (أي عمليات الشبكة المركزية)، نحن (في روسيا) تعلّمنا من العدو ونحن الآن نستفيد مما تعلّمناه، لكن لا شيء يبقى كما هو، وإن كان علينا أن نبطئ من حرب شبكتنا نيابة عن أوراسيا فقد يعود الوضع الحَرِج مجدداً.

وهكذا، وباختصار فالغاية من حرب الشبكة المركزية هي التأثير على الشعب والتوجُّهات والمؤسسات والمنظمات وغيرها ممن تُشَجِّعُ عن وعي أو عن غير وعي مجموعة معينة من الأفكار في محاولة لتحقيق غايات سياسية معيّنة، وكانت الولايات المتحدة أول من أتقن هذا النوع الجديد من الحرب، فشنت حروب شبكة مركزية على كافة البلدان والأمم عبر التلاعب بعملياتها الاجتماعية من الداخل، وبالتالي انتصرت في المواجهات المادية قبل بدئها. لذا يقول دوجين: إن لم تُخْضِع روسيا مؤسساتها السياسية وأنظمتها الإعلامية والمتعلقة بالاتصالات والمخصصة لمواجهة حرب الشبكة المركزية؛ لعملية انتقال الى عصر ما بعد الحداثة فإنها وبلا شك ستخسر هذه الحرب يقيناً. وحسب دوجين فقد شنت الولايات المتحدة بإصرار وحَذَرْ هجوماً مُخَطَطَاً بعناية على روسيا في ميدان الإعلام كجزء من استراتيجية الولايات المتحدة للهيمنة على العالم في عصر إعلام ما بعد الحداثة، وشُنّت هذه الحرب ضد روسيا عبر شبكة مُخْتَرِقَةٍ جداً تضم حسب دوجين:

خبراء من اللوبي المؤيد للولايات المتحدة، علماء في السياسة، محللين، وتقنيين مقربين من السلطات الروسية، وعدد كبير من المؤسسات الأمريكية التي تعمل بنشاط لربط النخب الفكرية

بشبكتهم، ويندمج ممثلو العاصمة الروسية وطبقة كبار الموظفين بالعالم الغربي بشكل طبيعي، حيث يحتفظون بأرصدتهم المالية في تلك البلدان. وتُبنى وسائل التواصل الجماعي التي تُبهِر القرّاء والمشاهدين بوابل من المعلومات البصرية واللغوية وفق النموذج الغربي.

وللصمود في وجه هذا الهجوم، يقول دوجين إن على روسيا أن تتبنى "النموذج الاوراسي" عبر اتخاذ موقف النظير للنموذج "الامريكي الاطلسي"، مما يخلق شبكتها الخاصة التي ستتجه في الاتجاه المواجِه تماماً: *"سيكون بوسعنا الدفاع عن روسيا، والحفاظ على اوراسيا كدعامة لعالم متعدد الأقطاب، فقط عبر البقاء متيقظين ومستعدين لخوض حرب الشبكة المركزية (التي تُشَنُّ علينا على كل حال) وبالتالي ننتصر في الحرب".* هذه الشبكة الاوراسية التي يمكن أن تُوَفِّر استجابة لمتطلبات البعد الاعلامي، يمكن أن تُبنى على: "مجموعات خاصة يمكن أن تضم مسؤولين كبار وأكثر أفراد أجهزة الأمن الخاصة المختلفة تعاطفاً والمفكّرين والعلماء والمهندسين والعلماء السياسيين وفِرَق من الصحفيين من ذوي الاتجاهات الوطنية والناشطين في مجال الثقافة".

لم يتبنى المجتمع العسكري الروسي نموذج دوجين التفسيري لحرب الشبكة المركزية، لكن تبنَّى أفكارَه عدد كبير من العلماء السياسيين الروس ممن انجذبوا لتفسيره للصراع بين الشرق والغرب (وفي هذه الحالة؛ المواجهة بن روسيا والولايات المتحدة). ومنذ أن أعلن دوجين أفكاره عام 2007 استُخدِمَ مفهومه لحرب الشبكة المركزية لتفسير الأحداث الجيوسياسية المختلفة في حقبة ما بعد الاتحاد السوفياتي وعلى مستوى العالم ككل، بطريقة كما لو أنهم مُساهِمون في حرب الشبكة المركزية ذاتها التي تشنها الولايات المتحدة للهيمنة على العالم، وقبل كل شيء لهزيمة روسيا.

إيغور باناريِن: نظرية حرب المعلومات:

إيجور نيكولافيش باناريِن حائز على شهادة الدكتوراه في العلوم السياسية والدكتوراه في الفلسفة، وهو عضو تام العضوية في الاكاديمية العسكرية للعلوم في الفيدرالية الروسية، كما شغل العديد من المناصب الاستشارية والتنسيقية العليا في النظام السياسي الروسي، ومنذ منتصف التسعينات نشر

بانارين أكثر من عشرين كتاباً ومئات المقالات والتعليقات والمقابلات، تركِّز معظمها على الجوانب النفسية للحرب بشكل عام، وعلى حرب المعلومات بشكل خاص، وفي حين يركّز دوجين بالدرجة الأولى على القتال بين الغرب وروسيا من منظور حرب الشبكة المركزية التي تحدُثُ في البعد الاعلامي، يركّز بانارين بدلاً من ذلك على ما يسميه "حرب المعلومات "كميدان رئيسي للصراع".

ومنذ القِدَم تعتمد الأنظمة السياسية في أي بلد في استقرارها على قدْرِ سرعة واكتمال النخب السياسية التي تتلقى المعلومات (عن الخطر الداهم مثلاً) وعلى السرعة التي يستجيبون بها، فالنشاط السياسي بالتعريف: هو صراع إعلامي للسيطرة على عقول النخب وجماعات المجتمع الأخرى.

وفي تحليله لتاريخ الحرب، يزعم بانارين أن البعد الاعلامي لعب باستمرار دورا حاسماً في الصراع الانساني، فيقول بانارين إن الحرب الاعلامية هي:

نوع من المواجهة بين أطراف، وتتمثل باستخدام طرق خاصة (سياسية واقتصادية ودبلوماسية وعسكرية وغيرها) تعتمد على أساليب ووسائل تؤثّر على البيئة الاعلامية للعدو، وفي نفس الوقت تحمي بيئتهم، لتحقيق أهداف محددة بوضوح، لذا فالأبعاد الرئيسية لشن مواجهات اعلامية نفسية تكون سياسية، ودبلوماسية ومالية واقتصادية وعسكرية.

ومن المهم الانتباه الى أن بانارين عند ذكره هذه الأبعاد، لا يشير الى أنشطة سياسية أو دبلوماسية أو مالية اقتصادية أو عسكرية مباشرة، وإنما الى تلاعب بصورها الاعلامية للسيطرة على الرأي العام المستهدف للوصول في النهاية لتحقيق فوائد سياسية معينة، ويمكن الوصول الى هذه السيطرة عبر التلاعب الاعلامي والتضليل الاعلامي واختلاق المعلومات الزائفة وممارسة الضغوطات والابتزاز أو أي طرق أخرى متاحة للحصول على المعلومات المطلوبة، أو ببساطة مجرد إنكار المعلومات التي ينشرها العدو، وهكذا عندما تَشُنُّ دولة ما حرباً إعلامية ضد دولة أخرى يقول بانارين إنها: *"تهدف للإخلال بتوازن القوى وتحقيق التفوق في ميدان الإعلام العالمي"*، عبر

استهداف *"عملية صنع القرار لدى العدو"* عبر التلاعب بالرأي العام الدولي والعام. ولتوضيح هذه النقطة في نموذج بانارين التفسيري للحرب الاعلامية، من الضروري تقديم المزيد من التعريفات التي يستخدمها مؤيدو هذا المفهوم الآخرون، فيقول البروفيسور يوري جريجور إن حروب المعلومات هي:

أعمال غير عنيفة موجّهة لتغيير أو تدمير ميدان المعلومات المشتركة في دولة العدو، والهدف من الحرب الإعلامية ليس تدمير الشعب، بل استبدال متغيرات معيّنة كثيرة تهيمن على جزءٍ مُعتَبَر من المواطنين لدرجة تسقط معها هذه المتغيرات من ميدان المعلومات الجمعيّة للوطن، وبالتالي إجبار هؤلاء المواطنين على البدء بتنظيم أنفسهم بشكل كيانات معارِضَة.

ويقدِّم البروفسوران فلاديمير ليسيشكين وليونيد شلفنا مثالاً آخر فيقولان "إن الحروب الاعلامية تُشَنُّ عبر تأثير مباشر للوعي العام، على نفوس الشعب، والهدف الرئيسي هو إجبار الجماهير على التصرف وفق الاتجاه المرغوب، حتى ولو كان ضد مصالحهم العامة، وفي معسكر تقسيم الناس ووقوفهم ضد بعضهم".

أي أنه بحسب بانارين ومعتنقي نظريته الآخرين، الحرب الاعلامية تهدف بالدرجة الأولى لتخريب قوة العدو السياسية عبر السيطرة والتلاعب بالميول الاعلامية التي تصوغ أفعال النخبة عموماً، والرأي العام على وجه الخصوص.

ويعرّف بانارين ثلاث مراحل رئيسية من حرب الاعلام، **الأولى:** تحليل سياسي استراتيجي يتضمن "تجميع وتبادل المعلومات عن الاعداء والحلفاء بهدف القيام بأعمال نشطة"، و**الثانية:** التأثير الاعلامي مبني على فلترته من التعليقات السلبية والتضليل في المجال الاعلامي للعدو، وكذلك إخماد محاولات العدو للحصول على المعلومات التي يريد، وأخيراً **المرحلة الثالثة:** الدفاع الاعلامي ويتضمن "حظر المعلومات المضللة التي يسرّبها العدو". وهكذا فحسب بانارين، تستهدف الحرب الاعلامية عقول النخبة وعموم السكان للتأثير على الرأي العام وبالتالي التأثير على عملية صنع

القرار لدى الجانب الآخر، وبينما يحدد دوجين أنواعاً مختلفة للشبكات التي تلعب دوراً أساسياً في حرب الشبكة المركزية، فإن بانارين يستخدم مصطلح "الغرض الاجتماعي" للإشارة الى ظاهرة مشابهة. **وحسب بانارين فالأغراض الاجتماعية هي الأهداف الرئيسية للحرب الاعلامية**، سواء كانت جماعات من الأفراد أو جماعات اجتماعية، وهم "مجموعات مستقرة نسبياً من الناس المتواجدين في نطاق المجتمع المحدد تاريخياً".

ويحدد بانارين ثلاث أنواع مختلفة من المكوِّنات الاجتماعية: الكبيرة والمتوسطة والصغيرة، الأولى: "الجماعات الاجتماعية الكبيرة" هي مجموعات من الناس في المستوى المستقر، مثل طبقات اجتماعية مختلفة، وجماعات الحِرَفيين وهلمّ جرّاً، وبينما لا تحتاج هذه الجماعات اتصالاً مباشراً بين أفرادها فهي مسؤولة عن تطوير "الأعراف السلوكية والأخلاق الروحية والقيم والتقاليد". الثانية: "المكونات الاجتماعية المتوسطة" فهي جماعات مختلفة من الناس ممن لديهم جمعيات أكثر تحديداً، مثل المؤسسات التجارية والصناعية والتنظيمات والوحدات العسكرية والمؤسسات الأكاديمية أو المواطَنَة في مدينة أو حي. وعلى الرغم من أن بعضاً من هذه الجماعات قد يكون لديها شبكات تواصل محددة بوضوح وخاضعة للسيطرة (مثل البنوك والمنظَّمات والوحدات العسكرية) إلا أن بعضها قد لا يكون كذلك، فقد تكون تلك التجمعات أكثر عفوية (مثل: حي سكني)، **وتكمن أهمية "الجماعات الاجتماعية المتوسطة" –حسب بانارين– في دورها كصلة وصل للاتجاهات الدولية بين المكونات الاجتماعية الكبيرة وتلك الصغيرة**. والجماعة الأخيرة هي "المكونات الاجتماعية الصغيرة"، التي يعرّفِها بانارين على أنها "مجموعات من الأفراد، يتواصلون مع بعضهم مباشرة، مثل الأسرة أو الوحدة العسكرية الصغيرة، الأعمال الصغيرة، شركة, الجيران والاصدقاء". وتتبني تفاعلات المعلومات ضمن كل جماعة بناءً على تأثير البيئة الخارجية، إضافة الى تأثير العلاقات الخارجية، ومن المهم فهم التقسيم المفاهيمي –فحسب بانارين– لا تُحَدَدُ عمليات التأثير النفسي الاعلامي بالأهداف السياسية فقط " بل بهدف التأثير العالمي (الجماعات الاجتماعية الكبيرة والمتوسطة والصغيرة ضمن بلد واحد، أو ضمن دول صديقة أو محايدة أو عدوُّة).

ومثل دوجين فأفكار بانارين مستوحاة من عدائه للغرب، وحسب رأيه فقد هيمن الصراع بين الحضارتين الرئيسيتن, ذات التوجه البحري من جهة (الامبراطورية البريطانية والولايات المتحدة) وذات التوجه القارّي من جهة ثانية (أوراسيا: ألمانيا وروسيا) على الوضع الجيوسياسي، على الرغم من أن هذا الصراع عبّر عن نفسه عدة مرات في صيغة اشتباكات مادية ملموسة (أي الحروب)، إلا أنه كان على الدوام مصحوباً بالحرب الاعلامية قبل وأثناء وبعد الحروب. كما يقول بانارين أن الغرب كان قادراً على الهيمنة على الحرب الاعلامية في القرن العشرين، وهو ما أدى في نهاية المطاف الى انهيار الاتحاد السوفياتي، منذ أن أصبح الأثر الرئيسي للدمار الجيوسياسي عام 1991 هزيمة في الحرب الاعلامية، التي استمرت لـ48 سنة. **وحسب تفسير بانارين للحرب الباردة، فالهجوم الاعلامي الرئيسي للولايات المتحدة كان بهدف المساومة وزعزعة استقرار النخبة السياسية السوفيتية عبر استهداف أضعف عنصر في المؤسسة السياسية السوفيتية وهو (انتقال السلطة).** وبالإشارة الى مقال جورج كينان[95] الشهير: "مصادر السلوك السوفيتي" يقول بانارين: *"إن كينان نجح في إيجاد أضعف نقطة في الاتحاد السوفيتي وهي: مشكلة انتقال سلس للسلطة من شخص متفرد أو مجموعة من الأشخاص لمجموعة أخرى، وهكذا كان كينان الذي عاش في روسيا للعديد من السنوات هو مَن حددَ بدقَّة اتجاه الهجوم الرئيسي للحرب الاعلامية ضد الاتحاد السوفياتي".*

ولذا –حسب بانارين– انهار الاتحاد السوفياتي بسبب عدم احتراف المؤسسة السياسية والعسكرية السوفيتية، أكثر منه استغلال الولايات المتحدة الماهر لميدان الاعلام، وعلى حد تعبيره كانت اللجنة المركزية للحرب الشيوعية والكي جي بي تتصرفان بنفس الطريقة، فعلى الرغم من أن النيات الحقيقية للعدو في الصراع الاعلامي الايديولوجي كُشِفَت إلّا أن الاجراءات المضادة لم تكن

[95] جورج فروست كينان (1904–2005) دبلوماسي أمريكي ومؤرخ، واشتُهِر بأنه من دعاة سياسة احتواء التوسع السوفياتي خلال الحرب الباردة، وله محاضَرات كثيرة، وكتب تاريخاً علمياً للعلاقات بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة.

كافية، وبما أن أحداً لم يُعِدَّ خبراء في اجراءات المواجهة الاعلامية، فقد فشلت الوكالات الخاصة السوفيتية في منع انهيار الاتحاد السوفيتي.

كما أنه يقول أيضاً أن هذه الحرب لم تنتهِ بانتهاء الصراع بين النخب السياسية للغرب مع روسيا سنة 1991، فمنذ أن تواصلت الحرب الاعلامية لتكون الأداة الرئيسية في السياسة العالمية، والطريقة السائدة لتحقيق مكاسب سياسية واقتصادية في القرن الحادي والعشرين، واصل السياسيون الغربيون –وفقاً لبانارين– استهداف روسيا في ميدان الاعلام. ولتجنب تكرار هزيمة الاتحاد السوفياتي في حرب الاعلام يطرح بانارين: أن "وجود روسيا يعتمد على فيما إن كانت النخبة السياسية الجديدة ستُشَكَّل بحيث تكون شغوفة بالاستجابة بكفاءة للتحديات العالمية في القرن الحادي والعشرين، وهذه النخبة الجديدة "كما يؤكد" يجب أن تعتمد على المفكرين المتشرّبين بالفنون والعلوم الليبرالية، وعلى القيادة العليا لأجهزة الأمن والجيش أيضاً، الى جانب ممثلي رأس المال الكبير والمتوسط. والهدف الاستراتيجي من هكذا نخبة يجب أن يكون تشكيل رأي عام عالمي إيجابي عن روسيا:

فقط نخبة سياسية روسية جديدة، قادرة على التصرف في المواجهة الاعلامية الجيوسياسية، يمكنها أن تخلق ظروفاً ملائمة للتطور والرخاء للأفراد والمجتمع والدولة، وتحقيق مصالحه القومية والاقتصادية على الحَلَبَة العالمية."

ويسلِّم بانارين بأن تشكيل هذه النخبة السياسية، الى جانب التطورات في البنية التحتية التنظيمية المطلوبة؛ ستستغرق وقتاً طويلاً وستتطلب استثماراً مهماً، كما يطرح خطة مفصَّلة جداً لما يسميه "اتجاهات الاعلام الجيوسياسي لروسيا"، **أولاً** يجادل لتأسيس "نظام ذا معنى للإدارة" يمكنه تنسيق أنشطة الحرب الاعلامية في ميدان المال والسياسة الخارجية، "وتشملان أيضاً السياسة الخارجية والحملات الدعائية الاقتصادية"، ويمكن إنجاز هذا عبر التنسيق والتكامل بين السلطات ووسائل الاعلام الجماعية وأجهزة الأمن للمؤسسات الروسية الكبرى ووكالات الاستخبارات الاعلامية الحكومية لتنظيم عمليات الدفاع والهجوم الاعلامي (داخل روسيا وخارجها)، **والخطوة التالية**

"حسب بانارين" يجب أن تكون تنظيم تبادل متعدد الأوجه للمعلومات في إطار شراكة بين القطاع العام والخاص (أي إنشاء وكالة استخبارات خاصة لمعالجة مشكلات الحرب الاعلامية)، وهذه الوكالة ستنسق الجهود لمؤسسات تحليلية مختلفة وابلاغ قيادات الحكومة والمؤسسات الكبيرة، كما ستطوّر أيضاً "منهجية مفاهيمية وتشريعية وقاعدة منهجية لشن حرب اعلامية". كما يستنتج بانارين أن هذا لن يسمح لروسيا بشن صراع اعلامي استراتيجي في الميدان المالي والسياسة الخارجية فقط، بل أيضا يُعِدُّ النخبة التنفيذية العليا في البلاد (السياسية والاقتصادية والاعلامية والايديولوجية) للقيام بحرب اعلامية نشطة في ظروف الأزمات (الصراع المسلح، الصراع الاعلامي، الصراع الاقتصادي...الخ).

وعلى غرار مفهوم دوجين لحرب الشبكة المركزية، فجوهر حرب المعلومات عند بانارين مبني على رواية عِدَاء الغرب لروسيا، التي دفعت الشعب الروسي لتدمير البلاد مرتين في القرن العشرين (سقوط الامبراطورية الروسية سنة 1917 وتفكك الاتحاد السوفياتي سنة 1991). وكما يقول بانارين: *"أولا وقبل كل شيء يجب على روسيا أن تدرك أنها على مدى مئات السنوات كان المجال الايديولوجي الاعلامي هو الحلقة الأضعف في الحكم الروسي، مما أدى بالبلاد الى السقوط مرتين في القرن العشرين".*

وفي تشابه آخر مع دوجين الذي يدعم فلاديمير بوتين وجهوده لمواجهة حرب الشبكة المركزية الغربية التي تُشَنُّ على روسيا، يثمّن بانارين أعمال الرئيس في مواجهة "الحرب الاعلامية الغربية ضد روسيا"، ويقول بانارين: *"بينما بات بوتين هدفاً رئيسياً للحرب الاعلامية ضد روسيا عقب اعلانه لاتجاه روسيا الجديد (الذي يزعم أنه عقيدة اوراسيا الجديدة) ويدلّ على ذلك عودته الى منصبه بعد حملة انتخابية صعبة للغاية: نجحت قوى روسيا السيبرانية في منع تكرار الأحداث*

المأساوية لشهر شباط من عامي 1917 و1991[96] ،فانتصار بوتين يعني أن الشعب الروسي هزم العدوان الاعلامي الخارجي".

لقد أثبت هذا التنظير للحرب الاعلامية شعبيته في أوساط المجتمع الأكاديمي الروسي، منذ منتصف القرن العشرين، كُتِبَت الكثير من المقالات والكتب التي استخدمت مفاهيم وأفكار باناريين لتفسير العلاقة المتدهورة بين روسيا والغرب، زاعماً أن على روسيا أن تدافع عن نفسها ضد الهجوم الاعلامي الذي يشنه الغرب عليها، **ويمكن تلخيص نظريات دوجين وباناريين من خلال إبراز النقاط الخمسة المشتركة في هذه النظريات، أولاً- يقول كلاهما أن الغرب (الامبراطورية البريطانية أولاً ومن بعدها الولايات المتحدة) حاولتا باستمرار وبإصرار التدخل وتقويض النظام السياسي الروسي قبل وأثناء وبعد الحرب الباردة (أي كجزء من الصراع الداخلي للهيمنة). ثانياً- كانت الاستراتيجية الغربية الرئيسية هجوماً عالمياً استهدف كلاً من روسيا والرأي العام العالمي ويتلاعب بتدفق المعلومات في السياسة والدبلوماسية والاقتصاد المالي والشؤون العسكرية. والنقطة الثالثة هي الادعاء بأنه بالإضافة الى التلاعب بالمعلومات من الخارج، هدفت الاستراتيجية الغربية لخلق طابور خامس في روسيا في محاولة لتفكيك روسيا من الداخل. رابعاً في رد على هذه التهديدات القديمة الجديدة اختلف الباحثون بأن روسيا يجب تنشئ نخبة سياسية جديدة لتلبي الحاجة الوطنية لهزيمة "الحرب الاعلامية وحرب الشبكة المركزية الغربية"، مما يجعل روسيا مركز الثقل السياسي والثقافي والاقتصادي والعسكري للحضارة الاوراسية. وأخيراً- كل منهم يثمِّن انجازات بوتين في مواجهة "حرب الشبكة والحرب الاعلامية الغربيتين" التي تتمثّل في إعلاء شأن المشروع الأوراسي وإنشاء نخبة جديدة قادرة على الدفاع عن نفسها، إضافة الى نقل ميدان المعركة الى أرض الغرب.**

[96] الثورة الشيوعية سنة 1917 وانهيار الاتحاد السوفياتي سنة 1991.

صعود الحرب الهجينة الروسية:

كما في العديد من المفاهيم العسكرية الأخرى، بدأ الاهتمام الروسي بنظرية الحرب الهجينة بمراقبة الغرب، فأخذ المفكرون العسكريون والمحللون الروس ملاحظات مسبقة عن النقاش المحتدم في الولايات المتحدة حول الحرب الهجينة سنة 2009، وفي 2012 تُرجِم واحد من أول مقالات هوفمان وأُعِيدَ نشره في صحيفة جيوبوليتيكا (الجغرافيا السياسية)، وهي صحيفة كلية العلوم الاجتماعية في جامعة لومونوسوف الحكومية في موسكو. ومنذ ذاك الحين تزايد اهتمام الباحثين الروس بالمفهوم، مما أنتج نقاشات مثمرة ضمن الأروقة العسكرية والأكاديمية، بما في ذلك المؤتمرات رفيعة المستوى وحلقات النقاش التي نَظَّمت الكليات العسكرية التابعة لوزارة الدفاع الروسية بعضاً منها، وحتى الآن عند تحليل أعمال الباحثين الروس والاستراتيجيين والمفكرين العسكريين، يصبح من الواضح أن الأرضية المشتركة الوحيدة بين نظرية هوفمان للحرب الهجينة والحرب الهجينة الروسية هو الاسم فقط. **عند تفسير الحرب الهجينة لا يكون تركيز الباحثين والاستراتيجيين الروس مبنياً على التبنّي الأعمى للنظرية الغربية، وإنما محاولة لتقديم نموذج تفسيري لها ضمن سياق التجربة السياسية والعسكرية الروسية والفهم الروسي التنظيري لظاهرة الحرب.** وكما ذكرنا في الفصلين السابقين، فمنذ منتصف التسعينات من القرن الماضي تمت صياغة المفهوم التفسيري الروسي للحرب كظاهرة اجتماعية سياسية في ضوء هزيمة الاتحاد السوفياتي في الحرب الباردة، وفي تحليلاتهم للحرب الباردة وأسباب الهزيمة السوفياتية؛ **يؤكد الاستراتيجيون والباحثون السياسيون الروس على نقطتين مهمتين في الصراعات الجديدة: أولاً- هدف كسر الروح المعنوية لشعب العدو عبر إحداث تآكل تدريجي في الثقافة والقيم واحترام الذات، ثانياً- التأكيد على الوسائل السياسية والإعلامية (الحملات الدعائية) والاقتصادية، أكثر من القوى المادية العسكرية.** وبالتالي فمنذ العقد الأول في الألفية الجديدة وبإلهام من كتابات دوجين وبانارين[97] وأنصار هاتين النظريتين، لاقى طرح الأكاديميين السياسيين الروس عن حرب

[97] دوجين مبتكر نظرية حرب الشبكة المركزية, وبانارين مبتكر نظرية حرب المعلومات.

الشبكة المركزية والحرب الاعلامية رواجاً، بعدد كبير من الكتب والمقالات التي نُشِرَت عن الموضوع، حتى أنه تم إنشاء صحيفة خاصة بعنوان (حروب المعلومات) بإشراف الجنرال الشهير ماخمد جاريف[98] رئيس مجلس التحرير العلمي. كما تجدد الاهتمام الأكاديمي بمفهوم مسنر لحرب التخريب، وأُعيدَ نشر أعمال مسنر على نطاق واسع منذ التسعينات في كتب منفصلة أو في فصول ضمن مجموعات معدلة، فقد باتت نظرية مسنر عن حرب التخريب رؤية هامة يتم من خلالها دراسة المواجهات السياسية والعسكرية والاقتصادية المعاصرة.

ومن المهم ملاحظة أن أنصار نظرية مسنر عن حرب التخريب، إضافة الى دوجين وبانارين ونظرياتهم عن حرب الشبكة المركزية والحرب الاعلامية، وضعوا كلهم ذات الفكرة في نموذجهم التفسيري ألا وهي **العمل على تآكل وتقويض العدو داخلياً لتحقيق غايات سياسية معينة (أي الهيمنة العالمية) دون تصعيد صراع معيّن الى مواجهة عسكرية مادية**، لذا تعايشت هذه النظريات المستقلة مع أنها متشابهة بنجاح في الأكاديمية الروسية والطرح التحليلي حتى الأزمة الاوكرانية، عندما اكتسب مصطلح الحرب الهجينة انتشاراً في أوساط الباحثين الروس، والمحللين السياسيين والمعلِّقين. **وعند تحليل كمية الكتابات والتحليلات التي قام بها الباحثون الروس حول ظاهرة الحرب الهجينة وفق المنظور الروسي، يصبح جلياً أن مفهوم الولايات المتحدة للحرب الهجينة يركّز بالمقام الأول على التكتيكات العسكرية والنشاطات العملياتية "بتوجيه وتنسيق في ميدان المعركة الرئيسي لتحقيق تأثيرات متزامنة"، بينما تكون النظرية الروسية مختلفة تماماً في أنها تتمحور حول أفكار أكثر نظريَّةً و "تتضمن كل أطوار الحياة العامة: السياسية والاقتصادية والتطورات الاجتماعية والثقافية"**. وبكلمات أخرى؛ بينما تدعو نظرية هوفمان للحرب الهجينة الى دمج القوات النظامية وغير النظامية والتكامل بين العمليات على المستوى التكتيكي، فإن مفهوم

[98] ماخمد اخميتوفيش جاريف جنرال روسي في الجيش ومؤلف سبعة كتب عن تاريخ الحرب العالمية الثانية، وهو النائب السابق لرئيس هيئة الأركان العامة للقوات المسلحة السوفياتية، وهو يشغل حالياً منصب رئيس الأكاديمية الروسية للعلوم العسكرية.

الحرب الهجينة الروسي يؤكّد على ميدان معركة أكثر تجرداً تقاتل فيها الأطراف الفاعلة لإحداث تآكل في التماسك الاجتماعي الثقافي لدى عدوهم وحماية ذات التماسك في مجتمعهم.

ومن الممكن تعريف ثلاث طرق مترابطة تناول بها الباحثون والاستراتيجيون والمفكرون العسكريون الروس هذه الأفكار:

الأولى هي المقاربة الفلسفية الواسعة, حيث لطالما مال التفكير العسكري الروسي التقليدي الى وضع نموذج تفسيري لظاهرة الحرب على أنها صراع اجتماعي ثقافي أكثر من كونه نزاعاً على مصالح مادية، وعلى حد ما ورد في الكتيب الصادر عن أكاديمية الامبراطور نيكولاس العسكرية سنة 1899 (أكاديمية الأركان العامة) حول الاستراتيجية: *"يوفر تاريخ الأمم تغييراً بين الثقافات كنتيجة للحروب، فالحرب صراع على الوجود، والحرب هي تلك الطريق الخاصة التي تتغلب فيها الثقافة الأقوى على الثقافة الأضعف"*. ومؤيدو هذا النهج لا يرون جديداً في مفهوم الحرب الهجينة وفقاً للمنظور الروسي فهي –وفق رؤيتهم– الحرب التي لطالما كانت "مواجهة بين طرفين مستقلين أو أكثر، بغير تحسين واقعهم المالي أو الاجتماعي أو السياسي أو النفسي أو فرصهم الكلية للبقاء على قيد الحياة"، **وبالتالي فهذا المفهوم لا يعدو كونه مجرد مصطلح جديد لظاهرة موغلة في القِدَم.**

المقاربة الثانية لفكرة بنية الحرب الهجينة الروسية هي: كظاهرة توضّح خصائص التاريخ المعاصر بغية المحاولة للحفاظ على المنظور الفلسفي الخارجي للطريقة الروسية التقليدية في التفكير العسكري، ورغم أن هوفمان بالأصل عرّف الحرب الهجينة على أنها مزيج من التكتيكات النظامية وغير النظامية والتشكيلات والتقنيات، إلا ان الباحثين الروس والمفكرين العسكريين سعوا لتوسيع المفهوم. ومن وجهة نظرهم فالحرب الهجينة هي "إيجاد آليات للسيطرة الخارجية والتسلل لمفاهيم التخريب والتدمير، ومشاريع وبرامج وتشكيلات لعملاء للتأثير ودعم ممثليهم لبلوغ السلطة".

يقول مؤيدو هذه المقاربة أن الحرب الهجينة الروسية على خلاف نظيرتها الامريكية، لا تقتصر على النشاط العسكري في ساحة المعركة، ويقولون إن الغرض الرئيسي لهذا النوع من الحرب هو تجنب معركة تقليدية وتدمير العدو من خلال مزيج من الأساليب الايديولوجية والاعلامية والمالية والسياسية والاقتصادية التي تفكك النسيج الاجتماعي والثقافي للمجتمع، مما يؤدي في النهاية الى تدميره (أي الثورة الملونة)، وبالتالي فحسب هذه المجموعة من الباحثين الروس والاستراتيجيين فالهدف من الحرب الهجينة هو:

إحداث تفسخ تام أو جزئي في دولة العدو، وانحراف كبير للتوجه في سياساته الداخلية والخارجية، واستبدال قيادة الدولة بنظام موالٍ، والسيطرة الأجنبية عقائدياً ومالياً واقتصادياً على الدولة، وإغراقه بالفوضى والبلبلة وجعله رهن إملاءات الدول الأجنبية (التي تشن عليه حرباً هجينة).

والطريقة الثالثة التي تناولت فيها الأوساط الروسية الحرب الهجينة هي التركيز الواضح على بعد واحد، وهو الحرب الاعلامية، ويقول مؤيدو هذه المقاربة إن الصراع الاعلامي هو جوهر الحرب الهجينة، لأن هذا النوع من الحروب يتطلب:

خلق شبه واقع اجتماعي سياسي ضروري في الفضاء الاعلامي، مما يولّد النماذج المطلوبة التي تصمم تصورات الناس عن الأعداء والأصدقاء، والمعتدين والضحايا، والغزاة والثوّار...... بغية دفع الجزء النَشِط من مواطني العدو الى تكوين أعمالهم العسكرية والسياسية الخاصة دون مشاركتهم المباشرة والواضحة للمستفيد الحقيقي من الحرب الهجينة.

وبناءً على هذه الرؤيا للحرب الهجينة، فالحرب الاعلامية مكوِّن رئيسي لهذا النوع من الحرب، لأن الحروب الاعلامية هي جوهر الحرب الهجينة. كما أن بانارين الذي ناقشنا أفكاره عن "الحرب الاعلامية ضد روسيا" في الفصل السابق، يساوي ببساطة بين الحرب الهجينة والحرب الاعلامية، ويقول:

في رأيي، كان سقوط سلطة الدولة (الاتحاد السوفياتي) نتيجة لحرب هجينة منظمة شنّها الغرب ضد الاتحاد السوفياتي وهكذا ظهر المصطلح نفسه لاحقا.. إن مصطلح الحرب الهجينة يعني الاستخدام المتزامن للعديد من أنواع الضغط (الاعلامي الايديولوجي والمالي الاقتصادي .. إلخ) على العدو، حيث تلعب القوات المسلحة دوراً هاماً، لكن ثانوياً فقط.

ولفهم السبب الذي يجعل المفهوم الروسي للحرب الهجينة يقترب من نظريات التخريب والشبكة المركزية والحروب الاعلامية أكثر من مفهوم هوفمان للحرب الهجينة، من المهم دراسة السياق الخاص للترويس (فرض الثقافة واللغة الروسية) لنظرية هوفمان، بالتركيز على نقطتين مهمتين: أولاً- سبب ظهوره، وثانياً-الفرق الواضح بين النموذج التفسيري الأمريكي الأصلي للحرب الهجينة والمفهوم الروسي لهذه الحرب. **النقطة الأولى** شرحها البروفيسور بافل افانس يافيش تسيجاجوف وهو الرئيس التنفيذي لكلية العلوم السياسية في جامعة لومنوسوف الحكومية في موسكو، ففي سنة 2015 قال تسيجاجوف أنه بسبب الطرح الغربي لما يسمى "الحرب الهجينة" التي يقولون إن روسيا تشنُّها على أوكرانيا؛ يبدو من المنطقي تحليل تعريف "الحرب الهجينة" في سياق المقاربات التقليدية والبديلة لدراسة الحروب والصراعات المسلحة، وهكذا كان يمكن رؤية صعود مصطلح الحرب الهجينة في روسيا على أنه استجابة من المجتمع الأكاديمي الروسي على تسيس هذا المصطلح في الغرب في ظروف الأزمة الروسية. وهذا الترابط أو عدم الترابط بين الحرب الهجينة من المنظور الغربي والمنظور الروسي شرحه قسطنطين فالنتينوفيش سيفكوف؛ النقيب والدكتور في العلوم العسكرية ومؤسس أكاديمية المشكلات الجيوسياسية (مركز أبحاث عسكرية مستقل)، مجيباً على سؤال حول طبيعة الحرب الهجينة، ويقول سيفكوف أن :"المصطلح ذاته وضعه خبراء عسكريون أجانب" و "نحن استخدمنا هذا المصطلح فقط لأنه كان منتشراً". لكنه عندما يمضي قدماً في تعريف الحرب الهجينة، يستخدم طروحات يعتنقها مؤيدو نظريات مسنر-دوجين وبانارين- أكثر من هوفمان:

وعلى النقيض من فكرة الحرب التقليدية، التي تؤكد على تدمير القوات النظامية للعدو وبالتالي إجباره على توقيع السلام عبر خلع النظام الموجود.. ففكرة الحرب الهجينة مبنية، أولا على عزل السلطة الحاكمة، ومن ثم تدمير القدرة العسكرية والنظام الأمني والاقتصادي عبر تأسيس أنظمة أشبه ما تكون بالدمى.

ويمكن بسهولة تقسيم النتاج الفكري والتحليلي الروسي حول الحرب الهجينة الى مجموعتين رئيسيتين، الأولى: لا تذكر الأصول الأمريكية للمصطلح وبدلا من ذلك تستخدم التفسيرات الروسية للحقائق الجيوسياسية المبنية على الأطروحات التي استشرفها مسنر ودوجين وبانارين وأتباعهم. أما المجموعة الثانية فتذكر الأصل الأمريكي لمفهوم الحرب الهجينة، لكن هؤلاء المؤلفين يؤكدون على الطبيعة التخريبية للحرب الهجينة بدلاً من الأفكار في المفهوم الأصلي.

وبغضِّ النظر عما إن كانت نظرية الحرب الهجينة الروسية تمتلك نموذجها التفسيري المستقل الذي وضعه باحثون ومفكرون عسكريون روس، أم أنها مبنية على تفسيرات نظرية الحرب الهجينة ضمن الظروف السياسية الروسية وتفكيرها العسكري، فالحرب الهجينة الأمريكية ونظيرتها الروسية شيآن مختلفان تماماً. فبينما تمثّل الحرب الهجينة الأمريكية مزيجاً معقداً من التهديدات العسكرية في القرن الحادي والعشرين بناءً على مزيج من التكتيكات والتقنيات والإمكانات النظامية وغير النظامية، تركّز الحرب الهجينة من المنظور الروسي على الطرق التي يمكن أن تستخدمها الأطراف الفاعلة سياسياً لتقويض أعدائهم بها عبر العمل على إحداث تآكل في شرعيتهم السياسية محلياً ودولياً وفي استقرارهم.

في الوقت الذي تكون فيه الحرب الهجينة الروسية أقرب الى نظريات حرب التخريب وحروب الشبكة المركزية أو الحروب الاعلامية منها الى التعريف الأصلي للحرب الهجينة، فقد وجد الاستراتيجيون الروس الأصل الغربي (الأمريكي) للمصطلح مفيداً للغاية: فهو يسمح لهم بالادعاء بأن الولايات المتحدة اخترعت هذا النوع من الحروب واستخدمته ضدهم بنجاح (ضد روسيا وحلفائها) لعدة عقود. بمعنى أن المحللين الروس "للحرب الهجينة الروسية" في أمريكا اللاتينية في

النصف الثاني من القرن العشرين، وفي الكثير من الحالات المعاصرة أيضاً "للحرب الهجينة الأمريكية" في الشرق الأوسط، أو بالفعل، الحرب الهجينة الأمريكية في أوكرانيا، أقرب فكرياً لأعمال مسنر وبانارين ودوجين منها الى أعمال هوفمان. وثمة اعتبار آخر هام لصعود الحرب الهجينة الروسية في الطرح الروسي، وهو كراهية أفراد من الجيش الروسي–مثل أقرانهم في الجيش الأمريكي– لتبني هذا المصطلح، فعند مناقشة الطبيعة المتغيرة للحرب سنة 2013 و2014، يفضِّل رئيس هيئة الأركان العامة في الجيش الروسي الجنرال فاليري جيراسيموف وصف التطورات على أنها "أسلوب جديد للتكيف مع استخدام القوة العسكرية" أكثر منه حرباً هجينة، رغم التفافه اللفظي الواضح على طروحاته:

في القرن الحادي والعشرين يوجد ميل ملموس لإزالة الفروقات بين الدولة في حالة الحرب والسلم، فالحروب لم تعد معلنة، لكنها حالما تبدأ لا تسير وفق النمط الذي نعرفه.. بل يتم التأكيد على أن الأساليب المستخدمة للمواجهة تنتقل نحو الاستخدام الواسع للخطوات السياسية والاقتصادية والاعلامية والانسانية والوسائل الأخرى غير العسكرية عبر الاستفادة من امكانية الاحتجاج لدى السكان. وكل هذا يُنَفَّذُ بوسائل عسكرية لشخصيات خفية، بما في ذلك تنفيذ أعمال الحرب الاعلامية وقوات العمليات الخاصة.

وهكذا لنلخِّص صعود مفهوم الحرب الهجينة الروسية في الطرح الأكاديمي والسياسي والمهني الروسي، من المهم التأكيد على ستة خصائص رئيسية. **الخاصية الأولى** أنه رغم اشتراكهما في الاسم إلا أن مفهوم الحرب الهجينة الروسية يختلف جوهرياً عن النظرية الأصلية التي وضع نموذجها التفسيري بالأصل هوفمان ومؤيدوه في الأوساط العسكرية الأمريكية، فبينما تسلّط نظرية هوفمان الضوء على التمازج بين الوسائل العسكرية المختلفة والتكتيكات والتقنيات، تؤكّد النظرية الروسية للحرب الهجينة على الصلات بين الوسائل العسكرية وغير العسكرية، وعلى الصراع السياسي، حيث تحتفظ الوسائل غير العسكرية بالأدوار الرئيسية وتلعب الوسائل العسكرية دوراً داعماً (إن كان لهم دور بالأصل). وهذا الاختلاف يقودنا في النهاية الى **الخاصية الثانية** للحرب

الهجينة الروسية وهي الوسائل التي تُخاض بها، فعلى خلاف الكثير من المفاهيم التقليدية للحرب (النظامية وغير النظامية، التقليدية وغير التقليدية) فالقاعدة المتبعة لتدمير القوة السياسية للعدو بالقتال ضد قوته المادية (قواته المسلحة) أما الهدف الذي تستند إليه الحرب الهجينة الروسية فهو تدمير التماسك السياسي للعدو من الداخل عبر الانتشار الحذِر الماهر لوسائل الحرب الهجينة غير العسكرية والطرق التي تضخّم الاستقطاب السياسي والايديولوجي والاقتصادي وغيره، في مجتمع العدو، مما يؤدي الى انهيار داخلي، وفي هذه الحالة تتشابه الحرب الهجينة الروسية مع المفهوم الأمريكي "للحرب السياسية" أكثر من الحرب الهجينة:

الحرب السياسية هي استخدام الوسائل السياسية لإجبار طرف على تنفيذ إرادة عدوه.. وربما يرافقها العنف والضغط الاقتصادي والتخريب والدبلوماسية، لكن الاعتبار الأهم فيها هو استخدام الكلمات والصور والأفكار، وتُعرف على نطاق واسع –حسب الظرف– على أنها الحملات الدعائية والحرب النفسية.

والنقطة الثالثة الهامة في نظرية الحرب الهجينة الروسية هي أنها لا تضيف أي شيء جديد للمفهوم، لكنها ببساطة تكرر وتعيد صياغة الأفكار التي طُرِحَت في المركز الأكاديمي المهني منذ منتصف التسعينات، وكما نوقِش آنفاً: مؤيدو نظرية الحرب الهجينة الروسية يقلّدون ببساطة الاطروحات الموجودة في مفاهيم موجودة من قبل عن حرب التخريب وحرب الشبكة المركزية وحروب المعلومات، أو حتى ينقلونها كما هي. ومع ذلك فوجود هذه الاطروحات في قلب الخطاب الأكاديمي السياسي والعسكري قبل وصول الحرب الهجينة الروسية، قلل بشكل واضح من النقد المؤسسي التقليدي للمفاهيم الجديدة مما ساعد في رواج شعبية الحرب الهجينة وفق المنظور الروسي. وهكذا مع وصوله، وَجَدَ مفهوم الحرب الهجينة وفق المفهوم الروسي أرضية مفاهيمية مثمرة زادت في خصوبتها نظريات سابقة على مدى عقدين. وهذا يقودنا الى **الخاصية الرابعة**، وهو سبب ظهور مصطلح الحرب الهجينة رغم أن الأفكار التي تعبّر عنها ليست جديدة، إذ تم "ترويس" مصطلح الحرب الهجينة لأسباب سياسية، أكثر منها قصوراً في مفاهيم النظريات السابقة.

أولاً: كما تحدثنا من قبل كانت النية من وراء المصطلح هي عكس ردود فعل المحللين الغربيين والباحثين والسياسيين، الذين اتهموا روسيا بتنفيذ حرب هجينة خلال الأزمة الاوكرانية عامي 2014و2015، ثانياً: استطاع أنصار نظرية الحرب الهجينة الروسية عبر تبنيّهم للأدبيات الغربية من القول بأن الغرب قد أتقن مسبقاً تقنياتها وطرائقها. وهذا يقودنا مباشرة الى **الخاصية الخامسة،** وفقاً للباحثين الروس، فالحرب الهجينة هي طريقة للمواجهة الجيوسياسية يستخدمها الغرب بوضوح (وخصوصاً الولايات المتحدة) ضد أعدائه المعروفين أو المحتملين –وفي مقدمتهم روسيا– في أوضاع تكون فيها الحرب المفتوحة مستحيلة أو غير مرغوبة. وكما ذكر مؤيدو أطروحات مفهوم الحرب الهجينة في معرض تحليلاتهم ونماذجهم التفسيرية لهزيمة الاتحاد السوفياتي في الحرب الباردة، فالاتحاد السوفياتي سقط ضحية لأساليب وتقنيات الغرب التي تعتمد على أنواع سياسية واقتصادية وايديولوجية وأنواعاً أخرى غير عسكرية من التخريب. وبما أن روسيا هي الخليفة المباشر للاتحاد السوفياتي، وبسبب جهود الكرملين (على الأقل في عهد الرئيس بوتين) لمقاومة الهجوم الغربي، فقد بقيت روسيا الهدف الرئيسي لحرب الولايات المتحدة الهجينة. **والميزة الهامة السادسة والأخيرة** لهذا المفهوم هي: أن الجيش الروسي لم يتبناها رسمياً، وكما ناقشنا سابقاً كانت الميول العسكرية الروسية تتجه تقليدياً لوضع نموذج تفسيري لظاهرة الحرب ضمن نطاق أوسع في المواجهات الثقافية والسياسية، معتبرين أن الحرب ليست مجرد صراع فعّال للقوات المسلحة لأهداف سياسية فقط، بل يتضمن أيضاً أبعاداً أخرى، مثل الأبعاد السياسية والايديولوجية والاعلامية والاقتصادية. لذا يمكن القول بأن مفهوم الحرب الهجينة الروسية أكثر من مجرد ملائمة للقيادة العسكرية الروسية، وليس مفاجئاً أنه في عام 2016 استخدم الجنرال جيراسيموف أخيراً هذا المصطلح ليشير الى الطبيعة المتغيرة للحرب:

في الصراعات المعاصِرة، يتحول تركيز أساليب المواجهة في كثير من الأحيان نحو تطبيق متكامل للتدابير السياسية والاقتصادية والاعلامية وغيرها من الاجراءات غير السياسية، التي تُنَفَّذ بدعم من القوى العسكرية، وهو ما يسمى الأساليب الهجينة، وهدفها تحقيق أهداف سياسية بأقل تأثير عسكري

على العدو... عبر تقويض قواه العسكرية والاقتصادية بالضغط الاعلامي والنفسي، والدعم النشط للمعارضة الداخلية والطرق الحزبية والتخريبية... إن الدولة التي تتعرض لضغط عدوان هجين يتدهور وضعها عادة الى حالة من الفوضى التامة والأزمات السياسية والانهيار الاقتصادي.

على أي حال، من الضروري أن نتذكر أن مقالات جيراسيموف نُشِرَت في صحيفة كرير الصناعية العسكرية، وهي صحيفة تمتلكها شركة الماز انتي شبه الحكومية، وليس في مجلة الأفكار العسكرية التابعة لهيئة الأركان العامة الروسية، التي تمثِّل المنصة الرئيسية للنقاش العسكري والأكاديمي النظير، وهكذا كما اعتبر أحد المحللين الأمريكيين أنه: *"من الضروري أن نضع في أذهاننا أن جيراسيموف يشرح ببساطة آرائه عن البيئة العملياتية وطبيعة حروب الغد، ولا يقترح طريقة روسية جَدّيَّة للحرب أو عقيدة عسكرية"*، وهكذا فرغم رأي جيراسيموف الشخصي في نظرية الحرب الهجينة، التي عبّر عنها لجمهور معين والذي "قد لا يكون حتى في القوات المسلحة الروسية، لكن بدلاً منه في القيادة السياسية الروسية العليا"، ورغم الدعوات الصريحة من الأكاديميين للجيش لاعتناق هذا المفهوم في النشر العام والأدبيات، يبدو أن مصطلح الحرب الهجينة لم يُنشَر في قاموس المصطلحات العسكرية الروسية الذي تصدره وزارة الدفاع الروسية ولا في أي منشور عسكري روسي رسمي يتناول العقيدة القتالية. أي أن نظرية الحرب الهجينة الروسية مثل ما سبقها من مفاهيم؛ تبدو مفعمة بالاعتبارات غير العسكرية الغامضة بحيث لا تستطيع الاجابة عن الأسئلة العملية التي يحتاج إجابتها الجنرال جيراسيموف وهيئة أركانه: " ما هي الحرب المعاصرة، وما الذي يجب أن يستعدَّ له الجيش، وبماذا يجب أن يتسلح؟".

الفصل الثالث

الاستخدام السياسي للحرب الهجينة الروسية والامريكية

"الروس قادمون" الاستخدام السياسي للحرب الهجينة:

كما ناقشنا في القسم الأول من هذا الكتاب، **تطورت فكرة الحرب الهجينة عند الجيش الأمريكي خلال سنة 2005 كمفهوم عملياتي يهدف لوصف الطبيعة المتغيرة للصراعات المعاصرة**، وبداية سنة 2010 اكتسب هذا المفهوم مزيداً من الشعبية بقدر ما اكتسب مزيداً من الانتقادات، وكنتيجة لهذه الشعبية وهذا الانتقاد، حاول البعض تفسير أفكار هوفمان، ونشر الناتو بعضاً من هذه التفسيرات مما اعتبره أكثر منهجية سنة 2012. ولم يكن حماس الناتو لفكرة التهجين شائعاً لدى أعضائه من الدول، لكن ما حدث في أوكرانيا أعاد الفكرة الى مركز الخطاب الاكاديمي والعسكري والسياسي، ويسعى هذا الفصل لتحليل هذا الخطاب، ويركّز القسم الأول من هذا الفصل على الانتقاد الرئيسي للمفهوم الأولي الأمريكي للحرب الهجينة وعلى عملية إعادة وضع النموذج التفسيري اللاحقة، والتي كان الهدف منها الاجابة على العيوب ونقاط الضعف التي سلط عليها النقد الضوء. والجزء الثاني يناقش إحياء الحرب الهجينة في ظروف أعمال روسيا في شبه جزيرة القرم واوكرانيا وصعود الخطاب عن الحرب الهجينة الروسية، ويحلل الجزء الأخير من الكتاب الاستخدام السياسي لهذا الخطاب في الغرب، مركِّزَاً على الطرق التي تشكّل بها النقاش المفاهيمي حول الحرب المعاصرة لخدمة أهداف سياسية.

الانتقادات على مفهوم الحرب الهجينة:

كما ذكرنا في فصل سابق، كان مفهوم الحرب الهجينة نتاج التفكير العسكري في الولايات المتحدة، حيث بنى هوفمان ومؤيدو هذه النظرية الآخرين هذه النظرية على نموذجهم التفسيري من مراقبة تجربة الكيان الصهيوني في حرب لبنان الثانية، وكذلك الصراعات العسكرية الأخرى خلال القرن العشرين. وبعد عدة سنوات من الطرح المكثّف ضمن المجتمع العسكري الأمريكي (خصوصاً قوات المارينز الأمريكية)، بدأت فكرة الحروب الهجينة بجذب الاهتمام الخارجي، مما جعل أفكار هذه النظرية تغادر شرنقة الجيش الامريكي وتعرِّض نفسها للنقد وللتفسيرات المستقلة. **ومن الممكن**

الإشارة الى ثلاث خصائص رئيسية لهذه النظرية استُهدِفَت على نحو متكرر بالنقد: الغرابة في وصف الظاهرة، الطبيعة الغامضة للمفهوم، طبيعتها الاستراتيجية.

وتناول المؤرخون العسكريون **النقد الأول** فقالوا: لا يوجد جديد في فكرة التهجين كما طرح هوفمان، وانتقدوا "الأدوات الفكرية في الجيش الأمريكي" لفشلها في "فهم المستقبل بالعودة الى الماضي القريب جداً وليس الماضي البعيد فقط"، فمثلاً ادعى بيتر منصور[99] أنه بينما *"افترض بعض المحللين في وزارة الدفاع ظهور نوع جديد من الحرب–الحرب الهجينة" تُظهِرُ دراسات متأنية للتاريخ أنه "ليس ثمة سوى القليل مما هو جديد في مفهوم الحرب الهجينة"*. وبشكل مشابه يقول ماكس بوت[100] إن *"الحرب الهجينة ما هي إلا مصطلح جديد لممارسة قديمة، ويمكن اقتفاء أثر أصولها في بعض الأحيان خلال الخمسة آلاف سنة الماضية، حيث لم يكن للجيوش التقليدية وجود بعد"*. وفي سياق مماثل يقول ويليامسون موري[101] إنه: *"رغم المفاجئة التي أثارتها أحداث لبنان في المجتمع الدفاعي الأمريكي، فسِجِل التاريخ يوحي بأن الحرب الهجينة بشكل أو بآخر هي قاعدة الصراع الانساني، أكثر من كونها استثناءً"*.

والنقد الثاني لمفهوم الحرب الهجينة يأتي من مجتمع الاستراتيجيين العسكريين، الذين قالوا بأن مفهوم هوفمان غامض للغاية لدرجة أنه لا يمكن استخدامه في موقف عملي، على سبيل المثال يقول دان كوكس[102] مع العديد من المؤلفين المشاركين بأن:

مفهوم التهديدات الهجينة (أو الحرب الهجينة) كما عرّفها مؤيدوها الرئيسيون بالفعل غير واضح وغير مكتمل وغالباً ما يكون غير ذا فائدة، وبالقول بأن وحدات فردية (أو حتى وحدات منفصلة

---

[99] بيتر منصور ضابط سابق في الجيش الأمريكي ومؤرِّخ عسكري، وهو معروف بكونه الضابط المنفّذ للجنرال ديفيد بتريوس أثناء حرب العراق، وخصوصاً زيادة عدد القوات المشارِكة في حرب العراق سنة 2007.

[100] ماكس بوت مؤلِّف أمريكي ومستشار وكاتب صحفي ومُحاضِر ومؤرِّخ عسكري, عمل كاتباً ومحرراً في صحيفة كريتيان ساينس مونيتور ثم في صحيفة وول ستريت جورنال في التسعينات.

[101] ويليامسون موري مؤرخ وكاتب أمريكي، ألّف عدداً كبيراً من الأعمال عن التاريخ والدراسات الاستراتيجية، وعمل محرراً في العديد من المشروعات الاخرى، واعتباراً من سنة 2012 أصبح أستاذاً فخرياً للتاريخ في جامعة أوهايو.

[102] بروفيسور العلوم السياسية حاليا في المدرسة العسكرية الأمريكية, له عدد من المؤلفات في الحرب والحرب الهجينة.

لكن منتظمة) يمكنها بشكل ما عبر العمل بشكل متزامن (أو بسلاسة وبسرعة) والتبديل ذهاباً وإياباً بين الأنشطة التقليدية وغير التقليدية والإجرامية، لكن ذلك يحوّل العدو الى وضع العدو الغامض.

وحسب هيو ستراتشان[103]: *من غير الواضح فيما إن كانت "الحروب الهجينة" هي تلك التي تحتل بعض المواقع الوسط في الطيف بين الحرب النظامية وغير النظامية، أو فيما إن كانت سمتها الرئيسية هي الأنشطة المتزامنة على طرفي الطيف*[104].

كما أنه وبكلمات سيبل سكيبرز[105] *"إن الغموض الداخلي الذي يكتنف الحرب الهجينة يجعل استخدامها عملياً في أي عمل ذا غاية معينة عملاً صعباً، فتسليط الضوء على الفعالية المزعومة للاستراتيجية لا تترك مجالاً لتحديد عوامل النجاح فيها".*

وهذا يقودنا مباشرة الى **حقل النقد الثالث** لمفهوم الحرب الهجينة وهو: طبيعتها "الاستراتيجية"، فحسب بعض الاستراتيجيين والمحللين العسكريين، "تكمن المشكلة الرئيسية في تحليل الحرب الهجينة في أنها تتجاهل دور التفاعل في الاستراتيجية"، وكما تحدَّثنا في الفصل الثاني، فقد تطوَّر مفهوم الحرب الهجينة على يد الجيش الأمريكي ومن أجله، بغية تلبية مطلبين أساسيين لثقافة الجيش الأمريكي، وهما التوجه العسكري البحت والممارسة العملية. وساعدت هذه المقاربة على اكتساب المفهوم للشعبية في المؤسسة العسكرية الأمريكية، كما أنه جذب نقداً هاماً، على سبيل المثال، في الوقت الذي تقول فيه بتنا ريتز[106] أن *الحرب الهجينة لا تقدِّم استراتيجية، بل مجرَّد نهج*

[103] السير هيو فرانسيس أنتوني ستراشان، مؤرّخ عسكري بريطاني مشهور بعمله في إدارة الجيش البريطاني وتاريخ الحرب العالمية الأولى. من كتبه "التاريخ المصور للحرب العالمية الاولى", "الحرب العالمية الاولى في افريقيا"، "الحرب وفق كلاوزفيتز"، "الجيوش الاوروبية وشن الحرب".

[104] أي التدرج في العلاقات بين الدول من السلام مرورا بالتوتر والحالة العدائية حتى الحرب الصريحة.

[105] سيبل سكيبرز أستاذة محاضرة في كلية العلاقات الدولية في جامعة سانت اندروز.

[106] الدكتورة بتنا ريتز بروفيسورة في كلية العلوم السياسية والعلاقات الدولية في جامعة أدنبرة ، ولها العديد من الأبحاث حول الشأن الروسي.

عملياتي، يقول روبرت ميهارا[107] أن: *التهديد المبني على نهج الحرب الهجينة يُحدِثُ شعوراً بارزاً في وضع أولوية المبادرات لتطوير العقيدة العملياتية أو في تخطيط العمليات، لكنه قليل الجدوى عند وضع خطة استراتيجية للجيش على المدى الطويل*، ويتخذ بريت فريدمان موقفاً أكثر حدة عندما يقول: *"نحن ببساطة نناقش الحرب المعروفة مهنياً وتاريخياً بالتكتيك"* ويستنتج أن:

الهجوم على المفهوم فقط يصرف النظر عن مبادئ الاستراتيجية الأساسية التي تختلف حقاً من صراع لآخر ومن قتال لآخر، فالتغييرات التكتيكية لا تُحدِث ثورات في النظرية، والحرب الهجينة أسوء مثال عن هذا، فالحرب الهجينة ليس تهديداً جديداً أو نوعاً جديداً من الحرب بل مجرد فهم خاطئ للفرق الأساسي بين الحرب التقليدية وغير النظامية على المستوى التكتيكي.

كما يقول انتلونيو ايشفالريا[108] *أن التركيز على ما هي الحروب المعاصِرة (أو ما ليست هي) هو مفهوم الحرب الهجينة الذي يأتي بنتائج عكسية فعلياً على استراتيجية صناع القرار والمخططين.*

إعادة انتاج الحرب الهجينة:

إما كنتيجة للنقد للطبيعة الاستراتيجية لنظرية هوفمان ومنظورها الضيّق (عملياتياً وحتى تكتيكياً) على طبيعة الصراعات المعاصرة، أو كجزء من التطور الطبيعي لأي مفهوم دارج، تمت عملية إعادة وضع نموذج تفسيري جديد للحرب الهجينة يشمل الأبعاد التقليدية التي يفتقر إليها المفهوم الأصلي. ويعتبر لورانس فريدمان[109] أنه: *"كما في العديد من المفاهيم المشابهة، تميل الحرب الهجينة بمجرد اعتمادها كمصطلح فني نحو تعريف أوسع"*، وكانت المحاولة الأولى لتعريف بديل للحرب الهجينة ستأخذها خارج نطاق مجالها العسكري البحت "حيث وضعها اولئك الذين شكّلوها"

[107] روبرت ميهارا رائد في الجيش الامريكي يخدم حاليا في افغانستان كمخطط استراتيجي، حصل على بكالوريوس في التاريخ الدولي الاستراتيجي من الجيش الأمريكي.

[108] انتوليو ايشيفاريا زميل في برنامج معهد السياسة الخارجية للأمن القومي ومحرر كلية الحرب العسكرية الفصلية بالولايات المتحدة.

[109] السير لورانس ديفيد فريدمان بروفيسور فخري لدراسات الحرب في الجامعة الملكية في لندن، ويوصف بأنه عميد الدراسات الاستراتيجية البريطانية، وكان عضواً في لجنة تقصي الحقائق في العراق.

وكانت هذه المحاولة على يد ديفيد كلكولين[110] بداية 2009 (نشر هوفمان منشوره الرئيسي سنة 2007) وقال كلكولين أن *"صراعات اليوم تجمع الى حد بعيد بين عوامل جديدة وتقنيات جديدة وطرق جديدة أو قديمة للحرب"، وقال إن الحرب الهجينة ظاهرة تجمع بين أعمال عسكرية وغير عسكرية كنتيجة للتنظيمات الحكومية وغير الحكومية، بسبب الرغبة في تحقيق تأثيرات داخلية ودولية باستخدام أو بدون استخدام عنف مباشر أو غير مباشر.* وأوّل محاولة شاملة ومنهجية لإعادة وضع نموذج تفسيري جديد للحرب الهجينة والتهديدات الهجينة وترقية هذه المفاهيم الى مستوى الاستراتيجية، نشرها الناتو سنة 2010 تحت عنوان: مفهوم إكمال القيادة ثنائية الاستراتيجية:

التهديدات الهجينة هي تلك التي يضعها الأعداء، مع القدرة على التشغيل المتزامن للوسائل التقليدية وغير التقليدية بكفاءة سعياً وراء تحقيق أهدافهم... التهديدات الهجينة تعمل وتتكون من العديد من الأنظمة والأنظمة الفرعية (بما فيها الاقتصاد/المال، القانون، السياسة، المجتمع، الجيش/الأمن) بنفس الوقت.

والغريب أن الناتو كان أول هيئة توسّع فهم هوفمان التكتيكي–العملياتي عن الحرب الهجينة إلى استراتيجية، وبما أن الناتو ليس منظمة عسكرية بحتة بل يضم مكونات سياسية مهمة، فنموذج هوفمان التفسيري للتهجين لن يناسب الطريقة التي يفكر فيها حول الصراعات. وأوكِلَت مهمة تطوير وتقديم تفسيرات للنهج الجديد للنموذج التفسيري للتهديدات الهجينة الى مركز "تحوُّلات قيادة الحلفاء في الناتو" المدعوم من مركز الحرب غير النظامية في القيادة المشتركة لهيئة الأركان الأمريكية، وجامعة الدفاع الوطني الأمريكية، التي نفّذت مجموعة من الورشات المتخصصة والتجارب لتعريف التهديدات الهجينة المحتملة ودراسة الاستراتيجيات الفعالة المتاحة لمواجهتهم. وكنتيجة لهذا التعاون، توصل الناتو الى الفهم الآتي للتهديدات الهجينة:

---

[110] ديفيد جون كلكولين كاتب استرالي، ومنظِّر استراتيجي وخبير في مكافحة حرب العصابات، ويعمل حالياً كمدير غير تنفيذي لشركات كارس للاستشارات الاستراتيجية والتصميمية التي انشأها.

من المُسَلّم به أن التهديد الهجين هو مصطلح جامع يشمل تنوعاً واسعاً من الظروف والأعمال غير القانونية، مثل الارهاب والهجرة والقرصنة والفساد والصراعات العرقية وهلمّ جراً. أما الجديد فهو امكانية قيام الناتو بمواجهة الاستخدام المتكيّف والمنهجي لمثل هذه الوسائل بشكل منتظم وبالجمع بين الأعداء سعياً للوصول الى أهداف سياسية طويلة الأمد، بدلاً من الانسياق وراء أحداث أكثر عشوائية تحرّكِها عوامل المصادفة.

ويعرّف مركز "تحولات قيادة الحلفاء في الناتو" المدعوم من مركز الحرب غير النظامية في القيادة المشتركة لهيئة الأركان الأمريكية هذه التهديدات على أنها من صنع أعداء متعددي الأبعاد, يستخدمون مزيجا من الوسائل تشكل اوركسترا من الدبلوماسية والتفاعلات السياسية والمساعدات الانسانية والضغط الاجتماعي والتطورات الاقتصادية والاستخدام الذكي لوسائل الاعلام والقوات العسكرية.

ورغم النقاش المثمر الذي نتج عن المفهوم، إلا أن العناد السياسي لأفراد من الناتو ضد استثمار الموارد في تطوير الامكانات المطلوبة لتلبية ردع هذه التهديدات دفع الناتو للتحول عن هذا التركيز على التهديدات الهجينة سنة 2012، رغم أنه شجّع دوله الأعضاء ومراكز الناتو التدريبية والبحثية على مواصلة العمل بما لديهم. ولم يذهب هذا التشجيع هباءً، ففي سنة 2012 على سبيل المثال أجرت الكلية الحربية الوطنية السويدية تحليلها الخاص في محاولة لفهم الصلة بين التهديدات الهجينة والأمن السويدي، وتطرق السيناريو المدروس الى عدو افتراضي يستخدم في ذات الوقت مزيجاً من التهديدات الهجينة (مثل تسلل قوات خاصة الى أراضٍ سويدية ومحاولة إغراق ناقلة نفط مُختَطَفَة وسط منطقة بيئة بحرية حساسة) وتهديدات أخرى غير تقليدية (مثل هجوم سيبراني يهدف لإيذاء مواقع حكومية أو تدمير بنى تحتية حساسة، وتهديدات لاختراق جهاز تنظيم ضربات القلب لمسؤول سويدي رفيع المستوى). مثل هذه التفسيرات للحرب الهجينة وسّعت تعريف الحرب الهجينة

الى أقصى درجة، وليس مفاجئاً أن ساشا دومينيك باشمان[111] وهاكان جانيريسون[112] الذين نقلا وشرحا هذا المثال في سلسلة من المقالات، قد قالا أن التهديدات الهجينة تمتد لـ:

التهديدات المتعددة الأشكال وغير الكثيفة والنشيطة وكذلك غير النشيطة على السلام والأمن الدوليين، والتي تشمل الحرب السيبرانية وسيناريوهات الصراع المنظّم والارهاب العالمي والقرصنة والجريمة المنظَّمة العابرة للقارات والتحديات الديموغرافية وأمن الموارد وتبعات العولمة وانتشار أسلحة الدمار الشامل.

يفيد هذا المثال أيضا في إثبات التحول البطيء لمفهوم التهجين من البعد العسكري المحض، الذي بدأ هوفمان ومؤيديه بوضع أسسه في الجيش الأمريكي، الى فكرة شاملة تشمل الطيف الكامل للتهديدات العسكرية وغير العسكرية الممكنة التي تُعَرِّضُ أمن الدولة والاستقرار الداخلي والخارجي للخطر.

كما أن الإنهماك الكامل لمنظّري الناتو في نظرية الحرب الهجينة، كان معناه أن توسيع النموذج التفسيري لم يكن ممكناً لولا النقد الجاد، الذي حافظ على استمرارية النقاش النظري، مما مهّد لعودة هذا المفهوم بعد بداية الأزمة الاوكرانية سنة 2014. والعديد من الباحثين اعترفوا بحقيقة أن التحليلات والتعقيبات على الحرب الهجينة تضاعفت منذ بداية الأزمة الاوكرانية سنة 2014- وسنناقش هذه الفكرة بالتفصيل في الفصول القادمة- ومن المهم ببساطة التركيز على التحول المفاهيمي الذي حدث ويحدث لنظرية الحرب الهجينة على ضوء هذا النقاش. وفي معرض تحليله "للطرق السياسية والعسكرية التي استخدمتها روسيا في شبه جزيرة القرم وشرق اوكرانيا" التي صُنِّفَت بشكل عام على أنها "حرب هجينة"، **يصل المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية الى أن الحرب**

[111] الدكتور ساشا دومنيك باشمان بروفيسور في كلية القانون الدولي في جامعة بورتسماوث. من كتبه: "المسؤولية المدنية عن التقلب العام في حقوق الانسان" و"الحاجة للعقد الدولي".

[112] هاكان جانيريسون رئيس قسم الدراسات ونائب رئيس قسم دراسات أرض العمليات في الكلية الحربية السويدية. وتركِّز أبحاثه على الحرب الهجينة والتكتيكات البرية العسكرية، إضافة الى المنظور النفسي والتاريخي للتكتيكات العسكرية والثقافة.

الهجينة تشمل استخدام أدوات عسكرية وغير عسكرية في حملة متكاملة لتحقيق وانتزاع المبادرة وكسب التفوق النفسي والمادي بالاستفادة من الوسائل الدبلوماسية والمعلومات المعقَّدة والفورية والعمليات الالكترونية والسيبرانية والتناوب بين الكشف وإخفاء العمل العسكري والمخابراتي والضغط الاقتصادي.

وبينما يسمِّي المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية هذا الامتداد المفاهيمي للحرب الهجينة الى أي نشاط عدائي بأنه "إعادة اكتشاف"، فمن الصعب وصفه على أنه كذلك، وبدلاً من ذلك فهذا التعريف بأكمله نتيجة مباشرة للنقاشات المذكورة آنفاً، والتي وسّعت مظلة الحرب الهجينة، بدءً بمنهج الناتو في الحرب الهجينة سنة 2010 والتطورات اللاحقة في مدارس اوروبية مختلفة للفكر العسكري (مثل الكلية الحربية الوطنية السويدية). وبهذه الطريقة ومنذ أحداث سنة 2014، بات مفهوم الحرب الهجينة –في ضوء الأعمال الروسية في اوكرانيا وغيرها– في القلب من الخطاب العسكري الغربي (وبالذات الأوروبي). وكانت كلية الناتو الدفاعية الدافع الرئيسي خلف هذا الخطاب، فعلى سبيل المثال سنة 2015 تناولت كتابات أكثر من نصف الناشرين النقاش حول ما يسمى "الحرب الهجينة الروسية" في تحليل للفهم المفاهيمي للحرب الهجينة، كما تطورت عند مسؤولي الناتو والخبراء في سياق تفسيراتهم لأعمال الكرملين في اوكرانيا، ومن المهم الإشارة الى الميل العام لتوسيع تعريف هذا النوع من الحرب الى كافة العمليات التي يتم فيها الجمع بين الوسائل العسكرية وغير العسكرية. على سبيل المثال، سنة 2015 صرّح الجنرال فيليب بريدلوف القائد الأعلى للقيادة الأوروبية: *"ما نعرفه جميعاً هو أن الحرب الهجينة استمرار للتهديد سواء بالطرق التقليدية أو غير التقليدية"*. وشرح دييغو روز بالمر الخبير من قيادة الفريق الدولي في بروكسل، الرؤية الموسّعة المعاصِرَة للناتو لتعريف الحرب الهجينة قائلاً: ***"في الواقع فإن الحرب الهجينة تردم الهوة بين تطبيقات القوة الصلبة والناعمة الناتجة عن الثورات التقنية والاعلامية في العقود الثلاثة الأخيرة بطريقة تعظِّم مزايا عدم التناظر بين القوات، كما أنّها تقلل المخاطر والتكلفة"***.

وبما أن الأقسام التالية من هذا الفصل تتناول صعود الحرب الروسية الهجينة على أنها العنوان الرئيسي للأعمال الروسية في اوكرانيا، فمن المهم تسليط الضوء على السياق المفاهيمي الذي جرت فيه عملية العنونة هذه. وكما ذكرنا من قبل كان مفهوم الحرب الهجينة بالأقل قد وُلِد ونمى في الجيش الأمريكي كمنهج للعمليات، يهدف لزيادة فعالية الوحدات العسكرية في ميدان المعركة، ومنذ ذاك الحين تطور المصطلح كثيراً وتغيّر الى حد بعيد، الى درجة أنه لم يبقى منه سوى الأرضية المشتركة بين المفهوم الأصلي للحرب الهجينة والحرب الأخرى التي وُضِع هذا المصطلح كعنوان لها.

وبينما يتحدّث المفهوم الأصلي عن مزيج من التكتيكات التقليدية وغير التقليدية والإمكانات والتقنيات في ذات ميدان المعركة، تشير الصيغ الأحدث منه الى الجمع بين القوة الصلبة والناعمة في مواجهات بين الأطراف السياسية المتصارعة. أي أن؛ المفهوم كان مقتصراً على الجانب العسكري، لكن الصيغ الأحدث منه تتناول كامل درجات الطيف الممكنة للعمليات العسكرية وغير العسكرية التي يستخدمها العدو لتحقيق أهدافه السياسية المنشودة. وهذا التفسير تطور في ضوء التفاعلات الروسية إزاء الأزمة الأوكرانية، وكان الظرف المفاهيمي الرئيسي خلف صعود الحرب الهجينة الروسية.

صعود الحرب الهجينة الروسية:

كان رد الفعل الروسي إزاء الأزمة الأوكرانية في شبه جزيرة القرم وشرقي أوكرانيا بلا شك مفاجئاً للمجتمع الغربي عموماً وللناتو على وجه الخصوص، ففي شهر كانون الثاني سنة 2014 قيَّمت هيدي ريسنجر من كلية الدفاع التابعة للناتو القوة الروسية على أنها لا تشكّل تهديداً ولا تمثّل نظيراً مكافئاً للناتو، قائلةً:

أدّت سنوات من التغييرات المستمرة ونقص التمويل والتأثيرات المدمرة للاتجاهات الديموغرافية بالقوات الروسية المسلحة الى موقف جعلت معه حتى كبار العسكريين يشككون بقدرة هذه القوات

على الدفاع الوطني دون استخدام الاسلحة النووية التكتيكية... وجعل هذا كله الامكانات العسكرية الروسية أقل كفاءة وقدرة على العمل.

وبعدها بعشرة شهور فقط؛ في تشرين الأول من نفس السنة تغيرت تقييمات ريسنجر جذرياً، إذ باتت تشير لتصرفات وأعمال روسيا الأخيرة على أنها: "حرب هجينة" قائلة: *"لقد كانت هذه الأعمال مزيجاً فعّالاً وأحياناً مفاجئِاً من الأعمال العسكرية وغير العسكرية، والمكوّنِات التقليدية وغير التقليدية، ويمكن أن تتضمن جميع أنواع الأدوات مثل العمليات السيبرانية والاعلامية.* ***وفي حين أن أياً من هذه المكونات ليس جديداً بحد ذاته، فإن الجمع والتناغم بين الأفعال المختلفة هو ما يحقق مفعولاً مفاجئاً ويخلق غموضاً، ويجعل رد الفعل الناتج مختلفاً تماماً، خصوصاً بالنسبة للمنظَّمات المتعددة القوميات التي تعمل على مبدأ الإجماع".***

في الوقت الذي يُثبِتُ فيه هذا التغيير في الموقف نحو الإمكانات العسكرية الروسية بشكل لا لَبْسَ فيه أن الناتو قد أُخِذَ على حين غِرّة بالأداء الروسي في شبه جزيرة القرم وشرقي أوكرانيا، فهذا يعني أيضاً أنه من الممكن تحديد المدة الزمنية التي يمكن خلالها وصف الأعمال الروسية على أنها حرب هجينة. أي أنه لكي تفهم لماذا وكيف بدأت التصرفات الروسية الأخيرة تظهر وكأنها حرب هجينة، من المهم تحليل الخطاب المهني بين شهري كانون الثاني وتشرين الثاني من سنة 2014 بغية اقتفاء أثر كيف ومن أقام هذه الصلة المفاهيمية. حيث يثبت تحليل الخطاب السياسي والعسكري عن الأنشطة الروسية في القرم وشرقي أوكرانيا، ربيع وأوائل صيف سنة 2014، أن الخبراء الغربيين كانوا مأخوذين بالمفاجأة؛ ليس بفاعلية الأداء العسكري الروسي فحسب بل بالتنسيق الناجح بين الأنشطة المختلفة المتزامنة في مجالات مختلفة: العسكرية (الخفية والعلنية) والسياسية والاعلامية والاقتصادية وغيرها. وبكلمات مارسين زابوروسكي المشرف السابق على المعهد البولندي للشؤون الدولية: *"أعتقد أن الروس أذكياء جداً، وبصراحة أعتقد أنهم تفوّقوا علينا في الذكاء، فهم يستخدمون قوات خاصة تتظاهر بأنها ليست روسية، وفي ميدان الحرب الاعلامية، كانوا جيدين للغاية".* ويستنتج السفير الأمريكي السابق في الناتو كرت فولكر بأن: *"الروس*

سيستخدمون العمليات الخاصة وقوات المخابرات والضغط الاقتصادي والضغط في مجال الطاقة والهجمات السيبرانية والقوات التقليدية المتخفية بشكل مباشر لتحقيق أهداف امبريالية".

وعلى الرغم من أن العديد من الخبراء الغربيين لاحظوا بوضوح الأنشطة الروسية متعددة الأبعاد، إلا أن المستشار السابق للناتو في شؤون الأمن الجنرال الهولندي فرانك فان كابين، كان من أوائل الذين أوجدوا ربطاً مفاهيمياً بين الأعمال الروسية ونظرية الحرب الهجينة والتهديدات الهجينة، بدءاً من 26 نيسان سنة 2014 قائلاً بأن الأعمال الروسية في أوكرانيا تشكل أمثلة عن حرب هجينة ثم جرت اتصالات موسعة بعد ذلك بشهرين في أواخر حزيران من سنة 2014 في قيادة الناتو في بروكسل، ليظهر هذا الانجاز المفاهيمي للعلن على يد الأمين العام لحلف الناتو آنديرز فوغ راسموسن عقب لقائه مع الرئيس أوباما في واشنطن أوائل شهر تموز (في الواقع جرى النقاش مع راسموسن في شهر حزيران، خلال مؤتمر في لندن، وكانت هذه الأعمال الروسية ظهوراً للحرب الهجينة). وتوطدت هذه الصلة المفاهيمية أكثر بعد أن نشرت صحيفة ريفيو التابعة للناتو فيلماً وثائقياً قصيراً في الأول من تموز سنة 2014، بعنوان "الحرب الهجينة والرد الهجين", وبدأ الفيلم بهذه الكلمات: "في نقطة ما في الحرب الاوكرانية اصطف 40000 جندياً روسياً على الحدود الاوكرانية، لكن عندما جاء وقت نثر بذور عدم الاستقرار في اوكرانيا؛ لم تُفَعَّل هذا القوات التقليدية بل كان جل من فعل هذا من غير الارثوذكس[113] وبتقنيات متنوعة، وهو ما كان إعادة تعريف للحرب الهجينة".

في هذه المرحلة المبكرة من النقاش، كان توصيف الأعمال الروسية على أنها استخدام الكرملين لمزيج من الوسائل والأساليب العسكرية وغير العسكرية في القرم وشرقي اوكرانيا، أكثر من الإشارة الى نظرية الحرب الهجينة. وفي الواقع فقد أكّد باول كينج رئيس تحرير صحيفة ريفيو التابعة للناتو على هذا عندما وضع للفيلم عنوان: "حرب هجينة–رد هجين؟"، فقد برهن هذا أنه شخص لا يفكر بمفهوم الناتو للحرب الهجينة ... يبدو أنه معجب بهذا التوصيف لا أكثر.

[113] يقصد من غير الروس، لأن معظم الروس يدينون بالمذهب الارثوذكسي.

وتحدث هوفمان عن هذه الصلة في مقال له نُشِر في 28 من تموز سنة 2014 على موقع وور أون ذا روكس war on the rocks الالكتروني، في تحليله للصلة المتزايدة بين الأعمال الروسية ومفهوم الحرب الهجينة، ووضع هوفمان نقطتين مهمتين للغاية، **الأولى** هي انتقاد نموذجه التفسيري الأصلي لتركيزه البالغ على الجمع بين التكتيكات المترافقة بالعنف والحرب، وعدم التطرق لـ "الأدوات التي تشمل الأعمال الاقتصادية والمالية، وأعمال التخريب السياسي أو العمليات الاعلامية". **والنقطة الثانية** في مساهمة هوفمان في هذه المرحلة من النقاش كانت طرحه الحاجة لوقف التفكير بالحروب على أنها "تناغم رتيب ونماذج حروب على طريقة كلاوزفيتز عند التخطيط لخوض الحرب والانتصار بها"، وكذلك تشجيعه على اعتبار الأعمال الروسية على أنها حرب هجينة، "فربما من الأفضل اعتبار أن النمط الهجين هو الذي سادها أكثر من اعتبارها من النمط السياسي أو النمط الجديد". وهذه الخطوات كانت بلا شك مهمة في توافق الخطاب عن الأعمال الروسية في شبه جزيرة القرم وشرقي اوكرانيا على انها حرب هجينة. وعلى كل حال، فقد بدأت هذه الرابطة بين الأعمال الروسية والحرب الهجينة باكتساب قوتها الجاذبة بعد قمة الناتو في ويلز، فمن ناحية لم يُشِر إعلان قمة ويلز في مناقشاتها للأعمال الروسية العدائية الى التصرفات الروسية بشكل مباشر على أنها حرب هجينة، ولا حتى لفكرة التهديدات الهجينة. ومع ذلك فقد عادت فكرة التهديدات الهجينة التي رُفِضَت في البداية سنة 2012 للظهور بوضوح كما صرّح أعضاء الناتو:

سنتأكد من أن الناتو قادر على مواجهة التحديات التي تطرحها تهديدات الحرب الهجينة، حيث يتم استخدام نطاق واسع من التدابير العسكرية والبرلمانية والمدنية العلنية والخفية في تخطيط متكامل على أعلى المستويات. من الأساسي أن الحليف يمتلك الأدوات اللازمة والتعليمات المطلوبة للردع والرد الفعال على التهديدات الهجينة... لقد أصدرنا الأوامر بالعمل على مراجعة الحرب وفي نفس الوقت وضع خطة للجاهزية.

الحلقة المفقودة بين روسيا وهذا المفهوم للتهديدات الهجينة قدّمها مجلس الأطلسي في أول يوم من قمة الجنرال فيليب بريدلوف القائد الأعلى السابق لأوروبا: *"ما نراه في روسيا الآن في هذه الطريقة*

من الحرب الهجينة هو استخدام كافة الأدوات التي يمتلكونها وتحريك المشاكل التي يستطيعون بدئها لاستغلالها من خلال أداتهم العسكرية".

الموجة الأولى من الخطاب حول الحرب الهجينة الروسية:

جاء الخطاب الأكاديمي والمهني حول الحرب الروسية الهجينة بعد قمة ويلز في شهر أيلول سنة 2014، ويمكن تقسيمه الى ثلاث موجات.

الموجة الأولى جاءت بداية خريف سنة 2014 وكانت الى حد بعيد بقيادة المفكرين العسكريين من شرق أوروبا، ومن الممكن الإشارة الى ثلاث مبادئ سردية ظهرت في أكثر المقالات التي كتبها هؤلاء المؤلفون، **المبدأ الأول** الإشارة الى الفيديو الذي ورد ذكره آنفاً والذي نشرته صحيفة ريفيو التابعة للناتو، كدليل على اعتراف الناتو بأن الأعمال الروسية في أوكرانيا تمثِّل حالة حرب هجينة، وفي الوقت الذي لم يكن فيه الغرض من الفيديو وضع صلة بين مفهوم التهديدات الهجينة والأعمال الروسية، فيبدو أن مؤلفي هذه المقالات فهموا ذلك على نحو مختلف، ويستخدمونه كدليل قاطع على هذه الصلة المفاهيمية. وبنص إحدى المقالات: "لقد سمَّى الناتو مسبقاً الأعمال الروسية بحرب هجينة...على موقع الناتو الإلكتروني نجد فيلماً وثائقياً قصيراً حيث يحاول المسؤولون توصيف وإيجاد إجراءات ضد هذا النوع من التهديدات.

وهذا يقودنا الى **المبدأ الثاني** المشترك لهذه المقالات وهو الربط المفاهيمي للمفاهيم السابقة الموجودة عن التهجين. حيث تترسخ الصلة المفاهيمية بين نظرية الحرب الهجينة والأعمال الروسية في تحليلاتهم في الكتابات والمؤلفات المفاهيمية عن الحرب الهجينة والتهديدات الهجينة إما في صيغة هوفمان المحدودة كما وضعها مع مؤيديه أو الصيغة الموسَّعَة التي وضعها الناتو في شهر كانون الاول سنة 2010. بمعنى أن ما كان في البداية تحت عنوان الحرب الروسية الهجينة لأنه فقط يبدو توصيفاً تقديرياً، بات جزءاً من نقاش أوسع حول المفهوم الممتد على مدى عقد قبلها، وكما يستنتج أحد الخبراء الرومان:

رغم أن أعضاء الناتو لم يعرفوا في البداية أين يصنفون الحرب الاوكرانية، بسبب عقيدتهم القتالية التي تقسِّم الحروب الى تقليدية وغير تقليدية، فقد استطاعت الدراسات العسكرية التي أعدّها الخبراء في هذا الحقل أن تفرض الحرب الهجينة، وهو المفهوم الذي يعرفه الجميع اليوم.

المبدأ الثالث من السرد الذي يمكننا تتبعه في معظم المقالات التي نشرها الخبراء الغربيون في النصف الثاني من سنة 2014 هو الدعوة الى مساعدة أعضاء الناتو في التصدي لـ "أعمال الفيدرالية الروسية التي قامت بها ضد أوكرانيا، والتي ارتقى فيها مستوى التلاعب وأعمال الإقناع والعمليات غير التقليدية والحرب الاقتصادية وحرب الطاقة والحرب الاعلامية والحرب السيبرانية الى مستوى الفن.

ولذا "إن القوى الديمقراطية التي يمثلها هنا حلف شمال الأطلسي، بمجرد تحديدها للخطر الذي يمثله الاتحاد الروسي من خلال سياسته التوسعية التي يروج لها في هذه اللحظة والتي لم تتغير على مر القرون، ستخلق قدرات لمواجهة هذه التهديدات".

بمعنى أنه كما قال ثلاثة ضباط رومان: "يتحمل الناتو مسؤولية مساعدة حلفائه على الحدود الشرقية ضد أي عدوان روسي، خصوصاً أولئك الذين تأثروا باستخدام تكتيكات غير تقليدية مثل اوكرانيا والتي قد تُسَبِب ظهور تحديات وتهديدات خاصة بهم".

الموجة الثانية من الخطاب حول الحرب الهجينة الروسية:

بدأت الموجة الثانية من الكتابات التي تناقش الحرب الروسية الهجينة كتهديد رئيسي لأمن أعضاء الناتو سنة 2015 بعد نشر المقالات التي ذكرناها آنفاً والتي كتبها مختصون من أوروبا الشرقية. وتضمن العمل على الموضوع الذي أُنتِج تلك السنة تحليلات من الدول الاسكندنافية ودول البلطيق[114] وبريطانيا والولايات المتحدة والبلدان الغربية الأخرى بقيادة الناتو. وكذلك كميات كبيرة

[114] دول البلطيق أو الدول البلطيقية اسم يُطلَّق على ثلاث دول في أوروبا الشمالية وهي إستونيا ولاتفيا ولتوانيا، كانت فنلندا تعتبر سابقاً الدولة الرابعة إلا أنها استُبعِدَت منها بمرور الزمن.

من الأبحاث التي قام بها خبراء الناتو سنة 2015 حول موضوع الحرب الهجينة الروسية، كما نظّم الناتو مؤتمرات رفيعة المستوى حول الموضوع، "كردٍّ فعل من الناتو على التهديدات الهجينة"، والتي نظّمتها الكلية الحربية التابعة للناتو في نيسان سنة 2015 ووُصِفَت على أنها "أكبر مؤتمر أكاديمي يقيمه الناتو"، بعنوان "مواجهة التهديدات الهجينة: الدروس المستفادة من التجربة الاوكرانية" وهي الورشة التي أقامها الناتو في مدينة بوخارست[115] في الثامن والعشرين من أيلول سنة 2015.

يمكن تحديد التطورات الرئيسية في الموجة الثانية من أدبيات الحرب الروسية الهجينة سنة 2015 بثلاث تطورات، وكانت **الأولى** محاولة لتوسيع الصلة المفاهيمية بين النظريات السابقة الراسخة عن التهديدات الهجينة والأعمال الروسية في أوكرانيا. وتميّز الطرح الجديد بتحليل مفاهيمي أعمق للربط بين نظرية الحرب الهجينة وأعمال الكرملين في أوكرانيا. ويوجد الكثير من المقالات المختلفة والأوراق التي تحاول توسيع الفهم المفاهيمي للحرب الهجينة في سياق الصراع المستمر في أوكرانيا, إلا أن واحدة من أشمل الأعمال التي تتناول هذا المفهوم قام به أندراس راكز [116] من المعهد الفنلندي للشؤون الدولية، وبعد ما يزيد على 100 ورقة في النظريات التاريخية والتحليلات المفاهيمية للاعتبارات المختلفة للحرب المتزامنة، بما في ذلك دراسة لمصائد عسكرية تاريخية مختلفة مثل فيتنام والشيشان وأفغانستان والعراق ولبنان وكذلك التحليل في العمق للأعمال الروسية في أوكرانيا، يستنتج راكز ما يلي:

على العموم، عند التفكير في المصطلح الواجب استخدامه لوصف طريقة الحرب الجديدة في روسيا المنتشرة في القرم وأوكرانيا الشرقية، يمكن أن يجد المرء أن تعبير الحرب الهجينة بات المصطلح الأكثر استخداماً، ويحدث هذا على الرغم من حقيقة الرأي العلمي العسكري الصارم الذي يقول بأن

[115] بوخارست: عاصمة رومانيا.

[116] الدكتور أندراس راكز، باحث في العلوم السياسية والعلاقات الخارجية، تتركز أبحاثه على الشؤون الخارجية والأمن والدفاع لروسيا وبيلاروسيا ومولودوفيا وجنوب القوقاز وهنجاريا والتعاون بين هذه الدول وتاريخها العسكري.

الحرب الهجينة بالأصل لها معانٍ مختلفة –وإن كانت متصلة ببعضها البعض– وحقيقة أن الناتو تبنى المصطلح ساهم بلا شك في انتشاره أكثر.

ولم يكن راكز هو الوحيد الذي تساءل عن صلة مفهوم الحرب الهجينة بالتدخل الروسي في أوكرانيا. فعلى سبيل المثال عند مناقشة تطبيق نظرية الحرب الهجينة على الأعمال الروسية في أوكرانيا، يقول فريدمان:

وُصِفَ التدخل الروسي على أنه مثال عن الحرب الهجينة، واكتسب هذا المصطلح شعبية بعد ما قيل عن مفاجئة الكيان الصهيوني وإحباطه خلال حرب 2006 في لبنان بعد الجمع بين تكتيكات حرب العصابات والحرب التقليدية التي اعتمدها حزب إيران اللبناني... وكما في العديد من المفاهيم المشابهة–مثل الحرب المتزامنة– حالما يتم اعتمادها كمصطلح فني تكتسب ميولاً نحو تعريف أوسع. ولا يشير هذا النوع من الحرب الى ظاهرة جديدة، إذ يوجد العديد من الأمثلة في التاريخ العسكري للجمع بين الصيغ النظامية وغير النظامية من الحرب.

وتقدّم هذه الأعمال المبنية على تحليلات نظرية وتاريخية عميقة تحذيراً مبكراً من التنافر في المفاهيم بين نظرية الحرب الهجينة وتطبيقها على أعمال الكرملين في القرم وشرقي أوكرانيا. ورغم أن عدد مثل هذه المقالات يبدو قليل الأهمية عند مقارنتها بكمية المؤلفات والمقالات التي تدّعي شن روسيا حرباً هجينة في أوكرانيا.

والسمة الرئيسية **الثانية** لهذا الطرح هو محاولة شرح التصرف الروسي عبر تفسير المؤلفات العسكرية الروسية والعقيدة القتالية بشكل عام، والمقال الشهير المنشور سنة 2013 لرئيس هيئة الأركان العامة الروسية الجنرال فاليري جيراسيموف، على وجه الخصوص. وعبر تفسير أو سوء فهم ما يسمى نظرية حرب الجيل الجديد، كما ناقشها جيراسموف في عدة مناسبات، وكذلك الضابطان الروسيّان سيرجي كريكينوف وسيرجي بوغدانوف، في سلسلة من المقالات نُشِرَت في مجلة الفكر العسكري؛ وهي المجلة الرئيسية لفريق الجنرالات الروس، فقد وجد العديد من الخبراء

الغربيون المسوّغ المفاهيمي للإجراءات الروسية في أوكرانيا، بحجة أن مفهوم حرب الجيل الجديد ما هي إلا الكيفية التي تتصوّر فيها الحرب الهجينة. وكما قلنا سابقاً عندما حذّرت بعض الأصوات من أن توصيف الأعمال الروسية في أوكرانيا على أنها حرب هجينة سيكون تضليلاً، وهذه الصلة في المفهوم بين حرب الجيل الجديد والحرب الهجينة تتعرض لانتقادات لاذعة من العديد من الخبراء الروس في الاستراتيجية الروسية. فعلى سبيل المثال قال ديما ادامسكي[117] في شهر تشرين الثاني سنة 2015:

عندما نكتشف نظرياً وتطبيقياً الفن العملياتي الروسي، فيجب أخذ المصطلحات الفنّيّة بعين الاعتبار... وتطبيق إطار المفاهيم الغربية في الحرب العالمية الثانية لشرح الفن العملياتي الروسي، دون دراسة المراجع الروسية لهذا المصطلح، يعزله عن السياق الفكري الروسي، ودون مضاهاته بما يفكر به الروس عن أنفسهم وعن الآخرين، قد يؤدي الى تصوُّرات خاطئة.

ومع ذلك، ورغم هذا التحذير فقد استمرت الرواية القائلة بأن روسيا كانت تخوض حرباً هجينة في أوكرانيا–والمدعومة الآن بفكرة أن روسيا كانت تطوِّر هذا المفهوم في فترة ما قبل الأزمة الأوكرانية– باحتلال صدارة النقاش المهني والاكاديمي. **والتطوُّر الأكاديمي الثالث** الرئيسي في الموجة الثانية من هذه الأدبيات هي التحوُّل لرواية "الدعوة للعمل"، وفي سنة 2014 كانت هذه الدعوة مقتصرة على الدعوات الإنشائية لكسب مساعدة أعضاء حلف الناتو من أوروبا الغربية، لكن اعتباراً من 2015 بدأ أعضاء الناتو في الانخراط في نقاش مثمر وبنّاء بدرجة أكبر من ذي قبل، حول ما يمكن أو يجب على الحلفاء فعله. **واتَّسم هذا التغيير في الخطاب بإدراك أن الناتو كحليف عسكري لديه إمكانات محدودة للرد على ما يسمى بالحرب الهجينة الروسية المتعددة الأبعاد**، كما يرى خبير إستوني:

[117] ديما آدمسكي زميل في برنامج دراسات الأمن وطني في جامعة هارفارد، وكان زميلاً زائراً في معهد الحرب والسلام للدراسات في جامعة كولومبيا، وفي المعهد النرويجي للدراسات الدفاعية.

لن يواجه الأعداء كامل طيف التحديات التي تضمها الحرب الهجينة وبدلاً من ذلك يجب أن يحافظوا على تركيزهم على القضايا العسكرية... إذ سيكون من المهم وجود الموقف القوي للحليف التقليدي في دول البلطيق ليس فقط في إغلاق الفرص العسكرية التقليدية السهلة لروسيا، بل في مواجهة استخدام التكتيكات الهجينة.

ونتيجة لهذا الإدراك، قام حلف الناتو في الفترة التالية باتخاذ بعض التدابير العسكرية لتعزيز قدرته على مواجهة التحديات التي تفرضها روسيا، ويشمل هذا تبني خطة الجاهزية لزيادة حضور ونشاط الناتو العسكري في شرقي اوروبا ودول البلطيق، وإيجاد قوة المهام المشتركة عالية الجاهزية: "كتيبة متعددة الجنسيات... قادرة على الانتشار في غضون عدة أيام لمواجهة أية تهديدات أو تحديات يمكن أن تظهر على حياض الناتو"، وفي نفس الوقت اعترف الناتو بأن نشر القوات العسكرية لن يوفِّر سوى حل جزئي للتهديدات الهجينة ودعا من أجل مزيد من التعاون بين الناتو والاتحاد الأوروبي و"التنظيمات الأخرى ذات الصلة مما يمكن أن يلعب دوراً متمماً في الرد على التهديديات الهجينة".

الموجة الثالثة من الخطاب حول الحرب الهجينة الروسية:

في مراجعة للإنتاج الفكري عن الحرب الهجينة الروسية سنة 2014، سأل أحد الخبراء الأمريكيون: هل ستكون سنة 2016 هي السنة التي نعود فيها الى رشدنا؟... مناقشة اليوم عن الاستخدام الروسي للحرب الهجينة بات خطاباً عن شيء أكثر غموضاً، فيما يشبه السحر الأسود، التعميمات حول "الحرب الروسية الهجينة" ليست عديمة الجدوى فقط بل إنها تصبح فكرة مبتذلة.

ولم يكن هو الوحيد ممن يشكك في قابلية تطبيق مفهوم الحرب الهجينة على الأعمال الروسية في القرم وشرقي أوكرانيا، ففي الواقع منذ سنة 2016 وما بعدها، أضاف عدد كبير من الباحثين مزيداً من الانتقادات الى الشكوك التي تتناول أهمية المفهوم الذي اعتنقه فريدمان وادامسكي وريتز وآخرون، فقال بيتنا ريتز وهانا سميث على سبيل المثال:

لا تعكس الحرب الهجينة بكفاءة مكوِّنات واتجاه التحديث العسكري الروسي... وفي نفس الوقت تعبّر عن الطموحات الروسية في المغالاة في تقدير الامكانات الروسية، "الحرب الهجينة" تزيد من تبسيط السياسة الخارجية الروسية الدولية، وهي أكثر تعقيداً مما يوحي به تصنيفها... كما لا تخبرنا شيئاً عن الأهداف الروسية وتشير خطئاً الى أن السياسة الخارجية الروسية تحرّكِها استراتيجية عالمية كبرى.

هذه الشكوك على قابلية تطبيق المفهوم على الأعمال الروسية ترافقت باثنتين من الروايات المترابطة، كانت الأولى دعوة للتفكير " بالطريقة الروسية– أي فهم دوافع موسكو، ورؤيتها للمواجهة الحالية"، وهذه المحاولة لفهم الأعمال الروسية من وجهة النظر الروسية أنتجت كمية كبيرة من الكتابات التي تركّز على التفسيرات الروسية للأطوار المتغيرة من الحرب. وعلى الرغم من أن هذا التحليل بدأ في السنة السابقة كما رأينا من قبل، ستثبت سنة 2016 أنها السنة التي تتزايد فيها التحليلات عن الأدبيات العسكرية الروسية بشكل كبير.

هذا التركيز على الطبيعة المتغيرة في الخطاب الروسي للحرب ربما كان السبب الرئيسي لبدء الباحثين برفض امكانية تطبيق المفهوم "أي الحرب الهجينة" على الأعمال الروسية، رغم أنها أدّت للموجة الجديدة الثانية من النقاش، فقد تشعَّب التحليل الى طورين: العسكري وغير العسكري. وعاد النقاش حول الامكانات العسكرية الروسية الآن الى صيغ أكثر تقليدية في التحليل، مؤكداً التطورات في كل من الامكانات العسكرية الروسية الصلبة (أي الامكانات العسكرية المادية)، والامكانات الناعمة (العقيدة القتالية ونتاج الفكر العسكري الروسي). وفي نفس الوقت التركيز على الاستخدام الروسي للوسائل والطرق غير العسكرية في المواجهة مما أدى للتركيز على مفهوم جديد في الغرب حول الحرب الاعلامية/السيبرانية.

صعود الحرب الروسية الاعلامية / السيبرانية:

كانت الحرب الروسية الاعلامية/السيبرانية موضوع النقاش لدى الباحثين الغربيين منذ أواخر سنة 1990 بتحليلات للتفكير العسكري الروسي واستخدام العمليات الاعلامية والسيبرانية في الشيشان وجورجيا. ورغم أهميته الواضحة فقد احتل هذا الموضوع موقعاً هامشياً في التحليل الأوسع للشؤون العسكرية الروسية حتى بداية الأزمة الاوكرانية. ومنذ سنة 2015 وبداية الأزمة بات موضوع الحرب الاعلامية والسيبرانية الروسية حلاً علاجياً للغموض في مفهوم الحرب الهجينة وعلاقتها بالأعمال الروسية ليس فقط في القرم وشرقي اوكرانيا بل في دول البلطيق أيضاً وشرقي أوروبا وأي مكان آخر في العالم الغربي، ويركّز ما كُتِبَ عن الحرب الاعلامية والسيبرانية الروسية بشكل عام على ما يسمى "عقيدة جيراسيموف"، وعلى مفهوم "حرب الجيل الجديد" والنظريات الروسية الأخرى عن طبيعة الصراعات الحديثة، بغية محاولة فهم الأعمال الروسية من خلال رؤية أضيق من المعلومات والحرب السيبرانية أكثر من الحرب الهجينة. وأثبتت هذه المحاولة أنها أكثر إنتاجية بالمقارنة مع الجهود لشرح الأعمال الروسية من خلال مفهوم الحرب الهجينة، مثل (بخلاف مفهوم الحرب الهجينة) نظرية الحرب الإعلامية التي نوقِشَت على نحو واسع في روسيا، مما وفّر أرضية خصبة لتحليل الحرب الاعلامية / السيبرانية في أوكرانيا ودول البلطيق وحولهما، كما وفّرت رابطة مفاهيمية بين النهج السوفياتي في الصراع والتصرف الروسي المعاصر.

وهكذا، واستناداً الى الميل لرفض انطباق مفهوم الحرب الهجينة على الأعمال الروسية، تحول الانتباه بشكل متزايد الى استخدام روسيا للمعلومات والحرب الهجينة. وقاد هذا التغيير مركز الاتصالات الاستراتيجية للتمييز الذي أسسه الناتو حديثاً في ريغا[118]، والذي نشر واحداً وعشرين ورقة بحثية ومقالاً وكتاباً، منها أربعة عشر تركّز على الأنشطة السيبرانية والاعلامية الروسية، ما بين كانون الثاني سنة 2014 وبداية سنة 2017. لكن أعلى صوتين في النقاش أصبحا بلا شك

[118] ريغا عاصمة لاتفيا.

كير جيلز[119] ومارك جاليوتي[120]، فقد طوّر كلاهما وارتقيا بسردين منفصلين –لكن متشابهين– عن الحرب الاعلامية والسيبرانية الروسية.

وكير جيلز هو زميل مشارك في برنامج روسيا وبرنامج اوراسيا في كاثام هاوس ومدير مركز دراسات وأبحاث الصراع، الذي يركِّز على أمن أوراسيا، ونشر سنتي 2015 و2016 العديد من المقالات والأوراق البحثية طوّر من خلالها فكرة الحرب الاعلامية والسيبرانية الروسية كأكثر منظور مفاهيمي مفيد يمكن من خلاله فهم التصرفات الروسية الاستراتيجية. وسلّط جيلز الضوء على الاختلافات الجوهرية بين المنهجية الروسية والغربية في هذه القضية، مستفيداً من ترسُّخ تحليله في معرفته الواسعة للنتاج النظري والمفاهيمي وما يتعلق بالعقيدة القتالية الروسية في عمليات الحرب الاعلامية والسيبرانية، حيث قال إن الغرب فشل فشلاً ذريعاً في اتخاذ تدابير فعالة لمواجهة الحرب الروسية في هذه المنطقة.

مارك جاليوتي أحد كبار الباحثين في معهد العلاقات الدولية في براغ، على الرغم من أنه لا يستخدم مصطلحات الحرب الاعلامية والسيبرانية لوصف الأعمال الروسية، فكلامه مشابه جداً لكلام جيلز، وفي كتابه سنة 2016 بعنوان "الحرب الهجينة الروسية أم الغربية؟" يقول جاليوتي:

الغرب منخرط في حرب، وليست حرباً من الطراز القديم التي تُخاض بقعقعة السلاح، بل هي نوع جديد يُخاض بحفيف المال وأصوات أرباب الدعاية الهادرة، وهمس الجواسيس المتخفِّين... إن هذه الحرب السياسية التي تشنها موسكو ضد الغرب لا تهدف الى تهيئة الأجواء للغزو بل الى التقسيم والإحباط وصرف الانتباه بما يكفي لجعله غير قادر على المقاومة وليؤكِّد الكرملين

[119] كير جيلز كاتب وأكاديمي بريطاني، خبير في قضايا الأمن الروسي والقوات الروسية الفيدرالية المسلحة، ودرس في مدرسة اورلي فارم وجامعة ونستر، وهو زميل استشاري في معهد رويال للشؤون الدولية.

[120] مارك جاليوتي بروفيسور فخري في جامعة يو سي إل للدراسات السلافية والشرق اوروبية وزميل مساعد في معهد رويال للأمن، إضافة الى زميل غير مقيم في معهد العلاقات الدولية في براغ والرئيس السابق لمركزه للأمن الأوروبي.

ادعاءاته بأنه "قوة عظمى" وفي عملية تهدف لبسط النفوذ على معظم دول ما بعد الاتحاد السوفياتي في أوراسيا.

وهذا مشابه جداً لملاحظات جيلز:

إن المسارات الحالية تشير الى أن مزيداً من المواجهات بين روسيا والغرب ستقع حتماً... وتثبت القرم بأن روسيا لا يجب أن تنتظر حتى اكتمال تحولها العسكري لاستخدام قوتها العسكرية بنجاح، ويعود هذا الى مضاعفيّ قوة أساسيين: الأول هو الرغبة السياسية الروسية لاستعادة القوة عند الضرورة... والثاني هو التكامل الناجح لأدوات القوة الأخرى مثل الحرب الاعلامية، التي تعكس التأكيد على العقيدة الجديدة لنشر النفوذ أكثر من نشر الدمار.

ويقيم الكاتبان في تحليلهما رابطة مفاهيمية قوية بين التفكير الاستراتيجي الروسي المعاصر والممارسة السوفياتية، حيث يقول جيلز:

تمثِّل التقنيات التي نراها في أوكرانيا وما حولها ذروة العملية التطويرية لنظرية الحرب الاعلامية وتطبيقها، بهدف إحياء التقنيات السوفياتية المترسخة للتخريب وزعزعة الاستقرار وتحديثهم ليواكبوا عصر الانترنت. ويعود الاستخدام الروسي المبتكَر لوسائل التواصل الاجتماعي الى خبرة روسية ضاربة الجذور في ممارسة هذا النوع من الأساليب.

وبالمثل يقول جاليوتي:

أوجدت العمليات الروسية الأخيرة في أوكرانيا، وخصوصاً الاستخدام المتكامل للميليشيات وقُطَّاع الطرق وعمليات الحرب الاعلامية والمخابرات والقوات الخاصة، حالة من القلق للغرب بسبب "الطريقة الجديدة للحرب"... إنهم لا يستخدمون التكتيكات العديدة التي يعرفها الغرب جيداً, بل لديهم جذورهم التي تعود الى حقبة الاتحاد السوفياتي وما قبل الاتحاد الروسي.

لكن صنع هذه الصلة المفاهيمية قد يدعو للقول بأن جاليوتي وجيلز قد أكدا كثيراً على التفسير الروسي للصراعات المعاصرة كما عبّر عنه الخطاب العسكري الروسي/ السوفياتي. بينما كانت نية كلا الكاتبين هي محاكاة النهج الروسي في الصراعات المعاصرة، حيث يمكن القول أنهما بذلك ابتعدا كثيراً عن هذا الهدف، بدايةً برؤية العالم عبر "العين الروسية" أكثر من منظور التحليل النقدي. على سبيل المثال: يستنتج جاليوتي أن *"الشبكة الغربية المتكاملة؛ شبكة عالمية تكتنفها تهديدات عديدة منها ما هو حقيقي ومنها ما هو من ضمن تصوراتها، ومواجهة الأزمات الضمنية للثقة بالنفس والشرعية، تكتنفها نقاط ضعف محددة يستغلها الروس بإصرار واستمرار"*، تحمل في طياتها أكثر من تشابه عابر لمفهوم هوفمان عن حرب التخريب، والذي نوقِش في فصل سابق. وبشكل مشابه يقول جيلز بأن *"الإرث الفكري الذي يتخلله اتجاهات ما بعد الحداثة والمواقف النسبية قد مهّدت الآن أرضاً خصبة لحملات الخداع والتضليل، ليس بين المؤرخين والأكاديميين الغربيين أو بين السياسيين اليساريين فحسب، بل بين قطاعات واسعة من المجتمع أيضاً"*، ومن الواضح أن هذا لا يتوافق مع مفهوم مسنر لحرب التخريب فقط بل مع نظرية بانارين لحرب المعلومات ومفهوم دوجين لحرب الشبكة المركزية (الفصل الرابع). أي أن جيلز وجاليوتي أدخلا في النهاية مع التفسير الروسي للمواجهة بين الغرب وروسيا الى مركز الأكاديمية الغربية والنقاش السياسي، في جهودهما لإيجاد بديل مفاهيمي لمفهوم الحرب الهجينة وعلاقته بالأعمال الروسية في اوكرانيا وغيرها، مدّعيين أن: "الردود الغربية على حرب المعلومات تحتاج مزيداً من الدراسة لبعض المنهجيات التقنية التي تتبناها روسيا".

وحتى سنة 2016 ركّز خطاب الحرب الاعلامية الروسي والعمليات السيبرانية بشكل أساسي على الأعمال الروسية في أوروبا، ثم بدأ هذا بالتّغَيُّر سنة 2016 مع الانتخابات الرئاسية الامريكية تلك السنة التي دفعت بالنظرية الى قلب الخطاب السياسي والأكاديمي الأمريكي، لتصل الى الذروة بعد تسريبات البريد الالكتروني للجنة الديمقراطية الوطنية. وعند هذه النقطة، وبالأخذ بعين الاعتبار أن المحاولات الروسية لتقويض الديمقراطية الامريكية ما تزال جزءً من النقاش السياسي المتواصل في

الولايات المتحدة، فمن المستحيل التوصل الى استنتاجات جازمة عن الموضوع وقت الكتابة (سنة 2017)، ومع ذلك فمن الممكن تحديد موضوع رئيسي لتحليل هذه القضية، فعلى حد تعبير تقرير صادر عن أجهزة المخابرات المركزية:

تمثِّل الجهود الروسية للتأثير على الانتخابات الرئاسية الأمريكية سنة 2016 أحدث تعبير عن رغبة موسكو الطويلة في تقويض النظام الديمقراطي الليبرالي بقيادة الولايات المتحدة، وكانت الأهداف الروسية مُنصبَّة على تقويض الثقة العامة بالعملية الديمقراطية الأمريكية... واتّبعت حملتها استراتيجية المراسَلَة الروسية التي تمزج بين عمليات الاستخبارات السرّية "مثل النشاط السيبراني" مع الجهود العلنية التي تبذلها وكالات حكومية روسية، ووسائل إعلام تموِّلها الدولة، ووسطاء كطرف ثالث، ومستخدمي وسائل التواصل الاجتماعي المدفوعين الأجر والذباب الالكتروني.

ويقدّم هذا التقرير دليلاً ضعيفاً جداً على أعمال الكرملين، ومع هذا فهي مهمة في السياق الحالي فهي تشير الى أن الأفكار التي روّج لها جيلز وجاليوتي وآخرون وجدت طريقها الى الخطاب السياسي السائد، ليس في أوروبا فقط بل في الولايات المتحدة أيضاً. **وهكذا فالتفسير الروسي الحالي للصراع على أنه يتكون من أعمال غير عسكرية تقوِّض الشرعية السياسية للعدو –بدلاً من تدميره مادياً– بات عنصراً مسيساً جداً في الخطاب حول السلوك الروسي المعاصر على الساحة الدولية.**

الاستخدام السياسي "التسييس" للحرب الروسية الهجينة \ الاعلامية \ السيبرانية:

تحليل النقاش

قاد الاستخدام السياسي للخطاب الغربي حول النهج الروسي في الحروب منذ بداية الأزمة الأوكرانية ثلاث مجموعات منفصلة: 1– الناتو عموماً وأعضاؤه الأوروبيون خصوصاً 2– المجتمع الأكاديمي 3–المؤسسة السياسية الغربية.

وكما قلنا سابقاً لم يفاجئ رد الفعل الروسي حيال الأزمة الأوكرانية الغرب فحسب، بل أوجد لغزاً مفاهيمياً تحمَّس الخبراء العسكريون الغربيون لحلّه، وهكذا فلم يُفاجَئ الغرب بما فعله الروس في القرم وشرقي أوكرانيا فقط بل بالطريقة التي فعلوا فيها هذا، إذ لم تتناسب أعمالهم مع أي من المفاهيم الغربية المستخدمة لتحليل الصراعات المعاصرة. ورغم أن التاريخ يعلّمنا أن الناس تميل للخوف مما تجهله، مما يجعلهم يسعون حثيثاً لفهمه وشرحه، وخصوصاً في سياق تراث العلاقات التاريخية بين الغرب وروسيا، فليس من المفاجئ أن الخطاب الغربي الذي يحيط بهذا اللغز الأكاديمي سرعان ما أصبح سياسياً عند جماعات مختلفة تتبنى أجندات مختلفة.

وكما أوضحنا آنفاً، لقد أمسى الناتو وخصوصاً أعضاؤه الغربيون واحداً من المصادر الرئيسية للاستخدام السياسي للحرب الروسية الهجينة والاعلامية والسيبرانية ضد الغرب. **وفي تحليله لخطاب الناتو السياسي منذ الحرب الباردة، يقول اندريس بيهانك[121] أن: *"استمرار وجود الناتو وأهميته يعتمدان الى حد بعيد على قدرة الحلف على بناء فضاء ثقافي يسمى (الغرب)، يوفِّر للدول الأعضاء فيه هوية وهدفاً مشتَرَكين"*. وأدى حل حلف وارسو سنة 1991 الى زوال عدو الناتو الرئيسي، مما أدى بدوره الى نقاش بين الحلفاء عن الغاية منه والهوية. ورغم أن اشتراك الناتو في حرب أفغانستان ساعد الحلف على الحفاظ على قوته الدافعة، إلا أنه لم يحل مشكلة الهوية والقيم، ورغم أن ما تسمى الحرب العالمية على الارهاب لم تجري بسبب قيم خاصة أو أعراف أسسها الناتو ليدافع عنها، بل بسبب شعور عالمي بالاستقرار والمرونة –ورغم أن بعض شركاء الناتو في هذه الحرب لم يكونوا جزءً من الغرب ولا يشاركونه بالضرورة قيمه – وزادت مشاركة الحلفاء في الحرب ضد الارهاب من أزمة الهوية أكثر من حلها. كما أن الأزمة الاقتصادية التي ضربت الاقتصادات الغربية نهاية العقد الأول من الألفية الجديدة، زادت من شعور انعدام الأمن وسط قيادة الناتو، كما أفادت دراسة أعدتها مؤسسة راند: *"إن القيود المالية***

[121] أندريس بيهانك بروفيسور في الكلية السياسية النظرية في جامعة ريدنج، وتشمل اهتماماته البحثية النظرية السياسية للعلاقات الدولية –وخصوصاً كارل شميت– الجغرافيا السياسية الحساسة والأمن والعولمة والسياسة الدولية.

والاقتصادية تعيد تعريف قدرة الناتو لتقديم الأمن في السنوات العشر القادمة. فالناتو لا يواجه مجرّد أزمة بسيطة قصيرة الأمد في الموازنة: بل يواجه موجة عالمية سيكون لها تأثير كبير على قدرة أعضاء الناتو الأوروبيين على نشر قوات على مسافات بعيدة أو إرسال تعزيزات".

وفي هذه الأجواء من أزمة الهوية وحالة الريب الاقتصادي العامة، أثبتت عملية إحياء التهديدات الروسية الهجينة أنها ملائمة لقيادة الناتو على المستوى الإنشائي والبلاغي، فوضع نموذج تفسيري وتَسيِس الأعمال الروسية في القرم وشرقي أوكرانيا كحرب هجينة جديدة تُعرِّض الغرب لخطر تقويض قيمه الديمقراطية الجوهرية خَدَمَت مصالح الناتو عبر ثلاث طرق. **الطريقة الأولى**: إحياء مفهوم الحرب الهجينة ذاته، مما يجبر الدول الأعضاء بالناتو على تخصيص مجموعة كاملة من الأنشطة التي تُصَنَّف خارج نطاق التحديات العسكرية التقليدية، وإحدى نتائج عملية الإحياء هذه على سبيل المثال: كانت تأسيس مركز الناتو للاتصالات الاستراتيجية للتمييز في ريغا، وهو ما نوقش لمدة طويلة، منذ أن بدأ الناتو متردداً بالعمل عليه منذ سنة 2013. وكما يقول إعلان قمة ويلز: *"سنؤكد على أن الناتو قادر على المواجهة الفعالة للتحديات المحددة التي تمثّلها تهديدات الحرب الهجينة(ولذا) نرحّب بتأسيس مركز الاتصالات الاستراتيجية للتمييز التابع للناتو في لاتفيا (عاصمتها ريغا) كمساهمة فعّالة في جهود الناتو في هذا الميدان".*

الطريقة الثانية التي خدمت بها فكرة الحرب الروسية الهجينة والاعلامية والسيبرانية مصالح الناتو هي أنها استُخدِمَت لتعزيز هوية المؤسسة كمُدافِع رئيسي عن القيم الغربية، وبالتالي باتت الرواية التي تقول أن إحياء روسيا كتهديد لهذه القيم باتت مستَخدَمَة كوسيلة لحل مشكلة أزمة الهوية لدى الناتو في حقبة ما بعد الاتحاد السوفياتي، وكما يقول ميشيل كوفمان[122]:

البلدان الغربية جيدة الاطلاع -كلاً على حدى- بامتداد النفوذ السياسي الروسي في شعوبهم، لكن الغرب اختار على المستوى الجمعي الحديث بالروايات ورسم صور كاريكاتورية عن كيفية استخدام

[122] ميشيل كوفمان يعمل مديراً لبرنامج الدراسات الروسية في مؤسسة سي إن آي وزميل في معهد كينان، ومركز وودرو ويلسون الدولي في واشنطن، وتركّز دراساته على روسيا والاتحاد السوفياتي السابق.

موسكو لأدوات القوة الوطنية, وهذا مفهوم كجزء من جهد لدفع الناتو وزيادة الحذر لدى الحلفاء والتأكيد على الأعضاء المتطوعين.

والطريقة الثالثة وراء الاستخدام السياسي للخطاب حول الأعمال الروسية هو أعضاء الناتو الشرقيين، ممن باتت أصواتهم هي الأعلى في هذه العملية لإعادة تعريف الأعمال الروسية في القرم وشرقي أوكرانيا كتهديد جديد للأمن وتكامل العالم الغربي. وبسبب تاريخ حقيقي من الخوف من جيرانهم الغربيين الأقوياء، طلب خبراء سياسيون وعسكريون من هذه البلدان مزيداً من الحماية من حلفائهم الأقوياء في الغرب. لكن يمكن أن يُقال أيضاً أن جهود هذه الدول لتسييس الحرب الروسية الهجينة والاعلامية والسيبرانية كتهديد رئيسي للقيم الغربية بات أيضاً بهدف كسب دعم مالي وعسكري، مما لا يقدّم لهم مزيداً من القوة العسكرية التقليدية فقط بل يقوّي شرعيتهم السياسية، وبالذات عند دول البلطيق. على سبيل المثال: لدى إستونيا ولاتفيا أقليات كبيرة تتحدث الروسية، ولطالما انتابهم القلق من التهديد الذي تمثِّله الحملات الدعائية الروسية، وهم تقليدياً يَصِفُون التخريب الروسي الكامن لمؤسساتهم السياسية على أنه "هجوم انقلابي". بمعنى أن –وفقاً لرأي الرئيس الليتواني، داليا جريبوسكيات– *"الناتو مجرد بوليصة تأمين، ولا يعني هذا أنك ستمرض لكن من الأفضل أن تحصل عليه"*, ولذا يجب على الناتو حمايتهم من أي عملية توحيد قد تقوم بها موسكو، بشكل مباشر أو غير مباشر. وتبقى قدرة الناتو لحماية أعضاءه من دول البلطيق من هجوم روسي تقليدي محط تساؤل، إلا أن رواية أن جناح الناتو الشرقي معرّض لأعمال روسية علنية أو خفية، اُستُخْدِمَتْ بالفعل لخدمة أغراض الحلفاء والأعضاء الشرقيين. **فمن ناحية**، استخدم الناتو هذه الرواية لتأسيس قوة المهام المشتركة للرد على أي تحديات جديدة "لا سيما تلك التي تظهر في محيط الناتو"، وبالتالي فتحسين التزام أعضائها سياسيا واقتصادياً " للعمل معاً وللدفاع المستميت عن الحرية وقيمنا المشتركة في الحرية الفردية وحقوق الانسان والديمقراطية وحكم القانون"، **ومن ناحية ثانية** من منظور دول البلطيق، الوجود الدائم لقوات الناتو على أراضيهم يقدِّم دليلاً على الضمان الموعود، وبذلك يقوّون المؤسسات السياسية الحالية لهذه الدول في عيون

شعوبها. أما إن كانت قوة الرد السريع قادرة على منع "أو حتى ردع" الأنشطة الروسية غير العسكرية لهذه الدول، مثل العمليات الاعلامية والسيبرانية، فهو موضوع آخر مختلف تماماً.

والمجتمع الأكاديمي هو **المصدر الثاني** لتسييس رواية الحرب الروسية الهجينة والاعلامية والسيبرانية ضد الغرب، لكن قبل تحليل عملية التسييس هذه، فمن المهم التأكيد على أن جزءً هاماً من النقاش كان محاولة لفهم الجمع المعقَّد للوسائل العسكرية وغير العسكرية والوسائل التي استخدمتها روسيا في القرم وشرقي أوكرانيا. حيث يقول فريدمان في وصفه للعلاقة بين الأكاديميين وصناع السياسة أنه: *"عندما تظهر مشكلة سياسية جديدة سيكون هنالك طفرة في النشاط مع توفّر المنَحْ المالية لهؤلاء الأكاديميين"*. وكما قلنا سابقاً فقد فاجأت الأعمال الروسية في القرم وشرقي أوكرانيا الخبراء الغربيين وحيّرتهم، ومنذ بات هذا الموضوع رائجاً منذ سنة 2014، قدّم العديد من الأكاديميين تحليلات وتعليقات وأبحاث عن هذا الموضوع. وبغضِّ النظر عن نوع هذه الأبحاث التي قام بها هؤلاء الأكاديميون، وفيما إن كانت ذات طبيعة مفاهيمية محضة مع مزيد من التأكيدات السياسية، في محاولة لتوجيه عملية صنع السياسة عبر الترويج (أو تحدي) المخاوف من فكرة أن الحرب الروسية الهجينة تهديد للعالم الغربي، فقد ساهموا جميعهم في تسييس الموضوع، وإبقائه في قلب الخطاب الغربي.

وقلّما يتوافق الأكاديميون مع بعضهم، مما يُوجِدُ حالة من التحدي والتفاعل المُنتِج بين المجتمع الأكاديمي وصناع القرار، وبالعكس يبدو أن هذا التفاعل بين الأكاديميين وصناع القرار –كما نرى في حالة الحرب الهجينة الروسية– قد أوجد موقفاً غير بنّاء حيث –بكلمات فريدمان– *"يتحوّل التفاعل الصعب الى حوار الصُّم"* يميل المسؤولون فيه الى الأكاديميين الذين يشتركون معهم في نفس الفرضيات ويعززون استنتاجاتهم. كما يقول فريدمان: *"ليس هذا النوع من المواجهة مع السلطة مما يبعد الأكاديميين عن الحقيقة، لكن أولئك ممن لديهم تفسيرات خاصة للحقيقة يمكن لهم أن يلاقوا آذاناً مصغية"*.

المصدر الرئيسي الثالث لتسييس للحرب الروسية الهجينة والاعلامية والسيبرانية ضد الغرب كان المؤسسة السياسية الغربية، فكما في أي رواية في الميدان السياسي، فقد استخدمت جماعات سياسية مختلفة فكرة التدخل الروسي في الشؤون المحلية لأغراض سياسية. على سبيل المثال في بريطانيا تم تحميل الكرملين مسؤولية انتشار فكرة استفتاء البريكست (خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي)، وفي ألمانيا أُتُهِمَت روسيا بتخريب فرص إعادة انتخاب المستشارة الألمانية أنجيلا ميركل، وفي الولايات المتحدة يُنظَرُ الى روسيا على أنها شوّهت سمعة مرشحة الحزب الديمقراطي هيلاري كلنتون لتأمين فوز دونالد ترامب. وبشكل عام فقد تبنت المؤسسة السياسية الغربية أجندة المخاوف التي روّج لها الناتو وخبراء أكاديميون معيّنون, وأفضل مثال عن هذا عبّر عنه تقرير سنة 2016 أعدّه معهد الاتحاد الاوروبي للدراسات الأمنية للبرلمان الأوروبي والقرار الذي جاء بعد التقرير بعنوان :*"الاتصالات الأوروبية الاستراتيجية بهدف مواجهة الحملات الدعائية"، وقال التقرير أنه: "على مدى السنوات القليلة الماضية ضربت الاتحاد الأوروبي بشكل متزايد رسائل عديدة بهدف زعزعة الاستقرار... تصل لدرجة حملات اتصالات استراتيجية. وهذه روّجت لها وقادتها روسيا، واستهدفت بجلاء الاتحاد الاوروبي على هذا النحو وطبيعته وسياساته".*

وبناءً على هذا التقرير توافق البرلمان الأوروبي على حل يقول إن: "الاتصالات الاستراتيجية الاوروبية جزء من حملة تخريب أكبر لإضعاف التعاون الأوروبي والسيادة والاستقلال السياسي وسلامة الأراضي لدول الاتحاد الأعضاء". كما انتقد التقرير: "الجهود الروسية للتشويش على عملية تكامل الاتحاد الاوروبي، وتشجب –في هذا الصدد– دعم روسيا لأي قوات معادية للاتحاد الاوروبي فيما يتعلق –على وجه الخصوص– بالأحزاب اليمينية المتطرفة والقوات الشعبية والحركات التي تنكر القيم الأساسية للديمقراطيات الحرة".

وهكذا فقد ردد الخطاب السياسي الغربي حول ما يسمى الحرب الروسية الهجينة أصداء السرد واللغة التي روّج لها الناتو وبعض أعضاء المجتمع الأكاديمي، وكما في أي رواية سياسية، استخدم السياسيون هذا الهاجس المتجدد عن الأعمال الروسية للترويج لأجنداتهم، وأفضل مثال عن ذلك

هو كون الصلة المزعومة بين حملة ترامب الانتخابية الرئاسية والكرملين, التي استخدمها داعمو ترامب ومعارضوه على حد سواء. وهكذا فحسب التقرير الذي أعدته وكالات الاستخبارات الأمريكية:

أمر الرئيس الروسي فلاديمير بوتين بحملة سنة 2016 للتأثير على الانتخابات الرئاسية الأمريكية، وكانت الأهداف الثابتة هي تقويض الثقة العامة بالعملية الديمقراطية الأمريكية، وتشويه سمعة المرشحة كلنتون والنيل من فرصها الانتخابية واحتمال فوزها بالرئاسة، كما نتوقّع أن بوتين والحكومة الروسية طوّرا مرجعية ثابتة للرئيس المنتخب ترامب، وعندما بدا لموسكو أن المرشحة كلنتون كانت على الأرجح ستفوز بالانتخابات، بدأت حملة التأثير بالتركيز على تشويه سمعة رئاستها المتوقعة.

وبعدها بشهر واحد قال رئيس طاقم البيت الأبيض: *"أكّد لي المستوى الأعلى من المجتمع الاستخباراتي بأن الادعاءات لم تكن مبالغاً فيها للغاية فقط بل خاطئة لدرجة أنهم متأكدون أن هذه القصة محض كذب"*.

ومع استمرار النقاش حتى وقت كتابة هذا الكتاب سنة 2017، فمن الصعب التوصل الى أي استنتاجات حاسمة حول أسبابها أو أهدافها الحقيقية، وكل ما يمكن قوله يقيناً هو أن هنالك أطرافاً سياسية مختلفة في الغرب تستخدم هذه الرواية عن التهديد الروسي لترويج أجندتهم وأخذ تفويض من أعدائهم السياسيين. وبالتأكيد الرواية المبدئية التي تحيط بالأعمال الروسية في القرم وشرقي أوكرانيا أُستُخدِمَت سياسياً لأهداف محلية، مما صنع صورة عن روسيا كتهديد أساسي للقيم الديمقراطية الغربية واستُخدِمَت هذه الصورة المخيفة للحصول على مكاسب سياسية محلية.

الخلاصة: الروس قادمون:

كما بيّنا في هذا الفصل، فالخطاب الغربي عن الحرب الهجينة الروسية، مع حرب المعلومات وعناصر الحرب السيبرانية، تضمُّ اعتبارين رئيسيين: مفاهيمي وسياسي. **على المستوى المفاهيمي:** بما أن الأعمال الروسية في اوكرانيا فاجأت الخبراء الغربيين، فالنقاش حول ما هو أفضل ما يمكن

شرحه لهم تطور على مرحلتين ناجحتين، وتضم المحاولة المبدئية تطبيق مفهوم الحرب الهجينة على التصرف والتكتيكات، وبفعل هذا وصل العديد من المراقبين الى نتيجة مفادها أن المفهوم قدّم صورة مضللة للأعمال الروسية. وبحلول سنة 2016 توقفت-بشكل عام- الجهود الرامية الى فهم النهج الروسي في الصراعات المعاصرة من خلال الإطار المفاهيمي الغربي، فقد بدأ عدد متزايد من الباحثين والخبراء بقبول نتيجة آدمسكاي بأن ***"استخدام المصطلحات والمفاهيم الغربية لتعريف النهج الروسي في الحرب قد يأتي بتحليلات خاطئة عن النهج العملياتي الروسي"***. أو كما يقول تيموثي توماي: ***"إن التداخل بين المفاهيم الغربية والتفكير الروسي لا يفيد دوماً، وإن لم تُفهَم المفاهيم الأجنبية المتطورة في سياقها المحلي، فإن الغرب سيستمر على الدوام بملاحقة المارقين دون أن يعرف مكانهم من الإعراب ضمن العمليات الروسية النظرية والتخطيطية الشاملة"***.

وهذا بدوره يقودنا الى شيء آخر نركز عليه، حيث يُستَبدَلً الإطار المفاهيمي الغربي بإطار مفاهيمي آخر نسعى من خلاله لفهم النزاعات المعاصرة من منظور الفكر العسكري الروسي، وبالتالي الترويج عن غير قصد (أو عن قصد) للتفسيرات الروسية للتقسيمات الجيوسياسية.

وجنباً الى جنب مع هذا النقاش المفاهيمي، بدأ الخطاب على **المستوى السياسي** يتشكّل، فالناتو على العموم وأعضاؤه من أوروبا الشرقية على وجه الخصوص استخدموا الرواية عن شن روسيا حرباً هجينة اعلامية سيبرانية ضد الغرب لإغلاق الثغرات في وجه عدو مشترك قديم/جديد بعد خمس وعشرين سنة من أزمة في الهوية ترافقت مع خفض في موارد الميزانية. **إن انبعاث الكرملين كَشَرٍّ مطلق، يهدف الى تخريب القيم الديمقراطية الغربية، لم يقدِّم لأعضاء الناتو الوحدة السياسية والدعم المالي المطلوب فقط بل أحيا الهدف التاريخي من انشائه وهويته عبر التأكيد على نقاط الضغط في الحنين الروسي الى الحرب الباردة واستخدام شرورها المعروفة جيداً، بحيل قادرة على تحقيق أهدافها الشريرة.** وفي الخطاب الغربي السياسي كانت الأعمال الروسية مصنّفة على أنها مشكلة في العلاقات الدولية والقانون الدولي والأمن العالمي، كما قال الرئيس أوباما سنة 2015:

نعرف التاريخ العميق والمعقّد بين روسيا وأوكرانيا، لكننا لا يمكن أن نقف مكتوفي الأيدي إزاء الانتهاك الفاضح للسيادة وسلامة أراضي إحدى الدول، فإن مضى ما يحدث في أوكرانيا دون عواقب، فيمكن أن يتكرر مع أي دولة موجودة هنا اليوم، وهذا أساس العقوبات التي تفرضها الولايات المتحدة وحلفاؤها اليوم على روسيا، وليس الرغبة في العودة الى الحرب الباردة.

لكن على الرغم من تطمينات أوباما، فرواية أن روسيا تخرّب الديمقراطية الغربية استخدمتها أطراف سياسية عديدة لأهدافها المحلية، وفي آذار سنة 2016, قال كوفمان معلّقاً على الهيستريا بين الحلفاء الأمريكيين والأوروبيين فيما يتعلق بالاستخدام الروسي الواضح للحرب الهجينة: *"إن الإحساس بالخوف في هذه البلدان كان أشبه بإصدار حديث من الخوف الأمريكي الأحمر خلال أربعينات وخمسينيات القرن الماضي"*. وبعد الانتخابات الرئاسية الأمريكية الأخيرة يبدو أن الولايات المتحدة تنحدر في ذات المسار، حيث يشجّع النقاش السياسي المتواصل حول التهديدات الروسية على عودة المرحلة السيئة الصيت التي سمّاها وزير الدفاع الأمريكي جيمس فوريستال[123]: "الروس قادمون". وكما بيّن هذا الفصل فقد تطوّر النقاش حول استخدام الروس لوسائل عسكرية وغير عسكرية في القرم وشرقي أوكرانيا الى خطاب أُستُخدِمَ لأغراض مفيدة على مستوى السياسة المحلية، من كونه مشكلة على النظام العالمي في سياق الصراع الجيوسياسي، الى توسيعه الى ادعاءات بأن روسيا تحاول إضعاف وتقسيم الاتحاد الأوروبي و"تقويض النظام الديمقراطي الحر الذي تقوده الولايات المتحدة".

[123] جيمس فوريستال وزير الدفاع الامريكي بين عامي (1944–1947).

"الحرب الهجينة ضدنا قادمة"

الاستخدام السياسي للحرب الهجينة الغربية وفق المفهوم الروسي:

كما رأينا في فصل سابق فمفهوم الحرب الهجينة وفقاً للنموذج الغربي مستوحى من الأفكار التي كانت سائدة في قلب الخطاب الأكاديمي والعسكري في روسيا منذ منتصف التسعينات. ويركّز الجزء الثاني من هذا الكتاب على التطورات المفاهيمية لفكرة "الحرب الهجينة التي يشنها الغرب على روسيا وفقاً للمفهوم الروسي"، أما هذا الفصل فيتناول الكيفية التي أثّرت فيها النظريات المختلفة التي تتناول هذه الفكرة على الفكر العسكري الروسي واستُخدِمَت سياسياً من قِبَلِ المؤسسة العسكرية والسياسية الروسية. ويتناول الجزء الأول من الفصل تطورات نظرية حرب الجيل الجديد، التي يزعم العديد من الخبراء الغربيين أنها تشبه في خصائصها مفاهيم حرب التخريب والشبكة المركزية والحرب الاعلامية (وبالتالي مفهوم الحرب الهجينة وفقاً للمفهوم الروسي). ويركّز الجزء الثاني من الفصل على تسييس هذه الأفكار، وعلى الطرق التي استخدم بها الجيش الروسي والمؤسسة العسكرية الروسية رواية الحرب الهجينة وفقاً للمفهوم الروسي لتحقيق أهدافه السياسية.

صعود حرب الجيل الجديد- قراءة سيرجي جيكينوف وسيرجي بوغدانوف:

إن نظرية حرب الجيل الجديد ترتبط ارتباطاً وثيقاً بعمل ضابطين روسيين، هما العقيد سيرجي تشيكينوف والعميد سيرجي بوغدانوف، وكلاهما من مركز الدراسات الاستراتيجية واسع النفوذ في أوساط هيئة الأركان العامة والقوات المسلّحة الروسية (تشيكينوف هو مدير المركز بينما بوغدانوف هو الباحث الرئيسي فيه). وكلاهما نشرا مئات المقالات والأوراق البحثية (كل على حدا أو معاً) في مواضيع مختلفة تتعلق بالشؤون العسكرية، ومنذ أواخر سنة 2005 لعبت منشوراتهما المشتركة عن الطبيعة المتغيرة للصراعات المعاصِرة دوراً حيوياً في تشكيل آراء المؤسسة العسكرية الروسية على العموم، وعلى وجه الخصوص آراء رئيس أركان هيئة الأركان العامة الروسية الجنرال فاليري

جيراسيموف[124]. ومع ذلك يجب قبل مناقشة مفهوم تشيكينوف وبوغدانوف وعلاقته بفكرة الحرب الهجينة وفقاً للمفهوم الروسي، تحليل آرائهما حول ظاهرة الحرب بشكل أعم بغية إلقاء الضوء على الإطار النظري الخارجي الذي أثّر في فكر الجيش الروسي منذ بداية القرن الحادي والعشرين. لقد بدأ تشيكينوف وبوغدانوف الكتابة عن حرب الجيل الجديد قبل أن تبدأ أفكار مسنر ودوجين وبانارين[125] ومؤيديهم بالتأثير على الخطاب الروسي الأكاديمي والعسكري، وكانوا أقرب الى التفاعل مع هذه الأفكار أكثر من محاولة تشكيلها. بمعنى أنهم في مناقشتهم لمفهوم الحرب الهجينة وفق المفهوم الروسي حاول المؤلفان التفكير ملياً بطبيعة المفهوم في الوقت الذي يُجَمّعِون فيه الأفكار الموجودة مع رؤيتهم وفهمهم للحرب، أكثر من التأثير في سمات المفهوم ذاته. وكان الاعتبار الأول والأهم في عمل تشيكينوف وبوغدانوف هو مناقشتهما للتحوُّل المستمر للحرب كظاهرة اجتماعية سياسية وعسكرية. إن تحليل هذه المناقشة يقدّم نظرة مهمة للغاية على الطريقة التي يفهمون فيها هذه الظاهرة وكيف طوّروا هذا الفهم في كتاباتهم، على سبيل المثال: في واحد من هذه المقالات المبكِّرة يشيرون الى تعريف كلاوزفيتز للحرب على أنها استمرار للسياسة، ويقول تشيكنوف أنه:

منذ عصر كلاوزفيتز، اجتاز الجنس البشري عصرين، وحروب القرن العشرين والقرن الحادي والعشرين مختلفتان جذرياً ليس في الشكل فقط بل في الجوهر أيضاً، فالحرب المعاصرة ظاهرة جديدة تماماً من حيث النوعية، وتحليلها يتطلب إعادة تقييم للمفاهيم الموجودة للتطورات الاجتماعية وتحسيناً للبنية المفاهيمية.

لكن عند الإشارة الى ذات الموضوع سنة 2017، قال تشيكنوف وبوغدانوف: ***"نرى أنه من المبكِّر جداً تغيير تفسير مفهوم الحرب، فهي كانت وستظل حتماً تُشنُّ، ويُستَخدَمُ فيها أنواع معينة من***

[124] فاليري فاسيليفيتش جيراسيموف جنرال روسي، ورئيس الأركان العامة الحالي للقوات المسلحة الروسية، ونائب وزير الدفاع الأول، خلفاً لنيكولاي ماكاروف، عيّنه بوتين في 9 تشرين الثاني 2012.

[125] مبتكري نظريات حرب التخريب وحرب المعلومات وحرب الشبكة المركزية.

***السلاح وينشأ فيها صراع منظّم بين الناس والدول والحلفاء والأحلاف"*. وهذا التضارب الواضح ليس تناقضاً بل تطوير لفهمهم للنموذج التفسيري لدور الوسائل والأساليب غير العسكرية في الصراعات المعاصِرة، وكذلك الاختلاف المفاهيمي بين "الحرب" و "المواجهة السياسية"، فهم يعتبرون أن:**

معيار وجود الحرب أو عدم وجوده هو المكان ودور الوسائل العسكرية وغير العسكرية في المواجهة السياسية. فإن كان الكفاح المسلح أو الأعمال العسكرية الأخرى للقوات المسلحة هم الأدوات الرئيسية لتحقيق غايات سياسية، وكل الوسائل الأخرى غير العسكرية وغير العنيفة موجّهة للتقليل من تأثير القوات المسلّحة المعبَّئة، فإنها الحرب.

تأتي بعد هذا، المواجهة السياسية، حيث يكون الضغط على وسائل العنف غير العسكرية، والقوات ليس لها من مهمة سوى التأثير لأن مجرد التواجد أو العمل دون استخدام النيران أو الضربات الجوية، وإنما عبر التظاهرات (بالقوة) التي تهدد باستخدامها واستخدام غيرها، وهذه ليست حرباً.

نظراً لأن التركيز الرئيسي للحرب الهجينة وفق المنظور الروسي على الوسائل والأساليب غير العسكرية، فمن المهم اقتفاء أثر دورهم ومكانهم في عمل تشيكينوف وبوغدانوف. وبتحليل المقالات التي كتبوها، سواء ككاتِبَين شريكين أو مستقلّين، فمن المهم الإشارة الى نتيجتين رئيسيتين تحددان نموذجهما التفسيري لدور الوسائل غير العسكرية في الصراعات المعاصرة.

النتيجة الأولى: مرتبطة بالحرب ومبنيّة على تحليلهما للعمليات التي تقودها الولايات المتحدة منذ نهاية الحرب الباردة، على سبيل المثال، يقول تشيكينوف في كتاباته عن العمليات التي قادتها الولايات المتحدة في العراق سنة 1991 ويوغوسلافيا[126] سنة 1999:

إن مصطلحات النصر في الحرب تتغير، ومبدأ تحقيق أهداف سياسية عسكرية للحرب والصراعات المسلحة بأقل قدر ممكن من الخسائر البشرية والمادية يكاد يسيطر على النظرية العسكرية وتطبيقاتها في الدول المتقدمة. وكنتيجة لهذا المبدأ لا تتوجّه الأعمال العسكرية للاستيلاء على أراضي العدو وتدميره بشرياً، بل قبل كل شيء: تحطيم إرادته وقدرته على المقاومة، وبالتالي إجباره على توقيع اتفاقية السلام وفق الشروط التي يمليها عليه عدوُّه.

وتطويراً لهذه الفكرة، يقول تشيكينوف بأن تحليله لهذه الصراعات تكشف **أن تآكل إرادة العدو ستتحقق من خلال الجمع بين الوسائل غير العسكرية الموجّهة بالإعلام وعمليات الحرب النفسية:** ***"الهدف من المعلومات والحرب النفسية لإضعاف الامكانات العسكرية للعدو في الصميم بأساليب غير عنيفة تستهدفه إعلامياً، وبالتالي تضليل شعبه وأفراد قواته المسلحة وتحطيم معنوياتهم".***

هكذا حرب –وفقاً لتشيكنوف وبوغدانوف– تتضمن أعمالاً غير عسكرية مبنيَّة على أنماط من الأساليب غير العنيفة تسبق عادة استهلال الأنشطة العسكرية حيث يقولان:

بناءً على نتائج تحليل الصراعات المعاصرة والحروب المحلية التي قادَتها الولايات المتحدة وحلفائها خلال العقود الأخيرة، فمن الممكن افتراض أن بلداً ما يخطط لعدوان، سيسعى لإحداث خلل في النظام المدني والعسكري ومنظومة القيادة والسيطرة في البلد، ويتم هذا التخطيط حتى في أوقات السلم أو في المراحل الأولى من العدوان، وفي هذه الفترة ذاتها تقوم الحكومات

[126] قصف حلف الناتو يوغوسلافيا (جمهورية يوغوسلافيا الاتحادية) خلال حرب كوسوفو، واستمرت الضربات الجوية اعتباراً من 24آذار حتى 10 حزيران من عام 1999، حين رضخ رئيس يوغسلافيا الصربي سلوفودان ميليزو فيتش لمطالب الناتو بوقف المجازر والانسحاب الفوري من اقليم كوسوفو ذي الأغلبية المسلمة.

والقيادات العسكرية لدول المواجهة بعدد كبير من الأعمال السياسية والاقتصادية والعسكرية والتنظيمية، وكذلك التعامل مع المشكلات الأخلاقية والنفسية والتضليل الاعلامي.

لكن هذا الفهم ليس من بنات أفكار تشيكينوف وبوغدانوف، كما هو منتشر على نطاق واسع في أوساط الاستراتيجيين الروس والمفكرين العسكريين. فعلى سبيل المثال يقول اندريه كوكوشين[127]:

يهدف التأثير النفسي والاعلامي والحملات الدعائية الخاصة بالدرجة الأولى الى خدمة مهمة القضاء على إرادة المقاومة لدى العدو وفرض حالة من الاضطراب في كل مفاصل السيطرة الرئيسية، لكن بوسائل أخرى، دون التأثير المادّي المباشر على أفراد العدو، وفي البيئة المعاصرة للأنماط المختلفة للحرب المحدودة والصراعات المسلحة، بدأت الجهود النفسية عموماً والحملات الدعائية الموجهة خصوصاً تلعب دوراً أكبر في عمليات صنع وإنقاذ السلام.

وبشكل مماثل يستنتج نيكولاي فولكوفسكي الذي حلل تاريخ الحروب الاعلامية منذ القِدَم:

تتزايد ثمرات الجهود والوسائل المستخدمة في الحرب الاعلامية بشكل كبير، فالحروب والصراعات المسلحة في العقود الأخيرة للقرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين تشكّل مثالاً واضحاً على هذا، إذ يُظهِر تحليلهم بما لا يدع مجالاً للشك بأن سير ونتائج الأعمال العسكرية أياً كان حجمها تذهب هباءً أمام فن الحرب الاعلامية.

النتيجة الثانية: فيما يتعلق بالوسائل والأساليب غير العسكرية التي استُخدِمَت في الصراعات المعاصرة مرتبط بما يعرِّفونه على أنه "مواجهة سياسية"، وبناءً على تحليل للتحوُّل الجيوسياسي الذي حدث منذ الحرب الباردة وكذلك العمليات التي ترافقت معه مثل العولمة والحرب الباردة وحالة التلازم المالي العالمي، والثورة التقنية في الاتصالات يصلان الى أنَّه:

[127] اندريه كوشكين تخرج من جامعة باومان الحكومية في موسكو، وهو عضو في الأكاديمية الروسية للعلوم الطبيعية، وبروفيسور في العلوم التاريخية.

في ظروف عمليات عولمة العالم، والتفوّق الاقتصادي الهائل للقوى الرائدة والتبعية المالية الكبيرة لمعظم البلدان الأخرى لهم (القوى الاقتصادية الرائدة)، ليس ثمة حاجة ملموسة لشن حروب على نطاق واسع. ومثل هذه الحروب ليست متوقعة بسبب عواقبها المدمّرة المتوقعة لاستخدام الأسلحة النووية، من ناحية، ومن ناحية ثانية بسبب الطرق والوسائل الجديدة التي وُجِدَت لتحقيق الغايات السياسية والاستراتيجية بشن حروب وصراعات محلية عبر الضغط السياسي والاقتصادي والاعلامي، وعبر أعمال التخريب ضمن دولة العدو.

وهكذا وفقاً لنتيجتي تشيكينوف وبوغدانوف فرغم أن الوسائل والأساليب غير العسكرية قد تظهر ملامحها في كلا هذين السيناريوهين –الحرب والمواجهة السياسية– يوجد فرق واضح بينهم، ففي سيناريو الحرب تكون الغاية من الوسائل والأساليب غير العسكرية هي تليين العدو قبل العمليات العسكرية واسعة النطاق، أما في سيناريو المواجهة السياسية فتكون الغاية من الوسائل والأساليب غير العسكرية هي الاستغناء عن العمليات العسكرية ببديل آخر. وكان السيناريو الأول هو الذي وضع هذان الباحثان نموذجه التفسيري على أنه حرب الجيل الجديد أما الثاني فاعتبراه الحرب الهجينة وفقاً للمفهوم الروسي، وعلى الرغم من أن هذا الفصل يركِّز على السيناريو الثاني، فمن المهم شرح الملامح الرئيسية لحرب الجيل الجديد على نحو مختصر، لا سيما وأن الخبراء الأكاديميين الغربيين يميلون للخلط بينها، وميّز تشيكينوف وبوغدانوف سوء الفهم هذا.

في سنة 2013 نشر الباحثان أحد أكثر مقالاتهم قراءة بعنوان: "طبيعة ومضمون حرب الجيل الجديد"، وقدّما فيه مفهومهما عن حرب الجيل الجديد، وعلى أساس هذا المقال توصَّل العديد من الخبراء الغربيين الى الاستنتاج الخاطئ بأن مفهوم حرب الجيل الجديد كان هو ذاته مفهوم الحرب الهجينة وفق النموذج الغربي أو النموذج الروسي. وفي الحقيقة كما لاحظنا آنفاً فحرب الجيل الجديد والحرب الهجينة وفق النموذج الروسي شيئآن مختلفان، **فالأول حرب أما الثاني فليس كذلك.**

وأكّد المؤلفان أن الأساليب والأنشطة غير العسكرية وخصوصاً العمليات الاعلامية والنفسية هي أجزاء مكمِّلة لحرب الجيل الجديد حيث قالا:

في حرب الجيل الجديد، سيكون للقتال الاعلامي النفسي الدور الرائد، ويهدف الى احراز التفوق في ميدان القيادة والسيطرة، وكذلك الحط من معنويات أفراد جيش وشعب العدو. وفي البيئة المعاصرة للثورة الاعلامية التقنية سيخلق هذا الصراع النفسي الاعلامي الشرط المُسبق المطلوب لإحراز النصر.

وبالتالي ستكون الغاية من هذه الأعمال تليين العدو كمرحلة تحضيرية قبل الحرب، فـ"حرب الجيل الجديد صراع عالمي مسلح مخطط قبل مدة من الزمن من أطراف الهجوم قبل بدئه، في محاولة لإيجاد ظروف عسكرية وسياسية واقتصادية مواتية لنشر القوات المسلحة". وسيتطلب مثل هذا الهجوم خِطَّة مشتركة لتنفيذ أعمال واسعة النطاق، تشمل: "مُختَلَف أنواع المواجهات: الاعلامية والمعنوية والنفسية والايديولوجية والدبلوماسية والاقتصادية وغيرها".

ولتوضيح الاختلاف المفاهيمي بين حرب الجيل الجديد والحرب الهجينة وفق المفهوم الروسي، يقول تشيكنوف وبوغدانوف أن الحرب الهجينة وفق المفهوم الروسي هي *"عنصر يتعلق بالمواجهة بين دولتين يهدف الى تحقيق المصالح الوطنية للدولة عبر الاستخدام المكثف للعمليات غير المباشرة، بينما تبقى القوات المسلحة عامل ردع"* :

تظهِر تجربة الحروب والصراعات المسلحة في العقد الأخير كثافة المواجهة في أشكالها غير المسلحة على حساب تلك المسلحة. وهذا ما أدى غالباً الى تحقيق الأهداف المرجوة باستخدام الوسائل غير العنيفة دون استخدام القوات العسكرية، أي عبر الحرب الهجينة وفقاً للمفهوم الروسي.

إن التمييز بين حرب فعلية والحرب الهجينة وفق المفهوم الروسي والتي وُصِفَت أيضاً على أنها حرب في الخطاب العسكري والأكاديمي الروسي؛ أعاد صياغتها منظِّر استراتيجي روسي بارز آخر

بشكل أفضل، هو الجنرال محمود جاريف. حيث انتقد موضة التحدث عن حرب التخريب والشبكة المركزية والحرب الاعلامية والحرب الهجينة في النقاش الأكاديمي والعسكري الروسي فقال:

في السنوات الأخيرة وبسبب ازدياد المواجهات الدولية بالوسائل السياسية والدبلوماسية والاقتصادية والاعلامية والسيبرانية والنفسية، وأساليب انجاز الأهداف السياسية، يُثَار سؤال عن التغيُّر الجذري في مفهوم الحرب، التي اعتَبَرت على الدوام أن المواجهة في أي ميدان دون سلاح ما هي إلا صراع، أما السياسات المتواصلة بوسائل عنيفة، باستخدام العنف المسلح هو الحرب. المشكلة الوحيدة هي أن بعض فلاسفتنا، ممن لا يعرفون التاريخ جيداً، يعتقدون أن كل هذه الوسائل ظهرت اليوم فقط، ويفترضون على هذا الأساس أن استخدام هذه الوسائل هو الحرب.

ولم يعتبر الفكر العسكري الروسي الحرب الهجينة وفقاً للمفهوم الروسي حرباً، رغم اسمها المُضَلِلْ الذي يوحي بذلك، وأكّد تشيكينوف وبوغدانوف أن لها دوراً خاصاً في صياغة الاستراتيجية. وفي مناقشتهم لدور ومكانة الرادع الاستراتيجي "على سبيل المثال" يقول الكاتبان أن القيادة المدنية والعسكرية في بلد معينة يجب عليهما؛ كلاهما أن تخططا وتُنفِّذا الردع الاستراتيجي، بناءً على الجمع بين الأعمال العسكرية (العنيفة) وغير العسكرية (غير العنيفة). وفي الوقت الذي يجب أن يكون فيه النوع الأول من الأعمال مسؤولية القوات المسلحة، بينما يجب أن يكون النوع الثاني من تنفيذ "الهيئات التنفيذية الفيديرالية". وبالتالي **فالحرب الهجينة وفقاً للمفهوم الروسي ليست من اختصاص القوات المسلحة، بل يمكن استخدامها كأداة لدعم الأعمال السياسية والدبلوماسية والاقتصادية وغيرها من الأعمال غير العسكرية، بمجرد حضورها أو إظهارها للإمكانات العسكرية. والحرب الهجينة وفقاً للمنظور الروسي تكون من اختصاص القيادة المدنية، وهدفها الرئيسي "ليس هزيمة العدو في ميدان المعركة، بل خلق صورة الهزيمة في وعيه"، عبر الجمع بين وسائل عسكرية وغير عسكرية، تُحَددُ كـ"مجموعة من المؤسسات الاجتماعية العامة (منظَّمات)،**

والأعراف السياسية والقانونية والاقتصادية والقيم الاجتماعية والإعلام العام والأنظمة السياسية، وكلها تستخدمها الدولة للتأثير على العلاقات الداخلية والخارجية بين الدول".

وهذا النموذج التفسيري للوسائل غير العسكرية بشكل عام والحرب الهجينة وفق المفهوم الروسي بشكل خاص، كما صاغه تشيكينوف وبوغدانوف يشابه بوضوح الكثير من الأفكار التي طرحها دوجين وبانارين وأنصار نظرية التخريب التي وضعها مسنر. رغم أن تشيكينوف وبوغدانوف يرفضان فكرة تسمية هذه الأنشطة بالحرب، إلا أنهما يشيدان بها كجزء لا يتجزأ من البيئة الجيوسياسية المعاصرة مع أهميتها المتزايدة التي لا شك فيها: ***"اليوم في خضم المواجهات بين الدول وكذلك المواجهات بين التيارات المتصارعة في تلك الدول، ينتقل مركز الثقل بشكل واضح نحو الوسائل غير العسكرية بسبب الخطر المتزايد بالتدمير المتبادل".***

كما أن تشيكينوف وبوغدانوف يعيدان بوضوح تلخيص الروايات المشتركة لنظرية دوجين عن حرب الشبكة المركزية، ونظرية بانارين عن الحرب الاعلامية، ونظرية مسنر لحرب التخريب، عند مناقشة تاريخ الاستخدام الغربي للوسائل والأساليب غير العسكرية ضد روسيا والاجراءات المضادة المطلوبة. ورغم أنهما يؤكدان باستمرار أن تحليلهما مبني على أداء الجيش الأمريكي وحلفائه منذ بداية التسعينات، إلا أن نموذجهم التفسيري للوسائل غير العسكرية كوسيلة مميزة غير عنيفة في المواجهات السياسية (الحرب الهجينة وفقاً للمفهوم الروسي) يعتمد على تحليل للحرب الباردة وهزيمة الاتحاد السوفياتي كنتيجة للأعمال الغربية غير العسكرية:

لقد جاء تطبيق الولايات المتحدة المعقّد لوسائل غير عسكرية في الحرب الباردة ضد الاتحاد السوفياتي بثمار أكثر أهمية من تلك التي جاءت نتيجة استخدام القوة العسكرية، واليوم يبدو بوضوح في نهاية القرن العشرين أن الحضارة الأمريكية شغلت موقع الحضارة المهيمنة على الكوكب باستخدام أساليب التأثير الاعلامي النفسي على الشعوب والهيئات السياسية الاجتماعية للدول المجاورة، وفي نهاية القرن العشرين سمحت أساليب التأثير الاعلامي النفسي لأمريكا بتدمير الاتحاد السوفياتي.

كما هو الحال مع الروايات التي روّجت لمفهوم بانارين لحرب المعلومات ونظرية دوجين حول حرب الشبكة المركزية، يقول تشيكينوف وبوغدانوف بأن الهجوم الغربي غير العسكري على روسيا لم ينتهي بانتهاء الحرب الباردة، بل: *"يتواصل وينتقل الى مرحلة جديدة عبر نشر عناصر الثورات الملونة"*، ولذا يقول الباحثان:

تدعَّمت وسائل الحرب الباردة بعناصر من الحرب التقليدية وأشكال جديدة من التأثير، مثل عمليات حرب التخريب على نطاق واسع في الميادين السياسية والاقتصادية. ونُشِرَت عناصر "الثورات الملوَّنة"[128] *للمناطق الأخرى من العالم مثل الشرق الأوسط والبلقان، ويوجد دليل قاطع لتصديق أن الانسانية دخلت مرحلة جديدة من الحرب العالمية، ونوعاً جديداً من الحرب.*

وبعد هذه المناقشة، يردد المؤلفان بدقة الأسس الجوهرية للطريقة الروسية للتفكير في الحرب الهجينة الروسية التي روّج لها دوجين وبانارين ومؤيدو نظرية مسنر لحرب التخريب: "**إن فاعلية النوع الجديد من الحرب (حرب السلام) أثبتت بما لا يدع مجالاً للشك جدارتها في تقسيم شعب العدو الى فئات متناحرة، وتشكيل طابور خامس موالٍ، وفي تحريض جزء منهم (المتمردين) على الخيانة، وتحريض البقية للاستيلاء على السلطة، عبر نشطاء موالين للغرب**".

وحسب تشيكنوف وبوغدانوف ما زال الغرب يعتبر روسيا التهديد الأول والعدو الرئيسي، و *"لن تهدأ القيادة الغربية إلا بعد أن تطمئن الى أن بلدنا وشعبنا تحوّل الى وضع لا يستحق فيه سوى الازدراء والسخرية"*. وبالتالي فليس مفاجئاً أن كلا الكاتبين على غرار بانارين ودوجين، يقترحان تطوير روسيا لترسانتها الخاصة من الوسائل والأساليب غير العسكرية. وتجدر الإشارة الى تفسيرين في عملهما للاستفادة من أساليب الحرب الهجينة وفقاً للمفهوم الروسي في صياغة الاستراتيجية الروسية.

---

[128] الثورة الملونة مصطلح تستخدمه وسائل الاعلام الروسية والصينية والإيرانية على نطاق واسع ويشير الى الحركات المتنوعة التي تطورت في العديد من دول الاتحاد السوفياتي السابق والبلقان خلال أوائل الألفية الجديدة، كما طُبِّق هذا المصطلح على عدد من الثورات في أماكن أخرى، بما فيها الشرق الأوسط.

الأول: البيئة الجيوسياسية المعاصرة؛ يقول تشيكنوف وبوغدانوف إن *"تهديداً عسكرياً مباشراً للدولة الروسية من الولايات المتحدة والدول الأعضاء في الناتو، مستبعد في المستقبل المنظور"*. ورغم تحليلهم للاتجاهات المختلفة التي ظهرت منذ نهاية الحرب الباردة، مثل العولمة، والتشابك المتزايد للأنظمة العالمية المالية والاقتصادية، والثورة الاعلامية، إلا أن تشيكنوف وبوغدانوف يقولان إن مثل هذه الاتجاهات تسببت في "تغييرات جوهرية في توزع الأعمال السياسية والاقتصادية غير المباشرة، وكذلك في استخدام الوسائل غير العسكرية لحل التناقضات بين الدول". وبناءً على هذه النتيجة، يقدَّم المؤلفان توصيات سياسية محددة، حيث يزعمون أنه: *"بأخذ الحقائق المعاصرة بعين الاعتبار، سيكون من الأفضل لروسيا أن تُعرِّف ومن ثَمَّ تطبِّق استراتيجيةً للأعمال غير المباشرة، بسبب النقص في الخيارات الأخرى مثل استراتيجية الدولة"*.

وعلى الرغم من أن هذه التوصية فيما يتعلق باستخدام الأعمال غير المباشرة يمكن أن تُطبَّق على أي بلد آخر، إلا أن التوصية الثانية لا تنطبق إلا على روسيا، التي يدَّعون أن عليها أن تسعى لتبني أعمال غير عسكرية وغير مباشرة في محاولتها لمواجهة "الطموح الأمريكي لفرض إرادتها ومنهجها وقيمها ونظامها أُحادي القطب للنظام العالمي، على بقية أعضاء المجتمع العالمي". وبعد تحليل تطور وانتشار الصراعات غير المتوازية في النصف الثاني من القرن العشرين، وكذلك الاختلاف المفاهيمي والأطر النظرية المستخدمة لشرح هذه الصراعات، يصل تشيكنوف وبوغدانوف الى ما يبدو أنه نتيجة بديهية بأن **"استخدام الأعمال غير المتوازية باستمرار يسمح للطرف الأضعف بأن يحرز نصراً سياسياً"**.

وبإيلاء تحليلهم مزيداً من الدراسة عبر تطبيق نموذجهم التفسيري على أعمال عدد كبير من المنظِّرين الاستراتيجيين والمفكرين العسكريين، من كارل فون كلاوزفيتز وليدل هارت وماو تسي تونج الى هنري كيسنجر، يصلان (تشيكنوف وبوغدانوف) الى نتيجة مفادها أنه *"من منظور العلم العسكري، من الواضح أن مصطلحات (النهج غير المتوازي) و(الأعمال غير المتوازية) قريبتان جداً في مضمونهما لمصطلحات الأعمال غير المباشرة واستراتيجية الأعمال غير المباشرة"*.

وبجمع هذا المفهوم مع فهمهم بأن روسيا هي الطرف الأضعف في كفاحها ضد القوة الغربية الأقوى، وبالذات الولايات المتحدة، فإنهم يواصلون الحديث: ***"لتردع وتمنع عدواناً من أي دولة (أو ائتلاف من الدول) ولتتأكد من سلامة الأمن العسكري للفيدرالية الروسية، فمن الأفضل أن تتخذ اجراءات غير متوازية، وأن تجتمع فيها الجهود السياسية والدبلوماسية والاعلامية الاقتصادية والعسكرية وغيرها من الجهود".***

أي أن روسيا يجب أن تلجأ الى طرق ووسائل غير عسكرية غير مباشرة كجزء من استراتيجيتها، ويسوقون ثلاثة أسباب رئيسية لفعل هذا، **الأول** هو حقيقة أن البيئة الجيوسياسية في نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين قد تطورت بطريقة تجعل فيها الأعمال غير العسكرية أدوات أفضل في المواجهات بين الدول، وخصوصاً عندما تكون المواجهة بين دول نووية خشية مخاطر التصعيد حالما يبدأ استخدام الأعمال العسكرية المباشرة. **والثاني** هو اعتقادهم أن الغرب لم يوقف هجومه غير العسكري غير المباشر ضد روسيا فيما بعد مرحلة الاتحاد السوفياتي. وأخيراً السبب **الثالث** هو أنه منذ بات الصراع بين روسيا والغرب غير متوازٍ (وتحتل روسيا فيه موقع الطرف الأضعف) فإن هذه الأنشطة غير المباشرة (وغير المتوازية) ستكون مفيدة لتعويض الضعف الروسي.

قدّم تشيكنوف وبوغدانوف عدداً من الإسهامات الهامّة في الخطاب الروسي العسكري والأكاديمي حول نظرية الحرب الهجينة وفق المفهوم الروسي ودعواها بأن الغرب منخرط في هجوم تخريبي غير عسكري ضد روسيا، **المساهمة الأولى** هي التمييز المفاهيمي الواضح الذي وضعاه بين حرب الجيل الجديد والحرب الهجينة وفقاً للمفهوم الروسي: حيث تُستَخدَم الطرق والوسائل غير العسكرية (الاقتصادية والدبلوماسية والمالية والاعلامية والسيبرانية) في كلا الحربين، ولكن هذه الأساليب تهدف في حرب الجيل الجديد لتهيئة الأرضية للأعمال العسكرية التالية، بينما تستخدم في الحرب الهجينة وفق المفهوم الروسي للصمود في وجه المواجهة السياسية العنيفة. وهكذا فالموضوع المتكرر طوال عملهم هو انتقاد مصطلح الحرب في الأعمال والأساليب التي لا تهدف لسبق أو

مواكبة انتشار القوات المسلحة أي (الحرب الهجينة وفق المفهوم الروسي) ويقول الكاتبان عن ذلك: *"إن استخدام القوات المسلحة هو شرط مسبق لتحديد مرحلة المواجهة بين الدول على أنها حرب، وإلا يمكن تعريفها على أنها أي شيء غير الحرب: صراع سياسي؛ حوادث؛ منافسة، لكن ليس حرب"*. وعبر هذا التمييز المفاهيمي بين حرب الجيل الجديد (الذي ينطبق عليه مصطلح حرب، كتعبير صحيح) والحرب الهجينة وفقاً للمفهوم الروسي (وهي ليست حرباً حقيقية) يقبل تشيكينوف وبوغدانوف ويروّجان للحرب الهجينة وفق المفهوم الروسي كظاهرة شرعية في المواجهات بين الدول. **والمساهمة الثانية** هي إشارتهم الى نظريات سياسية وروايات كانت في القلب من الخطاب الروسي أكاديمياً وعسكرياً لأكثر من عقد من الزمن لتحليل ومناقشة دور ومكانة الحرب الهجينة وفق المفهوم الروسي كمفهوم جامع للوسائل والأساليب غير العسكرية المباشرة بهدف إلحاق الأذى وإضعاف الأعداء السياسيين دون اللجوء الى الأعمال العسكرية. ورغم أنهم لا يشيرون الى أفكار بانارين ودوجين ومسنر بشكل مباشر، فمن الممكن افتراض أنهم أكثر انسجاماً مع أعمالهم. وكما قلنا آنفاً يمكن اقتفاء أثر نظريات الحروب الاعلامية والشبكة المركزية وحرب التخريب في منشورات تشيكينوف وبوغدانوف، رغم أنهم انتقدوا النموذج التفسيري لهذه النظريات كحرب إلا أنهم يتوافقون مع وجود الظاهرة. أي أن تشيكنوف وبوغدانوف اللذان يمثِّلان بلا شك الخطاب العام للفكر العسكري الروسي المعاصر، روّجا ووضعا الأسس النظرية لفكرة **أن الغرب وبالذات الولايات المتحدة حاولوا ويحاولون تخريب وتقويض روسيا عبر استخدام وسائل وأساليب غير عسكرية مختلفة (أي: الحرب الهجينة وفقاً للمفهوم الروسي) وبالتالي يجب على روسيا فعل ذات الشيء.**

الاستخدام السياسي للحرب الهجينة وفق المفهوم الروسي ونظريتها في الخطاب الروسي الأكاديمي والعسكري:

يرى العديد من الباحثين أن تشيكنوف وبوغدانوف؛ أبوين للنموذج التفسيري للوسائل والأساليب غير العسكرية غير المباشرة في التفكير العسكري الروسي المعاصر، رغم أن تحليل الخطاب الروسي

الأكاديمي والعسكري يُظهِر أن هذا ليس صحيحاً. على سبيل المثال، بداية سنة 2000 قال فلاديمير سيريبرينيكوف واليكسندر كابكو الجنرال المتقاعد والدبلوماسي السابق الرفيع:

في نهاية القرن العشرين تكاد الوسائل غير العسكرية تضاهي تلك العسكرية في مجال الفعالية، إن لم تكن أفضل منها، لقد بات ممكنا تحقيق أهداف معينة بوسائل غير عسكرية لم يكن تحقيقها ممكناً سوى بحرب دموية ، ودون استخدام مباشر للقوة العسكرية، وإنما نتيجة للاستخدام المتكامل للوسائل السياسية والدبلوماسية والاقتصادية والاعلامية والايديولوجية والنفسية والاستخباراتية وغيرها من الوسائل غير العسكرية، التي دمّر من خلالها الغرب الاتحاد السوفياتي وحلف وارسو ويوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا مع أنظمتهم الأمنية والقانونية وقواتهم المسلحة.

وبالتالي فالمساهمة الرئيسية لتشيكينوف وبوغدانوف عملياً هي ما تحدثنا عنه من قبل؛ التقسيم المفاهيمي بين نظرية حرب الجيل الجديد وفكرة الحرب الهجينة وفق المفهوم الروسي، أكثر من ابتكار فكرة الوسائل والأساليب غير العسكرية في الخطاب الأكاديمي والعسكري. ولكن بشكل مختلف، حيث أن فكرة أن وسائلاً وطرقاً غير عسكرية سواء كانت اقتصادية أو اعلامية أو أيديولوجية أو استخباراتية أو أنشطة التخريب الخفي ضد الدولة أكثر قوة وتحقق نتائج أفضل، وخصوصاً في حقبة الإعلام الجماعي، القادر على "الوصول الى أي شخص على الكوكب وغزو روحه وقلبه وتحويله الى داعم"، عندما أضعفت العولمة "سيطرة الدول على اقتصادها وإعلامها وعملياتها للتوجيه المعنوي وأجبرتها المخاطر المتزايدة للدمار الذاتي في المواجهات العسكرية واسعة النطاق على زيادة الاعتماد على الوسائل غير العسكرية"، لقد كانت هذه المخاوف جزءً من الخطاب الأكاديمي والعسكري الروسي لأكثر من عقد من الزمن قبل أن يضع تشيكينوف وبوغدانوف النموذج التفسيري لنظريتهما حول حرب الجيل الجديد.

يمكن للمرء بسهولة عند تحليل الخطاب العسكري النظري منذ سنة 2000 حول دور ومكانة الوسائل والأساليب غير العسكرية في المواجهات بين الدول، أن يجد أثراً للعديد من النظريات المتشابهة ما بين فكرة الحرب الهجينة وفق المفهوم الروسي (كما قال تشيكينوف وبوغدانوف)

ونظرية الحرب الاعلامية لبانارين ونظرية الشبكة المركزية لدوجين وحرب التخريب لمسنر، فكلهم كانوا في قلب النقاش الأكاديمي منذ نهاية التسعينات. والسبب **الأول** في ذلك هو أن الوضع الجيوسياسي يتطور باستمرار منذ أواخر القرن العشرين، الى جانب الثورة التقنية للمعلومات والاتصالات، مما زاد في أهمية الوسائل غير العسكرية، وبالتالي أدى لاستبدال المواجهات العسكرية المباشرة بالمواجهات الاقتصادية والدبلوماسية والاعلامية والسيبرانية وغيرها من الطرق غير المباشرة، والسبب **الثاني** هو أن هذه التقنيات أتقنها الغرب من قبل وخصوصاً الولايات المتحدة، واستخدمها ضد الاتحاد السوفياتي، مما أودى به في النهاية الى الهزيمة في الحرب الباردة.

من خلال تحليل الطرق التي تدير بهما الولايات المتحدة والناتو صراعاتهما منذ نهاية الحرب الباردة، إضافة الى منشوراتهم النظرية التي تتناول العقيدة القتالية، نجد أن الباحثين العسكريين والأكاديميين الروس قد طوَّروا نظرية رئيسية ثالثة؛ وهي فكرة أن الغرب –كجزء من رؤيته لنظام عالمي تهيمن عليه الحضارة الغربية، ما يزال يطبّق وسائل وأساليب غير عسكرية معقدة بغية تقسيم وتدجين المؤسسات السياسية الروسية. وهذا بدوره يقودنا مباشرة الى الموضوع الرابع أو النظرية في الفكر العسكري الروسي، **وربما تحتاج القيادة السياسية الروسية هذا الخطاب لاستثمار الموارد والجهود ليس للدفاع عن روسيا فقط ضد استخدام الغرب لأساليب تخريبية بل لتطوير منهجية منتظمة لمسألة كيف والى أي مدى ستتصدى الوسائل الغربية غير العسكرية وخصوصاً الاجتماعية النفسية منها للتهديد العسكري الروسي.**

وبغضِّ النظر عن التسمية، فيما إن كانت حرباً اعلامية أو حرب شبكة مركزية أو حرب تخريب أم أنه ببساطة "تطبيق لوسائل وأساليب غير عسكرية غير مباشرة"، فهذه المفاهيم تتشارك وتروّج لنفس المضمون، وبالتالي إيجاد خطاب متجانس تطور منذ التسعينات، وتحليله بشكل كامل يقع خارج نطاق هذا الكتاب. لكنه برغم ذلك مهم لاقتفاء أثر التطورات العامة لهذا الخطاب، وخصوصاً التركيز على المصادر الرئيسية لاستخداماته السياسية.

من الصعب عند تحليل النقاش المحيط بالحرب الهجينة وفق المفهوم الروسي ونظرياتها الملحقة بها في الخطاب الروسي، تجنب ملاحظة أنها (الوسائل والأساليب غير العسكرية) باتت مصدراً متزايداً للنقاش، في القرن الحادي والعشرين. وسنة 2000 صرَّح سيريبريانكوف وكابكو معلِّقَين على مستوى الاهتمام الذي تتلقاه الوسائل والأساليب غير العسكرية في روسيا:

اليوم حتى في الصفوف العليا في قيادة الدولة، من الصعب أن تجد خبيراً واحداً لا ينظر بعين الريبة -من وجهة نظر مهنيَّة- الى استخدام وسائل غير عسكرية. ففي السنوات العشر أو الخمسة عشر الماضية لم تظهر سوى مقالات قليلة في هذا الحقل، ولم تُحَدد أهداف ولا مواضيع الدراسة، ولم تُلَخَّص الخبرات المحلية ولا الأجنبية، لا يوجد علماء مختصون في هذا المجال.

وفي سنة 2017 تغيَّر هذا الوضع دراماتيكياً، وكما ناقشنا آنفاً في هذا الفصل، وفي الفصل الثاني، أُجرِيَت الكثير من الدراسات وكُتِبَت الكثير من المقالات ونُشِرَت العديد من الكتب، وتأسست مراكز الأبحاث ومراكز المعرفة، وتطورت منهجيات مختلفة مفاهيمياً ونظرياً، وتعرّضت للنقد وأُعِيدَ وضع النماذج التفسيرية، وبات البعض منها آخر إصدار مفاهيمي بينما تلاشى البعض في غياهب النسيان.

ومعظم هذه الأفكار نوقشت في هذا الكتاب، رغم أن هنالك غيرها مما لقي اهتماماً أقل بكثير، مثل نظرية "الفوضى المنظّمة" ومفهوم "الثورة الملونة", لكن رغم التنوع في تسمية هذه المفاهيم والنظريات، إلا أنهم جميعاً يروّجون ويستخدمون ذات المضمون: **روسيا تواجه هجوماً غربياً يهدف لتدميرها بطرق التخريب السياسي عبر استخدام الإعلام نفسياً وايديولوجياً واقتصادياً وغيرها من الطرق غير العسكرية كما فعلت سابقاً مع الاتحاد السوفياتي. ولذا تحتاج روسيا في النهاية أن تطوِّر امكانات مشابهة ان كانت تريد الدفاع عن نفسها ومواجهة العدوان الغربي.** هذه النظرية المستخدمة سياسياً بشكل كبير تأتي من مصدرين مختلفين. لكن قبل الشروع في تحليل عملية الاستخدام السياسي هذه، من المهم التأكيد على أن هؤلاء المشتركين في هذا النقاش كانوا مهتمين بمحاولة لمنع تكرار هزيمة موسكو في الحرب الباردة. وفي استبيانات أُجريت منذ تفكك الاتحاد

السوفياتي، عبّر الشعب الروسي عن ندمه على تفككه بنسبة: (66% سنة 1992, ليصلوا سنة 2000 الى نسبة 75%، وينخفضوا الى 56% سنة 2016) ويعتقد ثلث السكان أن سقوط الاتحاد السوفياتي كان يمكن تجنُّبُه (وأدنى نسبة هي 33% سنة 2011 و2016). وبالأخذ بعين الاعتبار هذه الحيثيات، ليس من المفاجئ أن الخبراء الأكاديميين والعسكريين الروس سعوا للتعلم من دروس هذه الهزيمة، التي كانت –برأيهم– نتيجة لاستخدم العمليات النفسية والأعمال الخاصة التي أدت في النهاية الى:

النتائج المأساوية التي لا يمكن مضاهاتها إلا بحرب عالمية، فقد دُمِر الاتحاد السوفياتي وتأثر ملايين الناس، وانحدرت حياة الناس ومعنوياتهم الى الحضيض، وباتت أحلام الناس والدولة مهددة، وهبط جزء من جمهوريات الاتحاد السوفياتي السابق الى مستوى بلدان العالم الثالث.

المصدر الأول الذي تم به استغلال نظريات ما بات اسمه في الغرب الحرب الهجينة الغربية وفق المفهوم الروسي هو الأوساط الأكاديمية الروسية. وكما كان الحال في حالة الاستخدام السياسي للحرب الروسية الهجينة/الاعلامية/السيبرانية ضد الغرب من قِبَل الأكاديميين الغربيين منذ بداية الأزمة الأوكرانية سنة 2014، فقد روّج الأكاديميون الروس نظرية نظيرة لها منذ نهاية التسعينات. وبنفس الطريقة التي تنطبق فيها رؤى فريدمان –التي تحدثنا عنها في فصل سابق– على العلاقة ما بين الأكاديميين وواضعي السياسات في الغرب، يبدو أن الأمر ذاته حدث في روسيا. فقد بات الخطاب الأكاديمي الروسي عن الحرب الهجينة وفق المفهوم الروسي (مثل الخطاب الأكاديمي عن الحرب الهجينة الروسية في الغرب) كما وصفه فريدمان "حوار الصم" حيث يتم تفضيل الأكاديميين ممن لديهم ذات أفكار المسؤولين لأن مثل هؤلاء الأكاديميين " أكثر قابلية ليَلقَوا آذاناً صاغية". **والمصدر الرئيسي الثاني** لهذا التسييس هو الجيش الروسي، فبخلاف نظرائهم الغربيين –وخصوصاً من الناتو– الذين بدأوا بإعادة التفكير في منهجهم المفاهيمي نحو الوسائل والأساليب غير العسكرية بعد سنة 2014– يركّز المفكّرون العسكريون الروس على ذات المشكلة منذ بدايات الألفية. ونتيجة لذلك، لم يكن مفاجِئاً أن واحداً من الأزمات المفاهيمية الرئيسية في هذا الحقل "كيف ترد التنظيمات

العسكرية على التهديدات ذات الطبيعة غير العسكرية؟" عالجها مفكرون عسكريون روس. وبينما أُجبِر الناتو على الخوض في متاهات مفاهيمية في محاولة لاستيعاب كامل مجموعة التحديات التي تمثِّلُها الحرب الروسية الهجينة، **حلَّ المفكرون الروس هذه المشكلة عبر وضع حاجز مفاهيمي بين نظريات الجيل الجديد والحرب الهجينة وفق المنظور الروسي**. وكما ذكرنا آنفاً، وفقاً لتشيكينوف وبوغدانوف تلعب الوسائل والأساليب غير العسكرية دوراً مهماً في كلتا نوعي المواجهة السياسية، **لكنَّ حرب الجيل الجديد يجب أن تكون موجّهة بالقوات المسلحة، بينما الحرب الهجينة وفق المنظور الروسي يجب أن تنفِّذها القيادة المدنية، التي تحظى بدعم الجيش بشكل غير مباشر.**

سعى تشيكينوف وبوغدانوف عبر تعريف حرب الجيل الجديد ضمن إطار مفاهيمي تقليدي لظاهرة الحرب الى عزل صناعة الحرب عن صناعة السياسة. وفي سياق النقاش المفاهيمي المستمر الذي يحاول مزج الاثنين معاً (نظريات الحرب الاعلامية والشبكة المركزية والتخريب والحرب الهجينة وفق المنظور الروسي من جهة والنظريات الأخرى التي لا تُطلِقُ مصطلح الحرب على ما ليس بحرب من جهة ثانية) يقولان:

رغم ما يقوله بعض الباحثين العسكريين بأنه ثمة حاجة لمراجعة جذرية لجوهر ومضمون الحرب وأن القوة العسكرية فقدت أولويتها، يبقى استخدام القوات المسلحة معياراً اضطرارياً، يميّزُ الحربَ على أنها فترة خاصة من المواجهة بين الدول عن الفترات الأخرى، مما يؤكد عدم ثبات مقاربة جوهر الحرب.

أي أنهم يؤكدون على أنه وبينما الوسائل السياسية-الدبلوماسية والاعلامية والاقتصادية وغيرها من وسائل التأثير على الطرف الآخر، ضرورية في منع الصراعات والحروب، وكذلك تضفي تأثيراً كبيراً على الصراع المسلح، فحرب الجيل الجديد -بغضِّ النظر عن عناصرها غير العسكرية- ما تزال تتطلب جيشاً معقداً وقوياً "فالسمة الرئيسية للحرب تتحدد باستخدام القوات المسلحة وأعمال العنف". وفهم هذا التقسيم المفاهيمي بين نظرية حرب الجيل الجديد وفكرة الحرب الهجينة وفق

المنظور الروسي مهم، لأنه يساعد على إيضاح الدوافع الروسية العسكرية لترويج نظرية حرب الجيل الجديد كمفهوم جديد للصراع الحديث. لكن دراسةً أعمق لأعمال الكاتِبَين تكشف حقيقة أن المفكّرين العسكريين الروس أولوا اهتماماً مساوياً (وربما أكبر) للوسائل والأساليب غير العسكرية، داعين *"القوات المسلحة للاتحاد الروسي الى أن تكون قادرة على مواجهة تحديات حرب الجيل الجديد"*. على سبيل المثال يبيِّن تحليل شهير لتشيكينوف وبوغدانوف بعنوان "طبيعة ومضمون حرب الجيل الجديد" بوضوح تركيز الكاتبين على أهمية الوسائل والأساليب العسكرية في الصراعات المعاصِرة. رغم أنهم بالفعل يزعمون بأن الأعمال غير العسكرية ستكون جزءً مكمِّلاً لحرب الجيل الجديد في "المساعدة على إضعاف والقضاء على التهديدات العسكرية"، ويقولون باستمرار أنه دون نشر قوات عسكرية فإن "إنجاز أهداف حرب الجيل الجديد سيكون مستحيلاً"، ويدعمون هذا الكلام **بتقسيم حرب الجيل الجديد الى مرحلتين رئيسيتين،**

المرحلة الابتدائية وتشمل:

العمليات الاعلامية الخاصة، العمليات الراديو-الكترونية (الحرب الالكترونية)، عمليات المجال الجوي، الأعمال المنتظمة للقوات الجوية، والعمليات النارية (تعتمد على نشر أسلحة معيَّنة من منصات مختلفة، وأنظمة المدفعية طويلة المدى والأسلحة التي تعتمد على مبادئ فيزيائية جديدة) لاستهداف العدو في كل الاتجاهات مع تغطية كامل عمق أراضيه.

ويجب أن يلي ذلك مرحلة ثانية ختامية تتألف من:

عمليات خاصة تنفّذها وحدات الاستطلاع عبر تحديد مواقع العدو المتبقية والتبليغ عن إحداثياتها كي تتعامل معها الوسائط النارية المختلفة، وإطلاق النار دون تماس باستخدام أحدث وسائل التدمير الفعّالة بهدف الإجهاز على التشكيلات العسكرية المقاوِمة، وعمليات إنزال قوات جواً للقضاء على جيوب المقاومة، والعمليات البرية لتطهير المنطقة.

فحرب الجيل الجديد إذاً لا تتم بالضرورة باستخدام الوسائل والأساليب غير العسكرية، وانما بالانتشار المعقَّد للقوات المسلحة، والمدعومة بالأعمال غير العسكرية غير المباشرة التي تؤدي الى "الفوضى وفقدان السيطرة، وتحطيم معنويات الشعب والقوات المُدافِعَة"، مما يعطي المهاجِم فرصة لـ "تحقيق الأهداف العسكرية والسياسية والاقتصادية المرغوبة للحملة العسكرية في مدة قصيرة جداً ودون خسائر كبيرة". وإن كانت حرب الجيل الجديد تؤول في النهاية الى حملة عسكرية، فليس من المفاجئ أن تشيكينوف وبوغدانوف يدَّعِيان أن: "إمكانات الحملات الروسية العسكرية والاقتصادية ضعفت في العقود الماضية"، لكن حرب الجيل الجديد "ستجري وفقاً لقواعد وقوانين البلد الأكثر تقدماً في الميادين العسكرية والاقتصادية والتقنية". وبرأيهم لا يمكن الوصول الى التفوق العسكري التقني إلا من خلال: التحديث المتواصل للمؤسسة التقنية العسكرية، وبناء اقتصاد فعال جداً، وتطوير وتنفيذ خطط لتحديث السلاح والأنظمة العسكرية وفق أحدث التقنيات وانتاجها.

ونتيجة لذلك لعبت نظرية الجيل الجديد دورين مهمّين للغاية في الخطاب العسكري الروسي، فمن ناحية وضعت أسس دور الوسائل غير العسكرية عبر عزلهم كنوع مستقل وغير عنيف من صناعة السياسة (أي: الحرب الهجينة وفق المفهوم الروسي)، أو عبر إلحاقهم كجزء أساسي لكن ثانوي وسابق لصناعة الحرب. ومن ناحية ثانية، وضع هذه الوسائل والأساليب في سياق النقاش المفاهيمي المتواصل (أي نظريات الحرب الاعلامية والشبكة المركزية وحرب التخريب وغيرها) الذي حاول نقل مركز الثقل نحو الأعمال غير العسكرية غير المباشرة، كان الهدف من تسييس المفهوم حرب الجيل الجديد هو المحافظة على حالة الوسائل والأساليب غير العسكرية وفي النهاية طلب المزيد من الاستثمار في القوات المسلحة الروسية. ومثال آخر عن هذه العملية يتمثل في مقال لرئيس هيئة الأركان الروسية الجنرال فاليري جيراسيموف سنة 2013. وكما هو الحال مع أعمال تشيكينوف وبوغدانوف فقد ربط العديد من الخبراء الغربيون هذا المقال بفكرة الوسائل غير العسكرية، وأُشير إليه باسم "مبدأ جيراسيموف"؛ لكن دراسة أعمق تثبت الى حد بعيد

أن الأمر ليس كذلك، فمن ناحية ، كرر الأفكار التي عبّر عنها تشيكينوف وبوغدانوف حيث يقول جيراسيموف: *"إن دور الأساليب غير العسكرية في تحقيق الأهداف السياسية والاستراتيجية في ازدياد، وفي بعض الحالات تفوّقت فعاليتهم على فاعلية القوات العسكرية"*، لكن من ناحية ثانية، يعيد مجدداً الرواية الرئيسية التي تُبنى عليها نظرية حرب الجيل الجديد، فيقول إن طلب الأسلحة على نطاق واسع جزء أساسي من التحضير لحروب المستقبل:

ثمة عامل آخر يؤثِّر على التحول في الصراعات العسكرية المعاصرة، هو استخدام مراكز البحث العلمي والذكاء الصناعي لإنتاج الروبوتات والعربات المسيّرة، إضافة الى الطائرة المسيّرة المستخدمة بالأصل، فحروب المستقبل ستمتلئ بالروبوتات السائرة والزاحفة والقافزة والطائرة، وفي المستقبل المنظور، سيكون من الممكن تكوين تشكيلات بأكملها قادرة على تنفيذ عمليات عسكرية بشكل مستقل.

وهكذا يكرر جيراسيموف بشكل أساسي فرضيات تشيكينوف وبوغدانوف بأن الوسائل غير العسكرية جزء هام من الصراعات المعاصرة، مع أن حرب الجيل الجديد حرب، ولذا تتطلب استثماراً مهماً في القوات المسلحة. وفي مقال لاحق سنة 2016، يضفي جيراسيموف مزيداً من التطوير على فكرته، مؤكداً التقسيم المفاهيمي بين الحرب الهجينة وفق المفهوم الروسي وحرب الجيل الجديد، إضافة لأهمية تطوير وتحديث القوة الروسية. وبعد تحليله لدور ومكانة الطرق الهجينة (الحرب الهجينة وفق المفهوم الروسي) كتطور معقد لاستخدام الوسائل السياسية والاقتصادية والاعلامية وغيرها من الوسائل غير العسكرية المدعومة بالقوة العسكرية، يصل جيراسيموف الى: *"إن الجمع بين الطرق التقليدية والهجينة هو ميزة هامة لأي صراع مسلح، لكن إن كان من الممكن استخدام الثاني دون استخدام مفتوح للقوة العسكرية، فالأول –الأعمال العسكرية التقليدية– غير ممكن دون أساليب هجينة"*. وكما لاحظنا من قبل، فإن هذا التقسيم المفاهيمي بين الحرب الهجينة وفق المفهوم الروسي وتأكيدها على الوسائل غير العسكرية، والحروب عسكرية التوجه وحروب الجيل الجديد – التي تستخدم طرائق هجينة كجزء من الظاهرة التقليدية للحرب– أمر حيوي من المنظور السياسي،

فهي تسمح للمؤلِّفين بتأكيد أهمية الاستثمار في القوات المسلحة. ويؤكِّدُ جيراسيموف: "بغضِّ النظر عن الأهمية المتزايدة للوسائل غير العسكرية في حل المواجهات بين الدول، فإن دور القوات المسلحة في تأمين الدول لا يتناقص، بل إنه في تنامٍ. ولذا تتسع حاجة القوات المسلحة للمزيد من الإمكانات".

إن المفكرين العسكريين الروس بوضعهم لنموذج تفسيري سياسي واقتصادي واعلامي وايديولوجي وغيرها من الوسائل والأساليب التخريبية غير العسكرية كجزء من المواجهة العسكرية المعاصِرة؛ استخدموا فكرة حرب الجيل الجديد سياسياً كنوع جديد من الصراعات المسلحة، التي تتطلب استثماراً وافياً في تطوير وتحديث الجيش الروسي. إن الاستخدام السياسي لفكرة حرب الجيل الجديد كنوع جديد من الصراع المعاصر حدث بلا شك لكنه واحد من الطرق العديدة التي سعى من خلالها الجيش الروسي لزيادة تمويله. ويبدو أن هذا السعي الحثيث قد أتى أُكُلَهُ، فقد زاد نصيب القوات المسلحة الروسية من الناتج المحلي من 3.6% الى 5.4% سنة 2015. وسنة 2016 توصّلت وكالة الدراسات الدفاعية السويدية الى أن:

القوات المسلحة الروسية تتطور من قوة مُعَدَّة بالدرجة الاولى للتعامل مع الاضطرابات الداخلية والصراعات في منطقة الاتحاد السوفياتي السابق، باتجاه بنية مهيّأة لعمليات على نطاق واسع داخل وخارج هذه المنطقة. فالقوات الروسية المسلحة سنة 2016 بوسعها الدفاع عن روسيا ضد العدوان الخارجي أفضل منه سنة 2013، فهم أداة أقوى للتنفيذ من ذي قبل.

وبشكل مشابه، في تحليله لطبيعة وتأثير الممارسات التي قامت بها روسيا بين عامي 2011 و2014 يقول جون نوربرغ:

بعد دورات التدريب ما بين 2011 و2014 باتت القوات المسلحة الروسية على الأرجح قادرة على إطلاق عمليات مشتركة هجومية تقليدية عالية الكثافة على نطاق واسع بدعم من الوكالات

الحكومية الأخرى... كما أن مشاركة الوكالات الأخرى والسلطات المدنية على المستوى الوطني والإقليمي تشير الى انتهاج هذا النوع من الحرب على المستوى الوطني.

وبما أن رؤية جيراسيموف تقول بأن عناصر الدفاع الناجح في عصر حرب الجيل الجديد، وخصوصاً العناصر غير العسكرية *"لا يمكن تنظيمها إلا بالاستخدام المعقد لكافة الوكالات السيادية للدولة"* , فيبدو أن هذه النظرية لاقت مزيداً من الدعم في أروقة القيادة السياسية الروسية، إضافة الى القيادة العسكرية. وبالأخذ في الحسبان الارتفاع الكبير في ميزانية وزارة الدفاع الروسية، من المهم دراسة كيف ولماذا روّج السياسيون الروس لنظريات الحرب الهجينة وفق المنظور الروسي.

الاستخدام السياسي للحرب الهجينة وفقاً للمنظور الروسي ونظرياتها في الخطاب السياسي الروسي:

من الصعب أن تجد في الخطاب السياسي الروسي إشارات مباشرة لمصطلحات مثل حروب الشبكة المركزية أو حروب التخريب أو الحرب الهجينة أو التهديدات الهجينة، لكن كما يوضّح اندرو مورغان[129]، فالنظرية الرئيسية التي تتناول هذه النظريات (استخدام الغرب للوسائل غير العسكرية لتخريب وتقويض النظام السياسي الغربي) هو موضوع مهيمن في الخطاب الروسي السياسي. **وتفيد دراسة أعمق لهذا الخطاب بأن الإطار المفاهيمي الذي يثيره السياسيون الروس في الغالب هو "الحرب الاعلامية".** فعلى سبيل المثال، عند مناقشة رد الفعل الغربي على الأعمال الروسية في القرم وشرقي أوكرانيا يقول الرئيس الروسي فلاديمير بوتين:

دبلوماسيتنا تتفهم –بالتأكيد– أهمية معركة التأثير على الرأي العام وتشكيل الأجواء العامة هذه الأيام. لقد أعطينا هذه القضايا مزيداً من الاهتمام خلال السنوات الماضية، لكن اليوم بما أننا نواجه

[129] أندرو مورغان هو مدير الأبحاث حول روسيا والأمن والدفاع في شمال أوروبا، ومركز الشخصيات المتغيرة للحرب، في كلية بيمبروك، جامعة أوكسفورد، من مؤلفاته: "السياسات الجديدة لروسيا"، "التعامل مع الروس"، "التحول العسكري الروسي".

وابلاً متزايداً من الهجمات الاعلامية المنهمرة على روسيا ممن يُسَمَّون شركائنا، فإننا نحتاج لبذل جهود أكبر في هذا الاتجاه.

ويقدِّم وزير الخارجية الروسي سيرجي لافروف مثالاً آخر حينما يتحدث بالتفصيل عن طبيعة هذه الهجمات:

يرتبط الخط السياسي الهدّام بالأحداث في أوكرانيا، ومقدمة تشريع العقوبات ضد روسيا، ومحاولات معاقبة بلدنا على تأييدها الحقيقة والعدالة، ولحديثها عن الدفاع عن مواطنينا في أوكرانيا... كل هذا أدى لأزمة خطيرة في علاقاتنا مع الغرب، لقد وُوجِهنا بحرب اعلامية واسعة النطاق.

ويمضي لافروف قدماً في شرح طبيعة العقوبات الغربية ضد روسيا:

القادة الغربيون صّرحوا علناً أنه من الضروري التأكيد على أن العقوبات تُدَمِّر الاقتصاد وتزيد من حالة التذمر العامة... الغرب يبرهن بوضوح على أنه لا يسعى لمجرد تغيير السياسية الروسية.. بل إنه يريد تغيير النظام... الولايات المتحدة تستخدم الضغوطات المالية والاقتصادية والهجمات الاعلامية... وبالتأكيد التأثير الاعلامي والايديولوجي، الذي تدعمه المنظمات الخارجية غير الممولة من الحكومات.

وعبّر بوتين عن ذات الفكرة وروّج لها:

نواجه أيضاً محاولات لاستخدام ما يسمى "التقنيات الملونة" في تنظيم مظاهرات غير مرخصة في الشوارع لفتح الحملات الدعائية للعداء والكراهية في شبكات التواصل الاجتماعي. والغاية واضحة؛ إثارة حرب أهلية، للعصف بالمؤسسات الدستورية والسيادية لبلادنا.

تُكَرِر هذه التصريحات بوضوح روايات نظرية الحرب الهجينة وفقاً للمنظور الروسي وعُبِّر عنها في سياق الأزمة الاوكرانية، ومن الواضح أن المؤسسة السياسية الروسية كانت تروِّج لفكرة أن الغرب كان يسعى لتقويض المؤسسة السياسية الروسية قبل وقت طويل من بداية الأزمة. على سبيل المثال

في حديثه في اجتماع مع سفراء وممثلين برلمانيين للفيدرالية الروسية سنة 2006، والذي كان وفقاً لاعتبارات عديدة؛ الرؤية المحلية لخطاب عام 2007 في مؤتمر ميونخ الأمني؛ صرّح بوتين مسبقاً بأنه:

بعد تدمير نظام القطبين، تبقى حالة عدم اليقين سائدة في التطورات العالمية، وربما هذا هو سبب المحادثات المتواصلة بلا انقطاع حول الصراع الحتمي للحضارات مع مشهد المواجهة الطويلة التي ستحذو حذو الحرب الباردة.. لم يُحَضِّر الكل لحقيقة أن روسيا ستبدأ باستعادة عافيتها الاقتصادية وموقعها على المسرح العالمي سريعاً. البعض ينظر إلينا من منظور التعصب للماضي ويرى تهديداً في روسيا القوية التي تعاود الظهور.

نظراً الى أن الغرب – بحسب رأي الكرملين– يستخدم أعمالاً غير عسكرية مختلفة لتقويض روسيا القوية و"العائدة الى المسرح العالمي" من خلال البعد الإعلامي، فمن السهل تتبع هذا الاستخدام السياسي لهذا الادعاء عبر تحليل مقارن لمختلف الوثائق المفاهيمية الروسية، حيث توفِّر المقارنة بين عامي 2000 و2016 من حيث العقيدة الأمنية على سبيل المثال صورة مثيرة للاهتمام للغاية من التطور في فهم الكرملين البعد الاعلامي كتهديد للدولة الروسية.

إحدى هذه الاختلافات بين هاتين العقيدتين هي، أن عقيدة عام 2000 تقسِّم التهديدات الى أمن المعلومات الروسية بين التهديدات الخارجية والداخلية، بينما تضفي عقيدة عام 2016 مزيداً من التمييز. التهديدات الخارجية تتعدد في عقيدة عام 2000 لتشمل "النشاط التخريبي للقوات الخاصة الأجنبية القائمة على الطرق الإعلامية والتأثير النفسي وأنشطة المؤسسة السياسية والاقتصادية والعسكرية الأجنبية الموجَّهة ضد مصالح الاتحاد الروسي". رغم أنه في نفس الوقت تعتبر الوثائق التهديدات التالية على أنها تهديدات داخلية:

أنشطة المنظَّمات العامة التي تهدف الى تغيير عنيف لمؤسسات النظام الدستوري وانتهاك كرامة الاتحاد الروسي، وتحريض المجتمع نحو العنصرية والعداء القومي والديني، ونشر هذه الأفكار في

الإعلام العام، وفي الأنشطة الإعلامية والحملات الدعائية للقوى السياسية والمنظّمات العامة ومنافذ الاعلام الجماعي والفردي مما يشوِّه الأنشطة والاستراتيجية الخارجية للاتحاد الروسي، وكذلك الأنشطة الاعلامية والحملات الدعائية التي من شأنها تقويض صورة القوات المسلحة في الاتحاد الروسي وجاهزيتهم القتالية.

وهكذا سنة 2000 لم تنظِّم الحكومة الروسية تمييزاً دقيقاً جداً بين التهديدات الداخلية والخارجية فحسب، بل إنها بالفعل عَرَفَت أن الأعمال المختلفة التي يمكن أن تقوِّض الحكومة الروسية يمكن أن تحدث بشكل مستقل عن بعضها البعض بناءً على عوامل محلّيّة داخليّة، أياً كانت أعمال التخريب الخارجية:

الأجهزة الأمنية الخاصة في دول معيّنة تزيد من استخدامها للوسائل ذات التأثير الاعلامي–النفسي بهدف زعزعة استقرار الوضع السياسي الاجتماعي في مناطق متعددة من العالم، مما يؤدي الى تخريب السيادة وانتهاك الكرامة الوطنية للدول الأخرى.

تتسم حالة الأمن الاعلامي في مجال الدفاع عن الدولة بزيادة في مدى استخدام الدول والمنظمات لتقنيات المعلومات لأغراض عسكرية سياسية، بما فيها الأعمال التي تتعارض مع القانون الدولي وتهدف الي تقويض السيادة، والاستقرار السياسي والاجتماعي، والكرامة الوطنية للاتحاد الروسي وحلفائه، وتهديد السلم والأمن الدولي والعالمي والإقليمي.

كما يمكن ملاحظة حدوث تضخُّم مشابه لدور التأثير الخارجي في الشؤون المحلية، من خلال إصدارات متعددة للعقيدة العسكرية الروسية. فقد نصَّ إصدار سنة 2000 في مناقشته لطبيعة الصراعات المعاصِرَة على أن هذه الصراعات تتسم "بكفاح اعلامي نشط وإرباك للرأي العام في دولة معينة، وكذلك على مستوى سكان العالم، وبرغبة الأطراف الفاعلة بحل الدول وأنظمة القيادة والسيطرة العسكرية". ويطوِّر إصدار 2010 هذه الفكرة، حيث يعتبر أن السمة الغالبة على الصراعات المعاصرة هي "الاستخدام المعقّد للقوة العسكرية والطرق والأساليب غير العسكرية"

واستخدام أعمال الحرب الاعلامية مقدَّماً بهدف تحقيق أهداف سياسية دون استخدام القوة العسكرية".

أما إصدار سنة 2014 للعقيدة العسكرية الروسية فيأخذ هذا التضخم على محمل الجد أكثر، فيقول إن الصراعات المعاصرة تشمل "استخداماً معقَّدَاً للقوة العسكرية والسياسية والاقتصادية والاعلامية وغيرها من الوسائل غير العسكرية، التي تُنَفَّذ عبر نشر حالة من التذمر لدى السكان وبجهود العمليات الخاصة، وكذلك استخدام القوى السياسية الممولة والخاضعة للسيطرة الخارجية والحركات الشعبية". كما أن عقيدة 2014 العسكرية بإشارتها المباشرة الى التهديدات التي تشكِّلها الأبعاد الاعلامية، تقول إن إحدى التهديدات على أمن الاتحاد الروسي تتضمن: " الأعمال الاعلامية التي تؤثر على السكان وبالدرجة الأولى الشباب منهم، بغية تخريب التقاليد الوطنية والمعنوية التاريخية". ويمكن أن ينطبق ذات الكلام على إصدارات مختلفة من مفهوم السياسة الخارجية الروسية، عند مناقشة حالة العالم المعاصر، **نجد أن الإصدارات الأربعة الأخيرة (2000و2008 و2013 و2016) تنص على أنه إضافة للقوة العسكرية، فقد باتت العوامل الأخرى غير العسكرية مساوية في الفاعلية فيما يخص التأثير على الشؤون الدولية.** لكن، بينما تناقش إصدارات 2000 و2008 أنّ هذا يقدِّم فرصة "لبناء نظام عالمي أكثر استقراراً ومقاومة للأزمات"، واصدار عام 2013 يقول إن "الترابط الاقتصادي بين الدول واحد من العوامل الرئيسية التي تدعم الاستقرار العالمي"، فإن إصدار سنة 2016 يتّخذ موقفاً معاكساً تماماً، حيث يقول إن وجود وسائل فعّالة وغير عسكرية في العلاقات الدولية يخلق "رغبة لاستخدام الفرص المتناظرة لتحقيق المصالح الجيوسياسية، والتي تعرقل البحث عن طرق لفض النزاعات وحل المشكلات العالمية سلميّاً، وفقاً لأعراف القانون الدولي".

ويُثبِت هذا التحليل لوثائق العقيدة العسكرية التحول في نهج الكرملين نحو دور ومكانة الوسائل والأساليب غير العسكرية في العلاقات الدولية، والاستخدام السياسي الثابت –لكن البطيء– للعوامل

الخارجية غير العسكرية (السياسية والاقتصادية والاعلامية) على أنه التهديد الرئيسي لاستقرار الحكومة الروسية. ونصَّت الاستراتيجية الأمنيّة القوميّة الروسيّة سنة 2015 على:

تؤثِّر المواجهات المتنامية في الفضاء الاعلامي العالمي بشكل متزايد على الوضع الدولي، نتيجة لرغبة بعض البلدان لتحقيق أهدافها الجيوسياسية عبر استخدام تقنيات الاعلام والاتصالات، بما في ذلك التلاعب بالوعي العام وتشويه التاريخ.

وتحتاج أي محاولة لشرح السبب وراء هذا الاستخدام السياسي لإدراك أن انحلال الاتحاد السوفياتي –من المنظور الروسي– جاء نتيجة للعمليات النفسية الاعلامية وغيرها من الوسائل والأساليب غير العسكرية التي قام بها الغرب. وفي أواسط العقد الأول من الألفية الجديدة، عندما سمح نجاح موجة اقتصادية والدعم المحلي المتزايد للقيادة الروسية ببدء إنعاش موقعها على المستوى العالمي، بدأ الكرملين بإدراك أن الغرب ما كان ليقبل إحياء المصالح الروسية الجيوسياسية. وكما استذكر بوتين في الوثيقة الرئاسية:

لقد عملت في الكي جي بي، في قسم الاستخبارات الخارجية لما يقرب من 20 سنة، واعتقدت أيضاً أنه بانهيار هذه العقبة الايديولوجية، وهي احتكار الحزب الشيوعي للسلطة، فإن كل شيء سيتغير جذرياً... لكن لم يتغير أي شيء جذرياً، لأنه كما اتضح... ثمة مصالح جيوسياسية منفصلة تماماً عن أي أيديولوجيا. وهذا ما يحتاج شركاؤنا (الغرب) أن يفهموه، وهو أن روسيا دولة لديها –ولا يمكنها أن تكون دون– مصالحها الجيوسياسية الخاصة. ومن المطلوب أن يحترم كل منا الآخر، بينما نبحث التوازنات والحلول المشتركة المقبولة.

منذ بداية العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين، وتحديداً منذ الانتخابات الرئاسية سنة 2012، التي تواكبت بمظاهرات غير مسبوقة ضد النظام الحاكم، بدأ النظام بالشعور بالتهديد من "استخدام التقنيات الاعلامية بغية التعدي على السيادة والكرامة الوطنية والاستقرار السياسي والاجتماعي للاتحاد الروسي". **لذا لم يكن مفاجئاً أن الكرملين في محاولة منه تجنب تكرار نتائج الحرب**

الباردة، توصل الى نتيجة مفادها أنه لا يستطيع تحقيق استقراره السياسي إلا بالسيطرة وتقييد تأثير المؤسسات الخارجية (مثل الإعلام الجماعي والمنظمات غير الحكومية) على الجماهير الروسية.

وكانت الغاية من الاستخدام السياسي لرواية التدخل الغربي بالوسائل غير العسكرية في الشؤون المحلية الروسية منذ بدايات 2010 في الخطابات السياسية الرنانة والوثائق العقائدية، هي تحضير الأرضية لتشريعات موافِقَة تهدف الى تقليص التهديدات الملموسة للتأثيرات الخارجية على المجتمع الروسي. وفي السنوات الماضية، أقرّت الحكومة الروسية العديد من التشريعات بغية مواجهة الهجوم الغربي غير العسكري المزعوم، مثل القانون الفيدرالي رقم 121 –FZ الصادر سنة 2012، والذي يقيِّد نشاط المنظمات غير الحكومية التي تتلقى تمويلاً خارجياً، والقانون الفيدرالي رقم 398– FZ لعام 2013, الذي يسهِّل الإجراءات المطلوبة لحظر مواقع الانترنت المتطرِّفَة، والقانون الفيدرالي رقم FZ–87 لعام 2014 الذي يُلزِم الحكومة على فرض الرقابة على مواقع الانترنت والمدوَّنات، والقانون الفيدرالي رقم FZ–374 لعام 2016 الذي يُلزِم مواقع الانترنت بتخزين بيانات عملائهم الروس في روسيا، والقانون الفيدرالي رقم FZ–305 لسنة 2014 الذي يحد من الاستثمارات الأجنبية في وسائل الاعلام الروسية. كما يبدو أن شيطنة الهجمات الاعلامية الغربية على روسيا، التي سبقت هذه القوانين، قد خدمت الكرملين على أكمل وجه: فقد حدثت موجة من النقد على المستوى الدولي والمحلي رداً على هذه القوانين الجديدة، لكنها لم تحقق سوى نتائج محدودة ونالت هذه القوانين قبولاً على نطاق واسع عند العامة.

نتائج: "الحرب الهجينة ضدنا قادمة، وقد بدأت بالفعل":

كما ناقشنا من قبل في هذا الفصل، فالخطاب الروسي حول الحرب الغربية الهجينة وفق المفهوم الروسي يضم عنصرين مترابطين: عسكري وسياسي.

في الجانب العسكري، لعب ظهور نظرية حرب الجيل الجديد دوراً كبيراً في وضع أسس فكرة الحرب الهجينة وفق المفهوم الروسي كنوع محدد من المواجهات الدولية، فمن ناحية اتجه المفكرون العسكريون الروس للاتفاق على أن دور الوسائل غير العسكرية في أهمية متزايدة. **وأدى تحليلهم للحرب الباردة وانهيار الاتحاد السوفياتي، إضافة الى مراقبتهم للتقنيات الاعلامية الجديدة وعمليات العولمة، الى الاتفاق على أن القرن الحادي والعشرين يوفِّر الوسائل والأساليب لحلول غير عنيفة لمواجهات معيَّنة بين الدول، والتي لم تكن لتُحَلَّ في الماضي دون استخدام الحرب.** ومن ناحية ثانية، في سياق النقاش المفاهيمي حول صعود أهمية الوسائل والأساليب غير العسكرية، وصل المفكرون والمنظِّرون الاستراتيجيون الروس الى نتيجة مفادها أن هذا التركيز على الوسائل غير العسكرية وتنحية حالة الحرب كصراع مسلح، سيعني تدهوراً في أهمية القوات المسلحة، واستجابوا لهذا الأمر بتطوير مفهوم حرب الجيل الجديد، التي أرست مفاهيم الوسائل والأساليب غير العسكرية كجزء من التعريف التقليدي للحرب. وكما ناقشنا آنفاً فقد كان تطوير نظرية حرب الجيل الجديد خطوة منطقية في التفكير العسكري الروسي في سياق النقاش المفاهيمي والنظري الروسي حول العناصر غير العسكرية للحرب منذ نهايات التسعينات. ولم يكن أي من تشيكينوف أو بوغدانوف رائِدَين في طرح أن: الأعمال غير العسكرية غير المباشرة تلعب دوراً هامَّاً في الصراعات المعاصرة، رغم أن نظريتهم لحرب الجيل الجديد كانت حيوية في النقاش الروسي الداخلي حول طبيعة المواجهات بين الدول على العموم، ودور القوات المسلحة على الخصوص.

إن التقسيم المفاهيمي بين حرب الجيل الجديد كصراع مسلح مترافق بأعمال غير عسكرية، والحرب الهجينة وفق المفهوم الروسي، كنوع عنيف من المواجهات السياسية المبنية على الوسائل غير العسكرية فقط، كان خطوة حاسمة في التفكير العسكري الروسي. وكما ذكر هذا الفصل، **فنظرية حرب الجيل الجديد لا تُقَدِّم الكثير مما هو جديد في مجالات الوسائل والأساليب غير العسكرية غير المباشرة. لكن مساهمتها الرئيسية هي تأكيدها على أهمية الوسائل والامكانات العسكرية، مما أوجد الأسس المفاهيمية النظرية المطلوبة لإنعاش وضع القوات**

المسلحة، وبالتالي إنعاش تمويلها. وتبدو فكرة الحرب الهجينة وفقاً للمفهوم الروسي في الخطاب العسكري الروسي مما أنتجه النموذج التفسيري لحرب الجيل الجديد، لأن تعريف هذا الأخير (ككفاح مسلح مترافق بوسائل غير عسكرية) تطلَّب عنواناً لذاك الأول (ككفاح يتكون من وسائل غير عسكرية فقط)، ولا يتوافق المفكرون العسكريون الروس بشدة مع دلالات الألفاظ للعنوان الذي يقول إن الحرب الهجينة وفق المفهوم الروسي ليست حرباً في جوهرها لأنها لا تنطوي على استخدام القوة العسكرية، وكما يرى الضابطان الروسيان: *"الحرب الهجينة وفق المفهوم الروسي عملية تهدف الى تمزيق أراضي دولة أخرى الى أجزاء، وتعتمد على التطبيق المعقّد المنسّق لإجراءات سياسية دبلوماسية واعلامية دعائية ومالية اقتصادية إضافة الى الاجراءات العسكرية. وفي نفس الوقت لا تُنَفَّذ الحملة العسكرية نفسها".*

ورغم أنه يبدو أنهم على العموم يميلون لقبول هذا المفهوم، لأن وضع الأسس للصراع غير العسكري –بغض النظر عن تسميته– أمر حيوي لوضع أسس حرب الجيل الجديد. لذا فالجيش الروسي يشجّع فكرة الحرب الهجينة وفق المفهوم الروسي ونظرياتها كنتيجة لترويجهم لنظرية حرب الجيل الجديد، ورغم أن الاستخدام السياسي لهذا الأخير مهم لجذب التمويل المطلوب لمواجهة التحديات التقنية لحروب القرن الحادي والعشرين، فأنَّ الاستخدام السياسي للحرب الهجينة وفق المفهوم الروسي يساعد على تحقيق هذا.

ويصبح السبب وراء **استخدام الجيش الروسي السياسي** لمفهوم حرب الجيل الجديد أوضح في سياق الخطاب السياسي الروسي عن دور التهديدات غير العسكرية. وكما ناقشنا آنفاً فمنذ نهاية العقد الأول من الألفية الجديدة، وخصوصاً بعد الانتخابات الرئاسية سنة 2012، عكف الكرملين على الادعاء بأن أعمال التخريب الغربية بالوسائل غير العسكرية ضد روسيا تشكِّل التهديد الأول لوحدة روسيا واستقرارها. كما يبدو أن الكرملين وجد وسيلة لترويج الأفكار التي تعبّر عنها الحرب الهجينة وفق المفهوم الروسي كنظرية رئيسية تحيط بالشر الغربي ومحاولته الحفاظ على هيمنته العالمية. إن التشابه اللفظي بين الحرب الهجينة وفق المفهوم الروسي ونظيرتها الحرب الهجينة،

استُخدِم في الخطاب الغربي لوصف الأعمال الروسية، مما سمح للسياسيين الروس باتهام الغرب باستخدام طرق من الحرب الهجينة وفق المفهوم الروسي، كما قال سيرجي لافروف:

لقد بات رائجاً مناقشة أن روسيا تشن نوعاً من الحرب الهجينة في القرم وأوكرانيا، إنه مصطلح مثير جداً للاهتمام، لكنني أريد أن أطبّقِه، أولاً وقبل كل شيء، على استراتيجية الحرب الأمريكية، إنها بالفعل هجينة وتهدف الى ما هو أقل على مستوى التدمير العسكري للعدو، لكن تهدف أكثر لتغيير أنظمة الحكم للدول التي تتعارض سياستها مع خط واشنطن.

لكن في ذات الوقت، ساعد الاستخدام السياسي للحرب الهجينة وفق المفهوم الروسي وطرقها التخريبية القيادة السياسية الروسية على إعطاء جرعة تصعيدية ضد العدو الجديد القديم، ألا وهو الغرب، وبالتالي حشد الرأي العام الروسي والدعم من الجهات الفاعلة الروسية الأخرى. وكما قال جينادي زيجينوف[130] الأمين العام للحزب الشيوعي الروسي:

علينا أن نفهم أنه لا هتلر ولا نابليون هزمونا، بل هزَمتنا معاداة الأمة السوفياتية والتعصب لروسيا، واليوم تشتعل هذه الحرائق مجدداً... لا يمكن أن يدعونا وشأننا، لقد رأيت ذلك سنة 1990... نحن نعيش وضعاً استثنائياً، فالحرب الهجينة (وفق المفهوم الروسي) قادمة، لقد بدأت بالفعل... وهي تشكِل خطراً مُحدقاً وليس لنا الحق في أن نستريح.

وعندما نحلل الرأي العام الروسي حول الحرب الهجينة الغربية (وفق المفهوم الروسي) ضد روسيا، نرى بوضوح أن هذا الاستخدام السياسي قد حقق تأثيراته المرغوبة. ودليل هذا النجاح هو أن التشريعات المثيرة للجدل التي تهدف للدفاع عن روسيا إزاء الحرب الهجينة الغربية (وفق المفهوم الروسي) لاقت دعماً من عامة الشعب الروسي دون أي اعتراضات ذات شأن. ويمكن تفسير هذا النقص في الاعتراض بالقبول الشعبي للنظريات التي تحيط بالهجوم الغربي التخريبي غير العسكري

[130] جينادي أندريفيتش زيجانوف سياسي شيوعي روسي، أصبح رئيساً للحزب الشيوعي في الفيدرالية الروسية اعتباراً من سنة 1993.

ضد روسيا. وفي بحث أجراه مركز ليفادا[131] في شهر كانون الأول سنة 2014، وجد المركز أن 87% ممن استُطلِعَت آراؤهم قالوا إن الغرب عدائي ضد روسيا، و42% قالوا إن هذه العدائية عبّرت عنها الحرب الإعلامية، وبقيت الأرقام مرتفعة في بحث مشابه في تشرين الأول سنة 2015، فقد عبَّر 82% من المُستطلَعَة آراؤهم عن اعتقادهم بأن الغرب كان عِدائياً ضد روسيا، و44% اتهموا الغرب بشن حرب اعلامية ضد البلاد. والمثير للاهتمام أن الغالبية أجابت على سؤال: "ما الذي يسعى الغرب لتحقيقه من خلال تشديد العقوبات على روسيا؟" بـ: "إضعاف وإذلال روسيا" (نسبة 71% في أيلول سنة 2014 و69% في تشرين الأول سنة 2015). وفي المقابل 4% فقط (سنة 2014، و6% سنة 2015) كانوا يعتقدون أن تشديد العقوبات كان محاولة لـ: "إيقاف الحرب والدمار والقتل في شرقي اوكرانيا". وبينما يبدو أن الروس يصدقون بالفعل الروايات عن الهجوم الغربي لتقويض روسيا، فلا يمكن استبعاد أن تكون هذه النسب المرتفعة نتيجة لآلة الدعاية الروسية التي مضت قدماً في التلاعب بالرأي الجماعي الروسي. لكن من الضروري أن نتذكر أن مرارة فقدان المجد والشموخ الوطني بعد سقوط الاتحاد السوفياتي قد يفسِّر أيضاً تعطُّش الشعب الروسي لتفسير صحيح لهزيمتهم من قِبَل عدو روسيا التقليدي، ألا وهو الغرب. ورغم أن فكرة الحرب الهجينة وفق المفهوم الروسي تقدِّم مثل هذا التفسير، إلا أنها قد تكون الحالة التي لا تنتج فيها المواقف المعادية للغرب من آلة غسيل الدماغ الروسية، بل هي في معظمها نتيجة لما يُكِنّونَه بالفعل في قلوبهم وعقولهم، أو حتى الاثنين معاً.

وفي كلا الحالتين، يبدو أن الحرب الهجينة الغربية (وفق المفهوم الروسي) قد بدأت بالفعل، ليست في عقول الروس فقط بل في قلوبهم أيضاً.

[131] مركز ليفادا هو مركز روسي مستقل غير حكومي لاستطلاع الآراء والأبحاث الاجتماعية، وسُمي بهذا الاسم على اسم مؤسسه البروفيسور في علم الاجتماع يوري ليفادا.

خلاصة: صعود "الحرب الهجينة" الروسية- دروس للغرب:

كما وعدنا في المقدمة لم يكن هذا الكتاب تمحورا حول ممارسات الصراع الاعلامي المعاصر بين الكرملين والغرب، ولم يتطرق الى التكتيكات التي يصفها الخبراء الغربيون غالباً بأنها حرب روسية سواء كانت هجينة أم سيبرانية أم إعلامية، مع عمليات الاختراق أو التضليل الإعلامي والحملات الدعائية التي نفّذتها جهات موالية لروسيا أو مدعومة من روسيا. **بل ركّز الكتاب على تطور النقاش المفاهيمي لنظرية الصراعات المعاصرة في روسيا والغرب، وكيف يفسِّر كل طرف مفاهيم الطرف الآخر.** وكما بيّن تحليل الخطابات في الكتاب، فقد تأثرت هذه الخطابات بمحاولات جهات مختلفة ترويج مصالحها السياسية، بدلاً من محاولة أكثر نزاهة ومهنيَّة لفهم الطبيعة الحقيقية للصراعات في البيئة الجيوسياسية المعاصرة وحالة التقنية الحديثة. لكن يبدو أن هذا الفهم أكثر أهمية، فهو يقدِّم إطاراً مفاهيمياً استراتيجياً لا يسمح لنا بمجرد استيعاب استراتيجية العدو فقط، أي: "الاتجاه والاستخدام الذي تصنعه الوسائل المنتقاة لتحقيق الأهداف المنشودة"، بل مواجهة هذا العدو بأكثر الطرق فاعلية وكفاءة. وبعبارة أخرى الرد الناجح على التحديات التي تمثِّلها روسيا في الوقت المعاصر، سواءً كانت هذه التحديات هجينة أم إعلامية أم سيبرانية أو تحت أي تسمية دارجة أخرى، فالغرب بحاجة لبلورة رؤية سياسية للصراعات المعاصرة على العموم، ومع روسيا المعاصرة على الخصوص. إن تركيز هذا الكتاب على الخطاب الذي يكتنف هذه الرؤية يقدّم عدة أفكار ودروس هامة للغرب:

الدرس الأول: عن طبيعة وخطر الحرب الهجينة:

يكشف تحليل هذا الكتاب للخطاب حول الحرب الهجينة أن ثلاث ظواهر مختلفة تماماً وُصِفَت على أنها حرب هجينة.

الأولى: هي النموذج التفسيري الأصلي للحرب الهجينة الذي وضعه هوفمان، وبناءً عليه استوعَبَت هذه الحرب أشكالاً مختلفة من نماذج الحرب بما فيها الامكانات التقليدية والتكتيكات والتشكيلات

غير النظامية، والأعمال الإرهابية بما فيها العنف العشوائي والإكراه، والاضطراب الجنائي. وكما ناقشنا في الفصل الأول فقد تجذّرت هذه النظرية في النقاش المفاهيمي حول طبيعة الصراعات المعاصرة التي تَحدُثُ في الولايات المتحدة منذ بدايات سنة 2000، واستعارت عناصر قديمة من نظريات مطوّرة سابقاً، مثل الحرب المفتوحة، والحرب المركّبة وحرب الجيل الرابع، بالإضافة الى ملاحظات مختلفة موضَّحة في "الاستراتيجية الدفاعية الوطنية سنة 2005". **كانت الغاية من نظرية هوفمان الأصلية التي اتخذت حرب لبنان الثانية نموذجاً يُحتذى، هي توصيف الطبيعة المتغيِّرة للصراعات المعاصِرة، بالتركيز على المستويات التكتيكية والعملياتية. لذا تكمن المساهمة الرئيسية لهذه النظرية في محاولتها "لتحسينٍ أفضل لتلك الظاهرةِ الرمادية الفوضوية وتجنب غروزني[132] ومقديشو[133] وبنت جبيل[134]، أكثر من اقتراح خطة استراتيجية للمؤسسة العسكرية تفرض نفسها لوقت طويل".**

الثانية: وكان هذا الانتقاد أحد الأسباب لإعادة وضع نموذج تفسيري للحرب الهجينة بداية سنة 2010، مما أدى الى وضع تعريف أوسع لمفهوم الهِجَانَة في الصراعات المعاصرة "**كمزيج معقّد من الوسائل التي تتضمن تناغماً وانسجاماً بين الدبلوماسية والتفاعل الدبلوماسي والمعونات الانسانية والضغط الاجتماعي والتطوير الاقتصادي والاستخدام الذكي لوسائل الاعلام والقوة العسكرية**". وبحلول سنة 2012 تخلّى الناتو تقريباً عن أعماله المبكِّرة في مجال الحرب الهجينة والتهديدات الهجينة، حتى جاءت الأزمة الاوكرانية والأعمال الروسية في القرم التي حفّزته لإعادة

---

[132] غروزني عاصمة الشيشان التي اجتاحتها روسيا سنة 1994 في محاولة منها للقضاء على الحكومة الشيشانية الانفصالية بقيادة الجنرال جوهر دوداييف، وانتهت المعركة بانتصار الحكومة الشيشانية الانفصالية. ثم أعادت موسكو احتلالها سنة 2000 بعد أن حاصرتها ودمّرتها، بعد تولي فلاديمير بوتين السلطة، وجرت المعركة الثانية ما بين25كانون الاول 1999 و6شباط 2000, وصفت الأمم المتحدة غروزني سنة 2003 على أنها أكثر المدن دماراً على وجه الأرض.

[133] معركة مقديشو كانت جزءً من عملية الثعبان القوطي، وجرت ما بين 3-4 تشرين الأول سنة 1993 في العاصمة الصومالية مقديشو بين قوات الاونوسكوم بقيادة الولايات المتحدة من جهة والميليشيات الصومالية الموالية للرئيس محمد فرح عديد من جهة ثانية، وأسفرت عن مقتل نحو ألف صومالي و19 جندياً أمريكياً، وأدت للانسحاب الفوري للقوات الأمريكية من الصومال.

[134] بنت جبيل مدينة في جنوب لبنان اجتاحها الجيش الصهيوني خلال حرب 2006 بعد أن دمرها.

فكرة الحرب الهجينة الى مركز البحث الأكاديمي والعسكري والسياسي. وفي محاولة لفهم أعمال الكرملين المؤثِّرة للغاية، التي لم تتوافق مع أي من قوالب الغرب المفاهيمية عن الصراعات المعاصرة، أحيا الناتو مفهوم الحرب الهجينة، وأعطاه تعريفاً أوسع من ذي قبل وهو: "**استمرارية التهديد باستخدام الطرق التقليدية وغير التقليدية، مما يَجسُر الهوة بين القوى الخشنة والناعمة**".

الثالثة: وبالتزامن مع هذا التطور بدأ خطاب مستقل عن الحرب الهجينة (الحرب الهجينة وفق المفهوم الروسي) يتطور في روسيا، وكما قلنا في الفصل الثالث والرابع والخامس والسابع؛ فقد انهمك الأكاديميون الروس والمفكرون العسكريون أواخر التسعينات وبداية الألفية بوضع الأسس النظرية لدور الطرق والأساليب غير العسكرية في الصراعات المعاصرة. وظهر المصطلح ذاته أول مرة في الخطاب الأكاديمي بعد سنة 2014، كرد فعل مباشر من المجتمع الأكاديمي الروسي على استخدام الغرب السياسي للحرب الهجينة على أنه شيء "تشُنُّه روسيا على أوكرانيا"، **وكان النموذج التفسيري الروسي للحرب الهجينة وفق المنظور الروسي مبنيّاً على نظريات موجودة في روسيا مثل: حرب التخريب وحرب الشبكة المركزية والحرب الاعلامية**. كما أن نظرية هوفمان للحرب الهجينة و"الحرب الروسية الهجينة" -كما طورها الناتو- تمثّل وجهات نظر مختلفة وإن كانت مترابطة من ناحية وجهات النظر المفاهيمية عن الصراعات المعاصرة، **أما الحرب الهجينة وفق المفهوم الروسي فتُقَدِّم شيئاً مختلفاً تماماً، فالغاية منها هي "تحقيق غايات سياسية باستخدام الحد الأدنى من التأثير العسكري على العدو.... وبتقويض قوته العسكرية والاقتصادية بالضغط الاعلامي والنفسي، والدعم النشط للمعارضة الداخلية والحزبية وبالطرق التخريبية**".

وهكذا فقد سيطرت ثلاث تفسيرات مختلفة للحرب الهجينة على الخطاب الأكاديمي والعسكري المعاصر: التعريف الأصلي للحرب الهجينة وفق مفهوم هوفمان الذي يشمل الجمع بين الوسائل والطرق التقليدية وغير التقليدية في ساحة المعركة، وما تسمى الحرب الهجينة الروسية وفق مفهوم الناتو التي تشمل أيَّ جمع في الاستخدام بين الوسائل العسكرية وغير العسكرية، والحرب الهجينة

وفق المفهوم الروسي (gibridnaya voyna) مبنيّة على الوسائل غير العسكرية فقط وتهدف لتقويض وتخريب العدو دون اللجوء للقوة العسكرية. وبأخذ هذه الاختلافات بعين الاعتبار فالنموذج التفسيري المعاصر للهِجانة خليط من المفاهيم المختلفة أكثر منه نظرية تساعد على فهم وتفسير الحقيقة المعقدة للصراعات المعاصرة. وثمة سببان لهذا: **الأول** هو الطبيعة الغامضة لمصطلح هجين، **والثاني** هو إساءة استخدام مصطلح الحرب.

فحسب تعريفها اللغوي كلمة هجين تعني شيئاً يتكون أو هو نتيجة مزيج من شيئين آخرين أو أكثر. وبينما كلمة "هجينة" تشير الى ظاهرة تتسم بأنها تتكون من عناصر مختلفة فإنها لا تحدد طبيعة هذه العناصر ولا مقدارهم. وطبيعة العناصر الممتزجة يقدمه عادة تعريف الظاهرة: " ظاهرة محرّك (البنزين–الكهرباء) الهجين" على سبيل المثال، تعني أن المحرك يعمل على الديزل جزئياً وعلى الكهرباء جزئياً. وحسب هذا المنطق، **يمكن مناقشة أن مفهوم هوفمان عن الحرب الهجينة مبني جزئياً على استخدام الوسائل والتقنيات التقليدية وجزئياً على استخدام الوسائل والتقنيات غير التقليدية، أما الحرب الهجينة الروسية فعلى النقيض: مبنية على العمليات العسكرية جزئياً (جزء منها علني وآخر خفي) ومبنية جزئياً على الوسائل والأساليب غير العسكرية (جزء منها اعلامي وجزء سيبراني وجزء دبلوماسي...)، والحرب الهجينة وفق المنظور الروسي، اقتصادية جزئياً واعلامية جزئياً ودبلوماسية جزئياً وسيبرانية جزئياً وهكذا.** ورغم أنه وعلى خلاف "محرك البنزين–الكهرباء الهجين" الذي يتكون من جزأين محددين تماماً، فالتنوع في العناصر الممكنة ومساهمتهم الممكنة في أي من صيغ الحرب هذه تخلق موقفاً "يخسر فيه مصطلح الحرب الهجينة قيمته ويسبب الضبابية بدلاً من توضيح حقيقة الحرب الحديثة".

وهكذا فوصف حرب على أنها هجينة يدل على إمكانية الجمع بين كل الوسائل والأساليب الممكنة، التي قلما تساعد إن أردنا فهم الطبيعة الحقيقة للصراع المعاصر. وهذا الخلط مُثبَت جيداً من خلال أمثلة من عالم الفن، بينما الجمع (أي التهجين) بين لونين هما الأصفر والأزرق يمكن أن يؤدي لظهور ما يمكن وصفه بـ "اللون الأصفر–الأزرق المهجن"، فقد فشل هذا المصطلح بوصف

النموذج الكامل للألوان الممكنة التي تنتج عن جمع (تهجين) الأصفر مع الأزرق، مثل: الأخضر، لون المناخ، لون براعم الربيع، لون الغابات المطرية الاستوائية، أو الألوان الأخرى الكثيرة التي يمكن أن تظهر بخلط الأزرق والأصفر بنسب مختلفة. وبالتالي، فوصف الحرب على أنها هجينة مشابه لوصف العشب بأنه "ذو لون أصفر–أزرق مُهَجّن"، وليس أخضراً، وهذا مثير للخلط مفاهيمياً وفي النهاية غير مساعد على توضيح طبيعة الظاهرة الموصوفة. وبنفس الطريقة تماماً فكل ألوان الأعشاب الممكنة تندرج تحت تعريف التهجين بين اللونين الأصفر والأزرق، لكن بينما ليست كل الألوان الهجينة الممكنة للأصفر والأزرق يمكن استخدامها لتوصيف العشب، **فأي حرب هي تهجين للوسائل والأساليب العسكرية وغير العسكرية، لكن ليس كل تهجين لهذه العناصر يمكن وصفه بأنه حرب.** سنناقش لاحقاً إساءة استخدام مصطلح الحرب، أما هنا فهو مهم لعكس الغموض الأكاديمي الناتج عن اشتمال مصطلح الهجينة في الأزمة الأوكرانية. وكما ناقشنا آنفاً، فقد اتهم الغرب روسيا باستخدام الحرب الهجينة في أوكرانيا، سواء بمظهره النظري الأصلي كما صاغه هوفمان أو بالنموذج التفسيري الجديد بعد إعادة الصياغة. وروسيا بدورها اتهمت الغرب بشن حرب هجينة (وفق المفهوم الروسي) عليها. وبما أن هذه الأنواع الثلاثة للمواجهات مختلفة تماماً، فيمكن الى حد ما القول إن الغرب وروسيا كانا محقين. **أولاً**– الحركات الانفصالية شرق اوكرانيا والمدعومة من روسيا تستخدم جمعاً بين تكتيكات وتقنيات وأساليب تقليدية وغير تقليدية، ويمثِّلون بوضوح تهديداً هجيناً –حسب تعريف هوفمان الأصلي– على الجيش الأوكراني. **ثانياً**– إن الجمع بين الوسائل والأساليب العسكرية وغير العسكرية الظاهر منها والخفي التي استخدمها الكرملين في القرم تتسق بجلاء مع تعريف الحرب الروسية الهجينة كما وضعها الناتو سنة 2014 و2015. **ثالثاً**– استخدام الغرب للوسائل والأساليب غير العسكرية والتخريبية ضد الاتحاد السوفياتي أثناء الحرب الباردة، الذي تَواصَلَ تأثيره الى حد ما في حقبة ما بعد الاتحاد السوفياتي، وبالتالي تقويض المصالح الروسية الجيوسياسية، يندرج تحت تعريف الحرب الهجينة وفق المنظور الروسي.

ولذا يمكن استخدام مصطلح الحرب الهجينة ليتناسب مع أي من هذه التفسيرات، فكل منهم يمثِّل حالة معيّنة من الجمع بين وسائل وأساليب مختلفة تُستخدم لتحقيق أهداف سياسية. رغم أن تأثير هذا المصطلح لوصف حالة محددة من الجمع في محاولة لمواجهتهم مشابه لتطبيق مصطلح "اللون الأصفر الأزرق المهجَّن" لوصف العشب في حديقة ما، **لذا ليس من المفاجئ أن المؤسسات العسكرية رفضت مصطلح الحرب الهجينة بشكل عام في كل من الغرب وروسيا، لصالح تعريفات أكثر تحديداً. وليس من المفاجئ أيضاً أن مصطلح الحرب الهجينة بات على وجه السرعة وبشكل ناجح مُستخدَماً سياسياً في الغرب وروسيا، نظراً الى أنه يمكن وصف أي عمل عدائي تقريباً وفقاً لنموذج التقييم المفاهيمي نفسه، وبالتالي نفس الرسالة السياسية الموحَّدة والسماح للجهات المحلية الفاعلة برص صفوفها ضد أي تهديد خارجي.**

ورغم الاستخدام السياسي لمصطلح الحرب الهجينة، فيمكن أن يُظهِر هذا أن العسكريين الروس والغربيين يعرِفون أن المصطلح قريب من انتهاء الصلاحية لوصف الطبيعة الحقيقية للصراعات المعاصرة، مما يضطرهم الى ترويج تعريفات أكثر تحديداً، مثل الحرب الاعلامية والحرب السيبرانية، السائدة اليوم في الغرب، ورغم أن كلاً من هذه المصطلحات الجديدة تقدِّم تهجيناً معيناً (جمعاً) من وسائل وأساليب مختلفة، فالسؤال الحقيقي هو ما إن كان يمكن تعريفها جميعها على أنها حرب. وبعبارة أخرى، كما وضعها كلاوزفيتز "لا يوجد سوى طريقة واحدة للحرب وهي الاشتباك"، فسيكون من المنطقي استنتاج أن تهجين وسائل وأساليب عدائية دون اشتباك ليس حرباً حقيقية. وبينما يمكن تفسير القول الشهير لكلاوزفيتز على أن "الحرب مجرد استمرار للسياسة بوسائل أخرى" على أنه طرح بأن الحرب يمكن خوضها دون وسائل عسكرية، كما يوضِّح أن "الحرب هي فعل القوة لإجبار عدونا على الانصياع لرغبتنا". كما يشير بشك للعلاقات بين السياسة والحرب، والعنصر المطلوب لتحويل العدوانية الدبلوماسية الى حرب، فيقول كلاوزفيتز: **"عند المستوى الأعلى لفن الحرب تتحول الحرب الى سياسة، لكن السياسة تُنَفَّذ عبر خوض المعارك أكثر من إرسال المذكرات الدبلوماسية".**

وبالتالي، ليس من المفاجئ، نظراً للميل الحالي لوصف المواجهات غير العسكرية على أنها حرب (أي الحرب الاعلامية أو السيبرانية أو الحرب السياسية أو الحرب الهجينة وفق المفهوم الروسي)، قول بعض الباحثين –وهم مُحِقّون– "لم تُحسم أي معركة في التاريخ باستخدام وسائل غير عسكرية، أو باستخدام الإعلام وحده"، لأنه دون استخدام القوة العسكرية، فمثل هذه المواجهات ليست حرباً، ووصفها على أنها حرب "إساءة استخدام خطيرة لكلمة حرب". وناقش الروس والغربيون على نطاق واسع خطر إساءة استخدام كلمة حرب في الخطاب السياسي المعاصر، وربما يكون الجنرال محمود جاريف هو أفضل من عبَّر عن هذا، حيث قال "**إن كان استخدام وسائل غير عسكرية حرباً، فالتاريخ البشري بأكمله حرب إذاً، لأن الاستخدام المفرط لهذه الكلمة يحطُّ من قيمة هذا المفهوم ويقلل من إدراك المجتمع له**".

ومن ناحية ثانية، ليس ثمة شك في أن بعضاً من المفاهيم التي نوقِشت في هذا الكتاب تستحق تسمية حرب عن جدارة. فعلى سبيل المثال: الحرب المفتوحة والحرب المركبة وحرب الجيل الرابع وحرب الجيل الجديد الروسية، وحتى النموذج التفسيري الأصلي لهوفمان عن الحرب الهجينة يتضمن بعضاً من استخدام القوة، ولذا يمثِّل ظاهرة تندرج تحت تعريف الحرب. ومن ناحية أخرى، لا تشمل نظرية مسنر لحرب التخريب ولا نظرية بانارين للحرب الاعلامية ولا نظرية دوجين للشبكة المركزية ولا الحرب الهجينة وفق المفهوم الروسي ولا التفسيرات الغربية للحرب الاعلامية والسيبرانية الروسية؛ اشتباكات عنيفة للقوات العسكرية بهدف تحقيق أهداف سياسية. فمثل هذه الأشياء، وفق كلام تشيكنوف وبوغدانوف ومفاهيمهم توصِّف أعمالاً "يمكن اعتبارها "صراعاً سياسياً"، "حوادث"، "تنافس" لكن ليس الحرب.

وكما ناقشنا في هذا الكتاب، فتعميم تعريف الحرب الى أي حالات جمع ممكنة للمواجهات السياسية أمر خطير؛ فرغم أن هذا قد يخدم أهدافاً سياسية إلا أنه مُربِك جداً للجيش. إذ إن أي تنظيم عسكري بالتعريف يتخذ تحضيرات للانتصار في الحرب (أي لإجبار العدو من خلال ممارسة القوة) وبالتالي، **فالتنظير للمواجهات غير العسكرية على أنها حرب ليس في صالح القيادة العسكرية،**

ببساطة لأن معظم الأعمال المطلوبة والأعمال المضادة لا تندرج تحت مسؤولية الجيش. ولهذا كان الجيش الروسي متحمِّساً جداً لوضع حدود بين حرب الجيل الجديد والحرب الهجينة وفق المفهوم الروسي، إضافة للنظريات المُرافِقَة الأخرى. ولهذا أيضا حاول الناتو ويحاول مواجهة الأعمال الروسية غير العسكرية في البلطيق وشرق أوروبا عبر نشر القوات المشتركة عالية الجاهزية-كقوات تابعة لحلفاء عسكريين- فلا يمكنه إلا أن يستخدم وسائل وأساليب عسكرية، حتى عند مواجهة تحديات غير عسكرية. ولاختتام مناقشة هذا الكتاب لطبيعة الحرب الهجينة مع كل تفسيراتها المختلفة والمفاهيم المرتبطة بها، من الضروري محاولة صنع احساس أو ربط خارج النموذج التفسيري وإعادة وضع نموذج تفسيري، وكذلك التفسيرات المتنوعة وسوء فهم المفاهيم، التي هيمنت على الخطابات الغربية والروسية حول طبيعة الصراعات المعاصرة. وبناءً على التعريفات المطروحة في هذا الكتاب، من الممكن الوصول الى أربعة استنتاجات:

أولاً: نظرية الحرب المركّبة، التي طرحها هوبر أواخر التسعينات، وفكرة الحرب الهجينة كما صاغها هوفمان منتصف العقد الأول من الألفية، **متشابهتان في أنهما تتعاملان مع الاعتبارات العملية للجمع في استخدام القوات النظامية وغير النظامية ضد ذات العدو.** والفرق أن الأولى تتناول المفهوم على العموم، وتتقصى آثاره في الحالات التاريخية، أما نظرية هوفمان فتركّز على الخصائص المحددة للحرب المركّبة في القرن الحادي والعشرين، وتطبّق هذا المفهوم على البيئات العملية والتقنية التكتيكية لميادين الصراع المعاصِرة.

ثانياً: إن مفهوم حرب الجيل الرابع، كما صاغه ليند، ونظرية الحرب المفتوحة التي وضعها كياو ليانج ووانج اكسيجو، ونظرية الحرب الهجينة كما أعاد الناتو وضع نموذجها التفسيري، كلهم مع مفهوم حرب الجيل الجديد التي وضعها تشيكينوف وبوغدانوف تشير بشكل أو بآخر الى ذات الظاهرة؛ **مزيج من القوة العسكرية بوسائل وأساليب غير مباشرة، تُستَخدم جميعها معاً في ذات الاستراتيجية في محاولة لتحقيق أهداف سياسية لصراع مسلح.** وفي الوقت الذي لا تقدِّم فيه أي من هذه النظريات استراتيجية مضمونة لإحراز النصر، فإنهم جميعاً يؤكدون على أهمية الجمع في

الوسائل والأساليب في الحروب المعاصرة، فكما يقول كياو ووانج: "من سيكون قادراً على مزج كوكتيل مميز وفريد من نوعه على مائدة حروب المستقبل سيتمكّن بلا شك من ارتداء أكاليل الغار".

ثالثاً: تتعلق هذه النتيجة بالنظريات المختلفة للتخريب السياسي، التي انتعشت في روسيا خلال التسعينات والعقد الأول من الألفية، لا سيما حرب التخريب وحرب الشبكة المركزية والحرب الاعلامية وغيرها، والتي قادت في النهاية الى الحرب الهجينة وفق المفهوم الروسي. فالنموذج التفسيري الغربي للحروب الروسية السابقة والمعاصرة سواء كانت الحرب الاعلامية أو السيبرانية، التي استبدلت المفهوم المرفوض للحرب الهجينة، تحمل تشابهات هامة مع المفهوم الأمريكي للحرب السياسية التي تطوَّرَت خلال الحرب الباردة، **فكلاهما تطبِّقان استخداماً معيّناً للعنف والضغط الاقتصادي والتخريب والدبلوماسية"، حيث يكون استخدام الكلمات والصور والأفكار معروفاً جيداً... كحملات دعائية وحرب نفسية.**

رابعاً: يبرهن ظهور كلمة "هجينة" في كل هذه المجموعات المختلفة من المفاهيم مجدداً على غموض المفهوم عندما يُطَبّق على ظاهرة الحرب، وهي بالتعريف الظاهرة المتعددة الوجوه وشديدة التعقيد.

الدرس الثاني: حداثة الحرب الهجينة

يتناول الدرس الثاني حداثة الحرب الهجينة في تفسيراتها الثلاث. في محاولة لجذب اهتمام أكبر، يزعم الباحثون بأن اكتشافاتهم ونظرياتهم جديدة تماماً، ولا أفضل لجذب الانتباه نحو دراسات عن الأعمال الروسية خلال الأزمة الاوكرانية من الادعاء: "لقد شَهِدنا تطبيقاً لنوع جديد للحرب، عناصرها الرئيسية هي الحرب الهجينة والمتوازية والاعلامية". لكن من الصعب ألّا يتوافق المرء مع فريدمان الذي يحذِّر من استخدام مصطلحات جديدة لمفاهيم قديمة. وبالفعل كما رأينا فقد لعب جانب الإعلام والحملات الدعائية دوراً حيوياً في الصراعات منذ القِدَم، وأي شكل من أشكال الحرب

"غير متوازي الى حدٍ ما لأن الدول نادراً ما تملك إمكانات أو استراتيجيات متطابقة"، والمصطلح هجينة كما أسلفنا، يمكن بشكل أو بآخر أن يُستخدم لوصف أي شيء. يمكن لهذا في النهاية أن يكون أفضل شرح لمصطلح الحرب الهجينة في الصراعات المعاصرة. على سبيل المثال، يمكن وصف الحرب التي تقودها الولايات المتحدة في أفغانستان والعراق بأنها حرب هجينة، لكن منظّري الحرب الهجينة يتجنبون هذا. وثمة سببان لهذا، **الأول** هو أن هذه الحروب شُنَّت ضد تهديدات غير نظامية وليس مزيجاً من التهديدات النظامية وغير النظامية، وبالتالي لا تندرج تحت تعريف هوفمان الأصلي للحرب الهجينة. والسبب **الثاني** هو أن تطوير مفهومٍ واسعٍ للتهجين تم عبر ظروف سياسية محددة من التوتر بين روسيا والغرب، والمفهوم الجديد كان واسعاً جداً "الحرب الهجينة تجسر الهوة بين القوة الصلبة والناعمة" لدرجة أنها لا يمكن أن تُستَخدم لوصف الأعداء في العراق وأفغانستان على أنهم أعداء هجينون. وعلى نحو مماثل، لم يصف أي باحث المواجهة المستمرة مع تنظيم الدولة الاسلامية على أنه حرب هجينة سوى القليلين، رغم أن تنظيم الدولة يمثِّل مزيجاً معقداً من القدرات النظامية وغير النظامية والأساليب والتقنيات معاً مع حملة اعلامية فعالة للغاية.

إن غياب التحليلات عن الكتابات التي توصّف هذه الحروب على أنها حروب هجينة، رغم طبيعتها الهجينة، يبرهن مجدداً على غموض المفهوم ذاته، وكذلك على فائدته السياسية، لأن اتخاذ قرار صريح بتطبيقه على المواجهة بين الغرب وروسيا يبدو سياسياً أكثر منه مناسباً مفاهيمياً. كما يخطر بالبال سؤال عن قدرة الحرب الهجينة على توفير رؤية مفاهيمية جديدة للصراع المعاصر. في مناقشة الحداثة الكامنة لأي مفهوم جديد للحرب، من الضروري تحديد فيما إن كان المفهوم يحاول توصيف حقيقة ميدانية جديدة (تكتيكياً وعملياً) أو طريقة جديدة لصنع الاستراتيجية. رغم أن الاستراتيجية هي "العلاقة بين الغايات السياسية والوسائل (العسكرية والاقتصادية والسياسية...)". ويمكن إعادة صياغة المجازات التي استخدمها العقيدان الصينيان، بالقول أن صناعة الاستراتيجية عملية خلط كوكتيل من هذه الوسائل "والمنتصر هو من يجمعهم جيداً". وهكذا فيوجد حاجة لمفهوم جديد للمساهمة في صنع الاستراتيجية لإنتاج وصفة جديدة (إما

بتوفير كوكتيل جديد أو باختراع وصفة لكوكتيل خُلِطَ سابقاً حدسيّاً أكثر منه معرفياً)، هي مفهوم جديد على المستوى التكتيكي العملياتي يحاول توصيف التحسن في المكوّنات المخلوطة حسب وصفة قديمة. والمثال الأفضل عن الأولى هو مفهوم الاستراتيجية المطوّرة خلال القرن التاسع عشر، فرغم أن الكوكتيل من "الوسائل السياسية واستخدام القوة أو التهديد باستخدامها" يمكن اقتفاء أثرها الذي يعود للماضي، إلا أن غرابة استراتيجيات القرن التاسع عشر كانت في اختراع وصفَتِها. وأفضل مثال عن النوع الثاني هو الحرب الهجينة التي وضع هوفمان أُسُسَها. فمن تحليل المفهوم الأصلي للحرب الهجينة في الجزء الأول، يتضح أن المفهوم يحاول توصيف بيئة تكتيكية عملية أكثر منها طريقة جديدة لصناعة الاستراتيجية، كما أثبتنا في النقد الموجه الى الطبيعة الاستراتيجية للمفهوم. من ناحية أخرى، كما أثبت موري ومنصور وهوبر وآخرون: ليس ثمة الكثير مما هو جديد في المزيج الذي تتعامل فيه الحرب الهجينة التي وضعها هوفمان، في عملية المزج بين القوات والوسائل والأساليب النظامية وغير النظامية. لكن في المقابل، حدّث هوفمان هذا المزيج بحقائق القرن الحادي والعشرين، واصفاً الذوق الجديد الذي تَرافَقَ مع التقنيات الجديدة والتكتيكات والعمليات الجديدة اللاحقة الى كوكتيل صنع الاستراتيجية القديمة للجمع بين أنواع نظامية وغير نظامية من الحرب. وفي معرض الدفاع عن حداثة مساهمة هوفمان، يمكن القول بأن الاختلافات في المعدات والأسلحة والتدريب والمهارات بين القوات النظامية وتلك غير النظامية أكبر مما استُخدِمَ في الماضي، وبالتالي يؤدي مزجهم الى ذوق تكتيكي عملياتي جديد تماماً بالنسبة الى المزيج القديم لصنع الاستراتيجية. ومن الخطاب حول التفسير الجديد للحرب الهجينة كمزيج من الوسائل والطرق العسكرية وغير العسكرية (وكل المفاهيم المشابهة التي نوقِشت في هذا الكتاب، مثل حرب الجيل الرابع والحرب المفتوحة وحرب الجيل الجديد) من الواضح أنهم جميعا يقدِّمون رؤية جديدة لصناعة الاستراتيجية. لكن دراسة أعمق للتاريخ تبيّن أن مزيج صناعة الاستراتيجية من الوسائل العسكرية وغير العسكرية موجود منذ القِدَم، فأي شيء من شأنه إيذاء العدو قابل للتجربة. على سبيل المثال استخدمت فرنسا هذا المزيج من الاستراتيجية ضد بريطانيا في الثورة الأمريكية عبر دعم الضباط الأمريكيين، وألمانيا فعلت الشيء نفسه عبر دعم البلاشفة ضد الامبراطورية الروسية خلال الحرب

العالمية الأولى، وبريطانيا خلال حربها مع الامبراطورية العثمانية استخدمت مزيجاً من الوسائل غير العسكرية الدبلوماسية منها والاقتصادية وغيرها لدعم الثورة العربية[135]. ولأنه ليس هنالك ما هو جديد في هذا، فالشيء الجديد الوحيد في مفهوم حرب الجيل الجديد، وكذلك في كافة النظريات المشابهة هو **امتزاج الوسائل العسكرية وغير العسكرية، في محاولتهم لطرح الطرق التي يُخلَط فيها هذا المزيج ليلائم بيئة القرن الحادي والعشرين.** بعبارة أخرى رغم الادعاء بأنهم يقدِّمون رؤية جديدة لصناعة الاستراتيجية، إلا أن هذه المفاهيم تتناسب مع وصفة معروفة في الحقائق السياسية والاقتصادية والتقنية المعاصرة، ولذا فهم يقدِّمون مجرَّدَ وصفة عملية تكتيكية لخلط المزيج السابق لصنع الاستراتيجية.

ويمكن تطبيق ذات النتيجة على مفهوم الحرب الهجينة وفق المفهوم الروسي وكل النظريات الملحقة بها بأنها تطبِّق استخدام الوسائل غير العسكرية فقط، ولا تطرح أي شيء جديد مفاهيمياً في مجال صناعة الاستراتيجية. عُرِفَت أهمية الوسائل غير العسكرية لنجاح صناعة الاستراتيجية منذ عصر صن تزو الذي قال: "أن تخوض المعارك وتنتصر فيها ليس هو أقصى التفوق، بل إن كسر إرادة العدو للمقاومة دون قتال هو أقصى التفوق". ويبيّن تحليل للتاريخ أن الخلطات غير العسكرية المبنية على الصور والأفكار إضافة الى الحملات الدعائية والحرب النفسية قد استُخدِمَت منذ بدء البشرية. وبلا شك تغيَّرت وصفة تلك الخلطات بسبب تطورات عسكرية وسياسية واقتصادية واجتماعية مختلفة، إضافة الى التقدم التقني. **لكن كما ورد آنفاً هذا النوع من الموائمة مجرد تحديث تكتيكي وعملي أكثر منه طريقة جديدة لصنع الاستراتيجية. بمعنى أن الحرب الهجينة وفق المفهوم الروسي بطبيعتها ليست ظاهرة جديدة، وليست خاصة بروسيا، بل هي موائَمَةَ للممارسات القديمة جداً والمعروفة مع المواقف الجيوسياسية والإمكانات التقنية للقرن الحادي والعشرين.**

[135] ثورة الشريف حسين ضد الدولة العثمانية خلال الحرب العالمية الثانية.

وبالتالي فلا حرب الجيل الجديد الروسية ولا الخطاب الذي يكتنف الحرب الهجينة وفق المفهوم الروسي يقدِّم طريقة جديدة مفاهيمياً لصناعة الاستراتيجية، مثل الممارسات التي استُخدِمَت على مدى تاريخ البشرية، لكن من المهم التأكيد على أن تاريخ الحرب مليء بالأمثلة التي تكيَّفت فيها "وصفات" تكتيكية وعملياتية جديدة لخليط قديم من صناعة الاستراتيجية بمهارة الى بيئات اجتماعية وسياسية واقتصادية وتقنية جديدة، مما قدَّم ميزة كبيرة وفورية لأول شعب استخدمهم. ونظراً الى أن هذا بالضبط ما تحاول حرب الجيل الجديد والحرب الهجينة وفق المفهوم الروسي فعله، فإن الدرس الثالث المهم الذي يجب استخلاصه من هذا الكتاب يتعلق بكيفية تصور القيادة السياسية والعسكرية الغربية والاستجابة لطبيعة ما يسمى التهديد الروسي.

الدرس الثالث: هل الروس قادمون؟

للإجابة عن هذا السؤال، من المهم فهم طبيعة استراتيجية الكرملين وأعماله على المستوى التكتيكي العملياتي. ويقدّم التحليل الوارد في هذا الكتاب عدة نظرات هامة الى فهم الكرملين للصراعات المعاصرة ومستوى التهديد الروسي على الغرب.

أولاً: كما ناقشنا في الفصل السابع، **يضع الجيش الروسي حدّاً فاصلاً بين مفهومين مختلفين: الحرب الهجينة وفق المفهوم الروسي وحرب الجيل الجديد.** وبينما تطبِّق الأولى مزيجاً من الوسائل السياسية والدبلوماسية والاقتصادية والاعلامية وغيرها من الوسائل غير العسكرية التي تهدف الى تخريب وتقويض العدو، توصِّف الثانية عملية عسكرية كاملة تسبق وتترافق مع أعمال غير عسكرية مختلفة بهدف إضعاف القوة العسكرية للعدو وتقليل الهامش السياسي لديه. **إن فهم هذا التقسيم مهم لأنه يعني أن الكرملين قد يطبِّق عدة استراتيجيات بسيناريوهات مختلفة، بناءً على فيما إن كان ينوي خوض مواجهة عسكرية مفتوحة أم لا.**

ثانياً: من الضروري توضيح الدرجة التي تمثّل بها نظريات حرب الجيل الجديد والحرب الهجينة وفق المفهوم الروسي أعمالاً روسية، فكما رأينا كيف أشار بعض الخبراء الغربيين الذين حللوا

الخطاب الروسي عن هذه المفاهيم، على نحو صحيح الى أن المفكرين والخبراء العسكريين الروس كانوا ببساطة يشرحون آرائهم عن "البيئة العملية وطبيعة حرب المستقبل، ولا يقترحون طريقة روسيَّة جديدة للحرب أو مذهباً عسكرياً جديداً". رغم أن دراسة أعمق للعقيدة القتالية الروسية عام 2014 تطرح الفكرة التي عبَّر عنها جيراسيموف وتشيكينوف وبوغدانوف فيما يتعلق بحرب الجيل الجديد والحرب الهجينة وفق المفهوم الروسي بأنها ليست آرائهم وحدهم. فعند مناقشة طبيعة الصراعات المعاصرة على سبيل المثال العقيدة القتالية تُردِّد صدى نظرية حرب الجيل الجديد، حيث تقول أن مثل هذه الحروب ستتضمن "استخداماً معقداً للقوة العسكرية والسياسية والاقتصادية والاعلامية وغيرها من الوسائل غير العسكرية". وكذلك عند مناقشة الأعمال الروسية المُعَدَّة لمنع المواجهة العسكرية، تُرَدِّدُ العقيدة القتالية بقوة أصداء فكرة الحرب الهجينة وفق المفهوم الروسي، حيث تقول إن واحداً من أهداف القيادة الروسية السياسية والعسكرية هو تحييد ما أمكن من التهديدات والتحديات بالوسائل السياسية والدبلوماسية وغيرها من الوسائل غير العسكرية. **بمعنى أن مفاهيم حرب الجيل الجديد والحرب الهجينة وفق المفهوم الروسي تمثِّل على الأقل درجة معيَّنة من سلوك الكرملين الاستراتيجي.**

ثالثاً: من الضروري تحديد أي من هاتين الاستراتيجيتين تستخدمهم روسيا ضد الغرب، بينما من الصعب عدم التوافق مع جاليتي بأنه **"سيكون من السذاجة اعتبار روسيا قوة دفاعيّة سلميّة مَحضَة"، ويمكن القول بأن الكرملين بالفعل لا يسعى لمواجهة عسكرية مفتوحة مع الغرب، ولا يصدِّق أن الناتو يمثِّل تهديداً عسكرياً بحد ذاته، والجيش الروسي لا يحدد الناتو كتهديد عسكري، بل يحدد توسعة الناتو فقط –ضم أعضاء جدد للناتو ممن لهم حدود مع الاتحاد الروسي– على أنه "خطر عسكري" من شأنه "أن يؤدي الى تهديد عسكري في ظروف معينة".**

لكن كما ناقش الفصل السابع، يعتقد الكرملين أن الغرب يستخدم وسائل وأساليب غير عسكرية مختلفة ضد روسيا بهدف تقويض الدولة الروسية، وخلق وضع مشابه لذاك الذي جاء بعد انهيار الاتحاد السوفياتي وفي النهاية الوصول الى انحلال روسيا تلقائياً. **ولذا من المنطقي الافتراض أن**

روسيا استخدمت وتستخدم الطرق الملحقة بالحرب الهجينة وفق المفهوم الروسي كوسيلة للردع، في محاولة لتحييد المخاطر العسكرية المحتملة باستخدام الطرق السياسية والدبلوماسية وغيرها.

وثمة إجراءان محتملان يمكن اتخاذهما: تكرار ذات الطرق أو تطوير شيء آخر مختلف يعزز التفوق الغربي ويغطي نقاط ضعفه، لكن قبل مناقشة هذه الطرق، من الضروري التركيز على **رابع وأهم نقطة** فيما يتعلق بالتهديد الروسي، ألا وهي حداثته وأهميته. **كما لاحظنا سابقاً، لا يوجد ما هو جديد في الحرب الهجينة وفق المفهوم الروسي كاستراتيجية لتحقيق الأهداف السياسية دون اللجوء الى القوة العسكرية فمثل هذه الاستراتيجيات استُخدِمَت على مدار التاريخ الانساني.** تتمثَّل حداثة الحرب الهجينة وفق المفهوم الروسي وبالتالي فعاليتها في تكييف هذه الاستراتيجية المعروفة على المستوى التكتيكي العملياتي للحقائق مع المجتمعات الحديثة والتقنيات. ومن المهم التأكيد على أن روسيا لم تكن أول من أدرك المزايا السياسية لمنصات التواصل الجديدة في عصر الانترنت، وكذلك الفرص التي توفِّرها الحريات الاجتماعية في المجتمعات الغربية لأولئك الذين يسعون لتحقيق مكاسب سياسية معينة، من حركات سياسية مختلفة، ومنظمات ارهابية وحتى بعض الدول انخرطت في ممارسات مشابهة قبل روسيا بفترة طويلة، لكن الكرملين كان أول من فعل هذا بشكل منهجي، وبتخطيط جيد وتنفيذ جيد وبطريقة جيدة التمويل نسبياً. **لقد علَّمنا التاريخ أن أفضل تلميذ لحرب سابقة هو من تعرّض للهزيمة لكنه لم يتصالح مع الهزيمة**، ومسألة هزيمة الاتحاد السوفياتي سواءً كانت بفعل الحرب الامريكية السياسية أم أنه انهار بفعل مشاكله، غير مهم كثيراً في الظروف الروسية المحلية، فالقيادة السياسية الروسية الحالية، والطبقة الأكاديمية والعسكرية، تعزو انهيارها لأعمال الغرب. وبالتالي ليس مفاجئاً أن المؤسسات النظرية والمفاهيمية التي تتناول مكانة ودور الوسائل والأساليب غير العسكرية في المواجهات بين الدول هيمنت على الخطاب السياسي العسكري والأكاديمي الروسي حتى خلال الحرب الباردة. وكما حدث في حالة الحرب الداخلية

الألمانية[136] التي سعت لتحديد أسباب الهزيمة في الحرب العالمية الأولى، **سعت روسيا منذ أوائل سنة 2000 لتطوير نظرية الحرب الخاطفة غير العسكرية كطريقة لمعالجة هزيمتها في الحرب الباردة (لأن الحرب الهجينة وفق المفهوم الروسي بالتعريف ليست حرباً وليست خاطفة، بل هي عملية عدائية بطيئة جداً للنيل من العدو).**

ومن الضروري الإشارة الى نقاط القوة والضعف في استراتيجية روسيا للحرب الهجينة وفق المفهوم الروسي كي نقيّم التهديد الذي تمثّله روسيا بالفعل على الغرب. فمن جهة يبدو أن الكرملين يستمتع بالمزايا التكتيكية العملياتية المؤقتة، فبينما اجتاحت الغرب نشوة الظَّفَر بالحرب الباردة وكانت الكتب عن الحرب السياسية تتراكم، كان الروس يتعلمون الدروس من الحرب الباردة ويكيّفون وسائلهم وأساليبهم ليلائم البيئة الاجتماعية والسياسية والتقنية للقرن الحادي والعشرين. ومن ناحية ثانية لم يبالغوا في هذه الميزة التكتيكية العملية. **إن الافتراض بأن تقنيات التواصل المتطورة للقرن الحادي والعشرين بما فيها الانترنت ووسائل التواصل الاجتماعي، تجعل الانتصار بالحرب الاعلامية والقيام بأعمال التخريب السياسي ضد العدو أسهل؛ مشابه للافتراض بأن التقنيات الأخرى مثل الرشاشات الآلية أو الدبابات يجعل الانتصار في الحرب البرية أسهل، فقد ثبت خطأ هذا الافتراض مراراً.** وكما يقول فريدمان: *"إن فكرة أن العدو يستطيع تدقيق الأفكار الموجَّهة بدقة الى العقل الجمعي للسكان فكرة ساذجة للغاية، لأن الوسائل التي يتلقى بها البشر المعلومات كأفراد أو كجماعات، معقدة وليس من السهل التلاعب بها".*

وتكمن نقطة الضعف الرئيسية في الحرب الهجينة وفق المفهوم الروسي، في أنها ليست استراتيجية جديدة، بل إنها ما زالت طريقة تكتيكية وعملياتية جديدة لتنفيذ استراتيجية قديمة معروفة مُصَمَمَة لتحقيق أهداف سياسية، كما في العديد من المفاهيم التكتيكية العملياتية الحديثة، إنها تقدّم مجرد ميزة مؤقتة. أي صراع (سواء كان عسكرياً أم لا) هو مبارزة، ونظراً لطبيعته التفاعلية، فالأمر لا يتطلب سوى بعض الوقت قبل أن تُسدَّ فجواته التكتيكية العملياتية.

[136] الحرب الداخلية الألمانية تشير الى الفترة بين الحربين العالميتين الأولى والثانية.

الوقت الذي سيستغرقه لملء هذه الثغرات يعتمد على السرعة التي يستطيع فيها استيعاب الحداثة في التكتيك والممارسة للحرب الهجينة وفق المفهوم الروسي ومدى السرعة التي يستطيع فيها موائمة استراتيجيته للمواجهة غير العسكرية في ضوء حقائق القرن الحادي والعشرين السياسية والتقنية والاجتماعية.

الدرس الرابع: فهم روسيا

في أي مناقشة لإمكانية فهم روسيا، من الصعب ألّا يذكِّرك أحد بالقصيدة المشهورة التي كتبها إيفانوفيتش توتشيف[137] سنة 1866:

لا يمكن معرفة روسيا بالعقل

ولا يمكن قياسها بالأميال

حالتها فريدة من نوعها

يمكن فقط الإيمان بها

وعلى كل حال ففكرة أن روسيا أحجية مغلفة بالغموض داخل لغز –قول تشرشل الذي يستشهد به الكثيرون– بعيد عن الحقيقة، ففي الواقع بعد أن أدلى تشرشل بهذا التصريح، تابع قائلاً "لكن ربما يوجد مفتاح، وهذا المفتاح هو مصالح روسيا القومية". كما رأينا في تحليل منشورات العقيدة القتالية فالمفتاح الذي أشار إليه تشرشل ليس أقل أهمية لفهم روسيا اليوم منه سنة 1939. كتب كينان[138] في توصياته السياسية التي وضعها في رسالته الشهيرة "الرسالة الطويلة" التي حللت التهديد الذي تمثله الحملة الدعائية السوفياتية الموجَّهَة للغرب: *"يجب أن ندرك أن عموم الشعب*

---

[137] فرودور إيفانوفيتش تيتشيف(1803–1873) شاعر ورجل دولة روسي.

[138] جورج فروست كينان (1904–2005) دبلوماسي أمريكي ومؤرّخ، وكان معروفا بتبنيه سياسة الاحتواء للاتحاد السوفياتي خلال الحرب الباردة، ألقى الكثير من المحاضرات وكتب تاريخا علمياً للعلاقات بين الولايات المتحدة وروسيا.

لدينا مثقّف بحقائق الوضع الروسي، لا يمكنني تأكيد أهمية هذا.... أنا مقتنع بأن معاداة السوفياتية ستكون أقل هستيرية في بلادنا اليوم، إن فهم شعبنا الحقائق بشكل أفضل".

وعلى الرغم من أن أهمية هذه الكلمات لم تنقص اليوم عما كانت عليه سنة 1946، يبدو أن السبب وراء عدم استعداد الغرب للحرب الهجينة وفق المفهوم الروسي، هو إغفال توصيات كينان بمجرد انتهاء الحرب الباردة. ويبدو أن مستوى الفهم الغربي لروسيا والفهم الروسي للغرب قبل انحلال الاتحاد السوفياتي كان متماثلاً –مقتصراً على عدد محدود من الخبراء الأكاديميين والعسكريين– فالحرب الباردة حدّت من احتمالات سفر الناس (سواء لأغراض أكاديمية أو للعمل أو للسياحة)، وتغير هذا الوضع دراماتيكياً بعد الحرب الباردة، وخصوصاً بعد فشل الغرب الكبير في الاستفادة من هذا: ثمة فرق كبير بين أعداد الروس الذين سافروا الى الغرب أو عاشوا فيه وأعداد الغربيين الذين سافروا في الاتجاه المعاكس. فبينما يرى الأكاديميون الروس الدراسة في الجامعات الغربية وحضور المؤتمرات في الغرب ونشر الكتابات في الصحف الغربية أمراً طبيعياً (وحتى مطلوباً في بعض الأحيان)، لا يكون العكس متاحاً بالضرورة بالنسبة للغربيين الذين يقضون وقتهم في روسيا، فلم يكتسبوا سوى القليل من الخبرة وغالباً ما يكونون من المتخصصين في الدراسات الروسية. وهكذا يوجد أسباب عديدة مختلفة لهذا، والنتيجة هي أن القيادة السياسية الروسية الحالية والمجتمع الأكاديمي والمواطنون عموماً لديهم فهم أكبر لنقاط قوة وضعف الغرب مما لدى الغرب عن روسيا. كما أنه منذ الحرب الباردة انخفضت الدراسات حول روسيا في الغرب بشكل كبير، حتى أن مراكز البحوث الموجودة في الولايات المتحدة مثل: التجمع السلافي وشرق أوروبا والدراسات الأوراسية صرّحت سنة 2015: "تواجه الدراسات الروسية ضمن العلوم الاجتماعية أزمة، وانحداراً واضحاً في الاهتمام والكمية، على مستوى طلاب الدراسات العليا وأعضاء الهيئة التدريسية على حد سواء". ويوجد ثلاثة أسباب رئيسية لهذا:

أولاً– الميل العام لتشجيع الطرق كمياً في العلوم الاجتماعية، التي كانت تتحول عن "التركيز على اكتساب الخبرة في مناطق معينة الى مزيد من التدريب على النظرية الرسمية والمنهجية المتطورة والدراسات المقارَنَة".

ثانياً– تقليص التمويل الحكومي للدراسات المتعلقة بروسيا "بما في ذلك اقتطاع 50% من مخصصات التدريب اللغوي، وتقريباً إلغاء بعثات الأبحاث المتقدمة للأمريكيين في روسيا والمنطقة. ويمضي تقرير مراكز الأبحاث: *"بسبب الميول للنأي بالعلوم السياسية عن منطقة محددة (والتوجه نحو دراسات نظرية أوسع ودراسات مقارنة ونحو أساليب أكثر تعقيداً كميَّاً) وتدهور مستوى الاهتمام الامريكي شعباً وحكومة بروسيا عقب انتهاء الحرب الباردة، يوجد استعداد أقل في أروقة العلوم السياسية التي تعمل على روسيا مما كان عليه الحال منذ عقود وحتى عدد أقل من الدكاترة الطلاب المهتمين، وهذه هي أخطر أزمة تواجه هذا الحقل".*

والسبب الثالث لانحدار الدراسات الروسية في الغرب، هو ما وصفه ماثيو روجانسكي مدير مركز ويلسون الذي قال إن الثغرات في الخبرات حول المعرفة عن روسيا، جاءت بسبب الاستخفاف بالدراسات الاقليمية على العموم ونقص التمويل للدراسات عن روسيا وخصوصاً التي أجراها خبراء من وسط وشرق أوروبا الذين "اتجهوا نحو الحفاظ على امكانات أكبر لفهم وتحليل روسيا"، وبعبارة أخرى، رغم أن خبراء من وسط وشرق أوروبا ملئوا الفراغ، إلا أن الغرب شعر الى أنه ليس بحاجة كبيرة ليثقِّف خبرائه الى درجة أن:

الاختلاف في الخبرة بين الغرب والشرق بات واضحاً نهاية العقد الأخير لدرجة أنه في العديد من المنتديات الأوروبية والأوروبية الأطلسية قُسِم العمل بحيث تولى ممثلو دول وسط وشرق أوروبا الأعضاء؛ المسؤولية الأولية عن تحليل وتطوير توصيات السياسة الجماعية حول روسيا والاتحاد السوفياتي السابق.

وهكذا فالقدرات العامة للغرب لفهم روسيا استمرّت في التدهور منذ نهاية الحرب الباردة، وبالتالي فليس مفاجئاً أن الغرب أُخِذ على حين غِرّة بالأعمال الروسية في القرم وشرق أوكرانيا. وحسب فيونا هيل مديرة مركز بروكينج[139] في الولايات المتحدة واوروبا: *"إن الروس يفعلون كل هذه الأشياء، وأحياناً يرسلون إشارات واضحة للغاية، لكننا فقدنا الكثير"*. وكما قلنا سابقاً في هذا الكتاب، يمكن اقتفاء أثر الجذور المفاهيمية والسياسية للحرب الهجينة وفق المفهوم الروسي بسهولة بالعودة الى العقد الأول من الألفية الجديدة. وفيما إن كان ثمة شخص محترف بما يكفي لتفسير هذه الإشارات وقوي بما يكفي لتغيير مسار السياسة الغربية يبقى سؤالاً آخر يقع خارج نطاق هذا الكتاب.

كما يقل العجب من أن الخطاب الغربي حول الأنشطة الروسية العسكرية وغير العسكرية استُخدِمَ سياسياً بسرعة فائقة، مما أدى لخلق فهم سيء ومثير للمخاوف من تهديد موجود مسبقاً للعالم الغربي، بدلاً من فهم هادئ وعملي ومفصّل للأعمال الروسية وأسبابها، والطرق المطلوبة لمواجهتها. ولسوء الحظ يبدو أن هذا الموقف نتيجة لعدم اهتمام الغرب بالشؤون الروسية، الى جانب الميل عند دول وسط وشرق اوروبا الى المبالغة في التهديد الذي يمثِّله الجار الشرقي، والذي أشعله عن غير قصد الحنين الخطير الى الحرب الباردة. وبينما ناقشنا الأول سابقاً، سيكون الثاني محور الدرس القادم.

الدرس الخامس: ماذا بعد؟

ذكرنا آنفاً أهمية الرسالة الطويلة التي كتبها كينان حول طبيعة المواجهة المعاصرة بين روسيا والغرب، ولذا فمن المهم التذكير بنصائحه السابقة:

---

[139] معهد بروكينج مجموعة بحثية أمريكية تأسست سنة 1916 كمركز دراسات في واشنطن، ويجري دراسات وأبحاثاً في العلوم الاجتماعية وخصوصاً في الاقتصاد والسياسات المحافِظة والحكم والسياسة الخارجية والاقتصاد العالمي وتطور الاقتصاد.

الخطوة الأولى هي فهم وإدراك طبيعة الحركة التي نتعامل معها، فيجب أن ندرسها بشجاعة وموضوعية وتصميم على عدم الخضوع للاستفزاز العاطفي، تماماً كما يفحص الطبيب شخصاً جامحاً وغير متوازن.

وتماشياً مع هذه النصيحة، حاول هذا الكتاب الفصل بين الخطاب السياسي والمفاهيمي الذي يكتنف المواجهة المستمرة بين روسيا والغرب، وكما بيَّنا سلبية الأول يبدو من المهم التركيز على الثاني، في محاولة لوضع توصيات مفيدة لمزيد من الأعمال الممكنة. **ويكشف التحليل الوارد في هذا الكتاب للنقاش المفاهيمي في الغرب وروسيا أن التهديد الحالي الذي تمثِّله روسيا للغرب ذو طبيعة غير عسكرية، ولا يعني هذا أنه ليس للجانب العسكري دور يلعبه بما أن الدليل على أن القوة العسكرية أو التهديد باستخدامها يمكن أن يزيد من فعالية الوسائل غير العسكرية (الدبلوماسية، الاقتصادية، الدولية...) وبدلاً من ذلك يعني ذلك ببساطة أن القيادة الروسية تفضِّل استخدام طيف من الوسائل غير العسكرية، أكثر في الصراعات العسكرية المفتوحة المباشرة.** وسواء كان الكرملين يفعل هذا بدافع عدم الرغبة في اللجوء الى صراع مفتوح، أو عدم القدرة على فعل هذا أو ببساطة لأنه يؤمن أن الوسائل غير العسكرية ستكون كافية لتحقيق أهدافه السياسية، فهذا غير مهم جداً لأن هذا كله صحيح الى حد ما، والجزء الأهم من هذا الفهم هو أن الكرملين يستخدم وسائل وأساليب غير عسكرية ضد الغرب، بما يتماشى مع فهم روسيا لهذا النوع من المواجهة، وهو مصَمَّم لتدمير التماسك السياسي للغرب من الداخل. وهكذا من خلال الاستخدام الحَذِر للوسائل والأساليب الهجينة غير العسكرية التي تضخّم الانقسامات السياسية والايديولوجية والاقتصادية وغيرها من الانقسامات الاجتماعية في المجتمع الغربي، يسعى الكرملين لإضعاف التكامل السياسي الغربي ومرونته. وكان المحللون والمفكرون الروس بناءً على تجربتهم في الحرب الباردة قد ركّزوا على اتقان جوهر المواجهات غير العسكرية، فحللوا أمثلة تاريخية وطوّروا مؤسسات مفاهيمية، ووضعوا أُطُراً تشريعية مناسبة لحماية روسيا من التأثير الغربي المحتمل ولبناء بنية تحتية فعالة لتنفيذ عمليات هجومية. وبعبارة أخرى، وضع نموذج تفسيري للحرب الهجينة على أنها

شيء يشنه الغرب على روسيا، وأتقن الروس أساليبها بنفسهم. وبالإضافة الى أنه خلال الحقبة السوفياتية، كان استخدام الوسائل والأساليب غير العسكرية يتم بناءً على العقيدة السوفياتية (التي تسمى "الإجراءات النشطة")، وجعلت روسيا المعاصرة الأمر أكثر سهولة. فبينما كان الاتحاد السوفياتي ذو الايديولوجيا الماركسية اللينينية، يستخدم وسائل دبلوماسية واقتصادية وإعلامية وغيرها من الوسائل غير العسكرية لإضعاف خصومه السياسيين عبر تضخيم الانقسام بين الطبقات الاجتماعية، تهدف موسكو المعاصرة الى **تضخيم أي انقسام اجتماعي أو سياسي أو اقتصادي أو ايديولوجي من شأنه المساعدة على تقويض التماسك الاقتصادي والعسكري والمرونة في الغرب.** وكما ناقشنا آنفاً لا تمثِّل مفهوماً حديثاً لصناعة الاستراتيجية، بل تكتيكاً وابتكاراً عملياتياً، مبنياً على تطبيق مُحكَم لتقنيات جديدة وعلى استغلال انقسامات موجودة مسبقاً في المجتمع الغربي. ولذلك، عَدَّل الغرب –في محاولة للرد على السلوك الروسي– أولا وقبل كل شيء استراتيجيته للمواجهات بالوسائل غير العسكرية الى البيئة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتقنية التي تتناسب مع القرن الحادي والعشرين. وبهذا كان على القادة الغربيين أن يسعوا الى تطوير استراتيجية تستخدم قوى الغرب وتحمي نقاط ضعفه، أكثر من التركيز على كيفية مواجهة الاختراقات الروسية أو التسريبات أو الهجمات على الانترنت أو التضليل الاعلامي أو عمليات الحملات الدعائية، وهكذا لا يكمن سر النجاحات الغربية في محاولات تجنب الأعمال التكتيكية العملياتية الروسية بل في استراتيجية شاملة تركز على المرض وليس على أعراضه.

الفكرة الاستراتيجية للصراعات غير العسكرية التي تهدف الى تخريب العدو أكثر من تدميره مادياً، ليست غريبة على الغرب، على الرغم من أن الغرب استخدم بنجاح مثل هذه الاستراتيجية خلال الحرب الباردة. ورغم إساءة استخدام اسم "الحرب السياسية" بقدر إساءة استخدام كلمة "حرب"، فالنظرية نفسها تقدّم أُسُسَاً مفاهيمية جيدة لنوع التفكير الاستراتيجي الذي يحتاجه الغرب الآن. لكن كي تكون ناجحاً، سيتطلب التكتيك المصحوب بالحرب السياسية أن يُعَدَّل ليستوعب حقائق القرن

الحادي والعشرين. ويقدّم التحليل الوارد في هذا الكتاب العديد من النصائح التي قد تساعد مع هذه العملية.

النصيحة الأولى: الحرب السياسية مثل أي مفهوم استراتيجي آخر، تتكون من نوعين من النشاط: أعمال هجومية وأعمال دفاعية. وإثارة نقاش عن العلاقة بين هذين النوعين من الأعمال في سياق الحرب السياسية خلال الحرب الباردة، مهم للإشارة الى حقيقة أنها في جوهرها دفاعية رغم أنها تشمل عمليات هجومية شاملة. وكان كينان قد حدد من قبل نقاط الضعف الرئيسية لدى الغرب أوائل سنة 1946، حيث قال إن الأمم الأوروبية في حقبة ما بعد الحرب *"متعبة وخائفة من التجارب السابقة"* مما جعلهم عرضة للحملات الدعائية السوفياتية التي سعت لاستغلال الانقسامات الاجتماعية الموجودة: *"أي شخص مظلوم سواء اقتصادياً أو عرقياً، سيُلِحُّ في طلب الإصلاح ليس من خلال الوساطات والتسويات بل من خلال صراع عنيف مُتَحَدٍ لتدمير عناصر المجتمع الأخرى"*. وهنا سيعمل الفقير ضد الغني والأسود ضد الأبيض والشاب ضد الكبير والوافدون الجدد ضد المقيمين الأصليين إلخ. ولمعالجة نقطة الضعف هذه اتخذ "الدفاع الغربي عن أوروبا" ضد الحملة الدعائية السوفياتية أشكالاً عديدة، لكن أولاً وقبل كل شيء، توجَّه الى سد الفجوات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي تعرضت الى الآلة الاعلامية السوفياتية، أكثر من محاولة تجنب الحملة الدعائية ذاتها. ونجحت هذه الاستراتيجية كثيراً لدرجة أن: *"ما كان رجال الدولة الاوروبيون والامريكيون يخشونه سنة 1946 لم يعد يمثِّل تهديداً خطيراً سنة 1956، إذ تعافت أوروبا –على الأقل – وباتت في وضع حيوي من الناحية الاقتصادية، واحترام الذات ثقافياً، والاستقرار السياسي"*.

وهذا الدرس من الماضي يجب أن يكون مفيداً لأي محاولة لتعديل الحرب السياسية لتتناسب مع البيئة المعاصرة.

والنصيحة الثانية: تعتمد على واحدة من ملاحظات صن تزو فيما يتعلق بطبيعة الدفاع: *"الماهر في الدفاع هو من لا يعرف أعداؤه ماذا سيهاجمون"*، لدى الغرب العديد من نقاط الضعف التي

يمكن للروس استغلالها، لكن هذا يحتاج معالجة على المستوى الاستراتيجي أكثر من السعي للدفاع ضد الأعمال الروسية التكتيكية العملياتية عبر تدريب قوات الشرطة على التعامل الأفضل مع "احتجاجات حقيقية أو مصطنعة، حظر وتقويض الحملات الروسية الدعائية عبر إنشاء أدوات السيطرة المناسبة على تدفق الأموال من روسيا أو زيادة التشريعات والاجراءات الحكومية"، كل هذه الاجراءات مهمة لكنها جميعاً موجهة للتصدي للأعمال الروسية على المستوى التكتيكي أكثر منها لحل المشكلة الاستراتيجية.

وكان مارك جاليتي محقاً عندما قال إن *"الغرب الحديث –المترابط بالشبكات والمتكامل عالمياً والمُتّهم بتهديدات حقيقية ومُتَصوَّرة، ويواجه أزمة الثقة والشرعية الأساسية– لديه نقاط ضعف محددة يستغلها الروس بكل ما يستطيعون"*. على الرغم من أن هذه الأزمة من الثقة والشرعية تخلق أيضاً انقسامات اجتماعية وسياسية واقتصادية وايديولوجية تتطلب استراتيجية للحل، أكثر من محاولات تكتيكية عملياتية للرد على الحرب الهجينة وفق المفهوم الروسي. رغم ان الغرب ينظر الى دول البلطيق وبلدان شرق اوروبا على أنها الأكثر عرضة للتخريب الروسي بالوسائل غير العسكرية، **يحتاج الغرب الى تحديد التهديد الرئيسي لهذه البلدان، فهو لا يأتي من عمليات التضليل الاعلامي الروسية بل من نقص الاستعدادات الغربية للدفاع عن هذه الدول.**

وهذا يقودنا الى **النصيحة الثالثة** في هذا الكتاب، التي تشير الى الطبيعة المطلوبة للدفاع الغربي. كير جيليس[140] محق في قوله بأنه *"أثناء الحرب الباردة بُنِيَت استراتيجية هزيمة الحملة السوفياتية الدعائية على مبدأين رئيسيين: **أولاً– اترك مجتمعاً مفتوحاً يتحدث عن نفسه، وثانياً– افضح الكاذب دون القلق من كل كذبة بعينها"***، من الصعب الموافقة على استنتاجه بأن قابلية تطبيق هذه الاستراتيجية مثير للجدل وأن *"ردود فعل الغرب على الحرب الاعلامية تحتاج أن تستخدم بعضاً من المقاربات التقنية التي تستخدمها روسيا ضدها"*. وإن كان ثمة ما يمكن تعلمه من تجربة الحرب

[140] كير جيليس كاتب بريطاني وأكاديمي، وهو خبير في قضايا الأمن التي توثّر على روسيا، والقوات المسلحة في الفيدرالية الروسية، وتلقى تعليمه في مدرسة اورلي فارم وجامعة ونشستر، وهو الآن زميل في معهد رويال للشؤون الدولية.

السياسية خلال الحرب الباردة فهو ما يجعل روسيا تُضعِف الغرب بشكل أكبر، على سبيل المثال، كما ناقشنا في الفصل السابع، بينما أدى الاستخدام السياسي للحرب الهجينة المزعومة وفق المفهوم الروسي التي يشنها الغرب الى رص الصفوف ضد العدو الغربي المشترك، فقد أدى التدخل الروسي في الانتخابات الرئاسية الامريكية سنة 2016 لمزيد من الانقسامات السياسية الموجودة من قبل. وأظهرت الحرب الباردة أن نقطة قوة الغرب الرئيسية هي حريته، وبينما يمكن أن يكون جيمس شير [141] محقاً في قوله بأن *"لا يمكن أن يكون الاعلام الحر بدون دفاع في وجه الاختراق والتلاعب الذي ترعاه الدول والهجمات السيبرانية"*، عبر الدعوة الى "أسلحة غير دفاعية للحكومة (قضائية، مالية، تنظيمية)" لحمايتها، إلا أنه نسي أن الدفاع الرئيسي عن الاعلام الحر يكمن في حقيقة أنه حر.

والنصيحة الرابعة تتعلق بالطبيعة المتناقضة للتوصيتين السابقتين، فالحرية والانفتاح يفضحان الانقسامات الاجتماعية لدرجة كبيرة، وبالتالي تتضاءل امكانية حمايتهم، ومع ذلك فتقييد الحرية والانفتاح يؤذي الغرب كثيراً حيث تكمن جوهر قوة الغرب في هذه الحرية وهذا الانفتاح. وفي حين أنه لا يوجد صيغة واضحة للتوازن بينهما؛ واعتماداً على التحليل الوارد في هذا الكتاب، يمكن الإشارة الى اعتبارين مترابطين محتملين يجب على القيادة الغربية أن تضعهم في الحسبان، أولاً– كما ورد سابقاً يجب على الغرب أن ينفض الغبار عن نظرية الحرب السياسية، ولا يمر على ما حدث سابقاً مرور الكرام بل يجب أن يفكر كيف حدث. كما يجب على الغرب خلال دراسته لهذه التجربة أن يولي اهتماماً خاصاً بخصائصها الدفاعية، أكثر من التفكير في طرق لتقويض الاتحاد السوفياتي، ليس فقط لأن "الصيغة الدفاعية للحرب أقوى في جوهرها من الصيغة الهجومية فحسب، بل لأن روسيا المعاصرة تستفيد من مزايا التكتيكات العملياتية المعاصرة في الدفاع عن نقاط ضعفها واستغلال نقاط ضعف الغرب. ويجب على الغرب وهو يبني دفاعاته "التقدم بهدوء وجرأة

[141] جيمس شير كبير الزملاء في معهد إستونيا للسياسات الخارجية في المركز الدولي للدفاع والأمن، من مؤلفاته "الدبلوماسية الخشنة والإكراه الناعم"، "التأثير الروسي في الخارج".

من مشكلة التعامل مع روسيا"، لأن الخوف في السياسة والحذر الزائد يؤديان الى نتائج عكسية، فهم يلعبون وفق ما تريده روسيا، مما يؤدي الى تفاقم الانقسامات الاجتماعية والسياسية داخل الغرب والتهديد بتقليص القوة الرئيسية له وهي انفتاحه وحريته. كما يجب على الغرب التفكير في محاولة إيجاد توازن جديد بين نقاط القوة والضعف في اعتماده على شركائه من شرقي اوروبا لفهم روسيا. وكما ذكرنا آنفاً فقد تأثر الفهم الغربي لروسيا خلال العقدين الأخيرين كثيراً بآراء الخبراء من دول وسط وشرقي أوروبا. وهكذا يمكن لروجانسكي[142] أن يكون محقاً بادعائه أن هذه الدول *"تملك امكانيات أكبر لفهم وتحليل روسيا"* , ومن المهم أن نضع في حسباننا الانحيازات التاريخية الثقافية التي ينتمي إليها الخبراء الذين يعتمد عليهم صناع السياسة الغربيون، فرغم أن نظرتهم للعديد من الاعتبارات في الشؤون الروسية قد لا تكون قَيِّمَة، إلا أن نصائحهم حول كيفية شن حرب سياسية يجب أن تؤخذ بحذر زائد. **أولاً** خلال الجولة الأخيرة من هذا الصراع (الحرب الباردة) كانت هذه الدول في الجانب الخطأ من الحدود، وبينما يمكن أن يستفيدوا من نتيجة الانتصار الغربي، فإنهم لا يعرفون أو يفهمون كثيراً عن الطريقة التي تم بها الأمر. **وثانياً** رغم أنهم كانوا تحت مظلة الاتحاد السوفياتي لمعظم القرن العشرين، فكلهم –في الحقيقة– ديمقراطيات فتيّة، ويقدِّرون قيمة القيم الديمقراطية الليبرالية (التي يتّبعونها بكل تأكيد) إلا أن هذا لا يعني بالضرورة أن لديهم الحكمة اللازمة لحمايتها. وليس مفاجئاً أن الاستخدام السياسي للحرب الهجينة الروسية بعد 2014 بدأ بهذه الدول ذاتها من وسط وشرق أوروبا (وهي الدول التي تملك باعتراف الجميع أسباباً تاريخية جيدة لتخاف روسيا أكثر من أي دول أخرى)، لكن نظرتهم بمقاومة العصا الروسية بعصا غربية ليس بالضرورة أن تكون أفضل استراتيجية. وهذا لا يعني أن الغرب ذو التجربة الكبيرة يجب أن يُسكِت شركائه الشرقيين، فهذه ليست الطريقة الغربية لعمل هذه الأشياء، ولذا مثل هذا العمل قد يقوّض الغرب أكثر من مساعدته. وهذا يعني ببساطة أن الغرب الأكثر خبرة يجب عليه أن يُمهّد أفعاله وفقاً لتجربته وممارسته، ولا يقع في شراك الأجندة الحذرة التي تعتمد على الذكريات السيئة من

---

[142] كان فلاديمير بوريسوفيتش روجانسكي فيزيائيا ومؤلفاً ومعلما أمريكياً، وُلِد في بولوغ في روسيا، وكان والده مهندس إنشاء سكة الحديد وكان أحد أجداده جنرالاً، وعند اندلاع الحرب الأهلية الروسية قام بتجنيد فرسان الجيش الأبيض.

الحرب الباردة. رغم أن الإشارات الواردة في الكتاب الى كينان قد توحي بأنه اقتراح للعودة الى ممارسات الحرب الباردة، إلا أن العكس هو الصحيح. نعم طروحات كينان صحيحة، فقد صِيغَت في وقت كانت فيه الحملات الدعائية السوفياتية تستفيد من المزايا التكتيكية العملياتية مقابل الغرب الأقل استعداداً، في موقف مماثل للوضع الحالي. لكن من الضروري أن نتذكر أن الاحتواء هي استراتيجية كينان التي أودت بالغرب الى الحرب الباردة، وبينما كان –ربما– الموقف الوحيد في ذاك الوقت، فهذا لا يعني أنه كذلك الآن، فالحرب الباردة ليست مواجهة نووية فقط بل فترة في التاريخ الغربي كانت مكلفة للغاية مالياً وسياسياً. ورغم أن حرباً باردة جديدة قد تكون أكثر كلفة، إلا أن الغرب يجب أن يتعلم من دروسه ويستفيد من نصيحة كينان بما يتناسب مع حقائق القرن الحادي والعشرين، بدلاً من تكرار أخطائه. وبعد كل شيء روسيا ليست الاتحاد السوفياتي وأوروبا ليست تلك البلدان التي خرجت مدمرة من الحرب، وليس لدى الولايات المتحدة الموارد ولا النية السياسية لخطة ماريشال[143] ثانية. ولتجنب تكرار حرب باردة جديدة، يجب على قادة الأمم الأوروبية اتخاذ سلسلة من القرارات الصعبة فيما يتعلق بعلاقتهم مع روسيا، لكن رغم أن الغرب (سياسياً أكثر منه جغرافياً) يمثّل التحالف الأكثر استقراراً والأكثر تجربة والأقوى اقتصاداً وتقدماً على هذا الكوكب، يبدو أنه سيتصرف على هذا النحو بعد مدة يسيرة من الزمن، ليس فقط لأن البديل أسوء بكثير لكن لأن التعاون مع روسيا قد يكون أفضل من قتالها. في القرن الحادي والعشرين يواجه العالم مخاطر أكبر من أي مخاطر قبلها منذ نهاية الحرب العالمية الثانية–من الارهاب الى التغير المناخي– وحرب أخرى ستكون خسارة للجميع سواء الغرب أو روسيا، ولبقية العالم، ولا يمكن تجنب هذه النتيجة. لكن يجب على القادة الغربيين أن يستوعبوا أنهم ارتكبوا أخطاء في سياستهم ضد روسيا، فكما قال ميشيل ماكفول السفير الأميركي السابق لدى روسيا ومستشار الرئيس الأمريكي أوباما للشؤون الروسية:

[143] خطة ماريشال كانت مبادرة أمريكية انطلقت سنة 1948 لمساعدة أوروبا الغربية، وقدّمت بموجبها الولايات المتحدة 12 مليار دولار بشكل مساعدات اقتصادية للمساعدة في إعادة بناء الاقتصادات الغربية بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية.

إن الخطأ الذي ارتُكِب منذ عشرين سنة هو اعتبار روسيا قوة ضعيفة، ومنهارة، يمكن أن نختلف فيما إن كانت قوة عظمى أم متوسطة لكن لا يمكن أن نختلف على أنها قوة رئيسية، وواحدة من الاقتصاديات الخمس أو العشر الأولى في العالم، وقوة نووية أولى في العالم، والآن مع الاستثمار الذي وضعه بوتين في الجيش، هي واحدة من أقوى الدول عسكرياً في العالم، وهذه المؤشرات لن تتغير خلال السنوات العشرين أو الثلاثين المقبلة.

لذا يجب على الغرب أن يعي أن روسيا قوة رئيسية، وستبقى موجودة ونابضة بالحياة، بوجود بوتين أو عدم وجوده، مدافعة بقوة عن مصالحها وغير راغبة بالتحرك وفق الإيقاع الغربي. وبالتالي افتراض أن موسكو المعزولة سياسياً والمعاقَبَة اقتصادياً وليس لديها سوى القليل من الخيارات لتحسين وضعها أو تقليل المخاطر التي تتعرض لها لأنها شديدة المركزية وليس لديها الكثير من الاستثمارات وشرعية النظام فيها مهددة، ليس إيجابياً ليس لأن هذا الافتراض لا يمثِّل الاتجاه الحقيقي فحسب لكن لأنه يضلل ويخلق وهماً غير مفيد فيما يتعلق بحالة الشؤون الروسية. النظام السياسي الروسي مختلف عن النظم السائدة في البلدان الغربية، لا شك في هذا، لكن هذا لا يعني بالضرورة أنه أضعف، فخلال القرن العشرين أثبت الشعب الروسي مرتين –سنة 1917 وسنة 1991– أنهم قادرون على تغيير قياداتهم إن لم يكونوا راضين عنها، بغضِّ النظر عن العواقب التي قد تحدث بعدها. لكن هذا لن يحدث على الأرجح في المستقبل القريب لأن ذاكرة التسعينات مازالت منتعشة في قلوب وعقول الشعب الروسي، والاقتصاد والاستقرار السياسي الذي أرساه النظام الحالي لن تتم التضحية به بسهولة من أجل فكرة الحقوق المادية والحرية (شيء يسعى الروس للإيمان به). وبعبارة أخرى سيحتاج الغرب لأن يُصدّق: ليس أن النظام الروسي شأن روسي بل أيضاً أن النظام على الأرجح سينجو وسيكون من المفيد العمل معه أكثر من العمل ضده. وهذا يؤدي الى القرار الصعب الثاني الذي يجب على الغرب أن يتخذه إن كان يريد تجنب حرب جديدة. في توصياته للغرب عقب الأزمة الاوكرانية، قال جيمس شير من معهد كاثهام هاوس (معهد بحثي دولي): *"ليس عملنا تشجيع الديمقراطية في روسيا أو أي مكان آخر، ناهيك عن تغيير النظام،*

فالديمقراطية الروسية شأن روسي، لكن الديمقراطية الاوكرانية ليست شأناً روسياً، ولا الخيارات الأوكرانية للشراكة".

لكن جيمس شير نسي بلا شك أن يذكر الوجه الآخر، وهو أن الديمقراطية الأوكرانية ليست شأناً غربياً، أي أن الاستمرار المباشر للفهم السابق بأن روسيا قوية ستستمر بالوجود كقوة سياسية رئيسية في المنطقة، والغرب سيحتاج لقبول الدور الروسي في المنطقة. وبكلمات جون ميشمير[144]: *"ربما لا تحب واشنطن موقع موسكو، لكن يجب أن تفهم المنطق وراءه، إنها القاعدة الجيوسياسية 101*[145]*: القوى العظمى تكون على الدوام حسّاسة للمخاطر المُحتَمَلة القريبة من أوطانها أو مناطقها".* ويواجه الغرب الاختيار ما بين اختيار مسار سياسي صعب لكن مسؤول، من شأنه أن يسمح له بإصلاح العلاقات مع موسكو، مما يؤدي الوضع يفوز فيه الجميع، وبين مسار أكثر طيشاً وتهوراً، يكون أسهل سياسياً، لكن سيؤدي في النهاية لخسارة الجميع.

لسوء الحظ بما أن تحليل هذا الكتاب للخطاب الغربي حول الأعمال الروسية في القرم وشرقي أوكرانيا، يَظهَرُ أنَّ الغرب اختار اتباع المسار الثاني أكثر من الأول.

وسواء جاءت هذه المرحلة تحت اسم حرب باردة ثانية أو حرب هجينة أو أي مسمى آخر فهذا ليس مهماً –في النهاية– فالمهم عندئذ أن الغرب سيكون مضطراً لتحمل عواقبها.

[144] جون جوزيف ميرشيمر عالم أمريكي في السياسة والعلاقات الدولية، وينتمي لمدرسة الواقعية الفكرية، ويعمل بروفيسوراً في جامعة شيكاغو.

[145] القواعد الجوسياسية تدرس تأثير الجغرافية على السياسات والعلاقات الدولية.

الملحق الأول: درسٌ لروسيا

سيكون على الغرب اتخاذ عدد من القرارات الصعبة إن أراد تجنب حرب باردة جديدة، لكن التحليل الوارد في هذا الكتاب حول الخطاب الروسي السياسي المعاصر يطرح أيضاً أن روسيا ستحتاج اتخاذ بعض القرارات الصعبة إن أرادت تجنب ذات السيناريو. يبدو أن الروس يحدّثون أنفسهم بجولة جديدة من المواجهات على نفس المسار وبنفس السرعة التي يفكر فيها الغرب. ومثل الغرب يجب على روسيا أن تدرك أن العودة الى الحرب الباردة في القرن الحادي والعشرين من شأنه أي يكون مدمِّراً سياسياً واقتصادياً، والتوصيات التي وردت في الفصل السابق فيما يتعلق باتخاذ قرارات سياسية مسؤولة تنطبق على روسيا مثلما تنطبق على الغرب، رغم أن الكرملين يعتقد أن سياسته الخارجية "تعكس دور روسيا القديم الفريد من نوعه في العصور القديمة كعامل توازن في الشؤون الدولية وتطوُّر للحضارة العالمية"، تحتاج موسكو أن تبدأ بموازنة علاقتها مع الغرب، في عملية قد تجد فيها تسويات سياسية معينة دون أي تنازلات من أي نوع. تحليل الخطاب الروسي حول طبيعة الصراعات المعاصرة الوارد في هذا الكتاب أظهر أن الروس تلاميذ جيدون لكلاوزفيتز، وأنهم سيبلون حسناً في تذكر درسه عن بلوغ أوج الانتصار: *"يجب على المرء معرفة النقطة التي ستصل إليها الحرب كي لا يتجاوز الهدف وإلا فإنه سيخذل نفسه بدلاً من تحقيق المزيد من المكاسب".*

ويبدو أن روسيا في نزاعها مع الغرب تتمتع بمزايا معينة، فهي أكثر استعداداً وتعرف نقاط ضعف الغرب أكثر مما يعرف الغرب عن نقاط ضعف روسيا، ومع ذلك فحقيقة أن العديد من الروس سافروا ودرسوا وعاشوا في الغرب نقطة ضعف أيضاً، ولا يعني هذا بالضرورة أن الروس يعتقدون أن الغرب أفضل، بل يعني أنهم يفهمون أنه مختلف، وعندما يختلف الزمان تبدو الاختلافات أفضل مما هي عليه. كما يجب على الكرملين أن يتذكر ليس فقط أن هذه الميزة مؤقتة بل أيضاً أن الغرب يتعلم بسرعة. وبينما يقول كلاوزفيتز: *"إن صدم العدو وترويعه يؤدي أحياناً الى شل حركته، إلا أنه في أحيان أخرى تستولي عليه نوبة من الحماس: حيث يظهر اندفاعٌ عام نحو السلاح لمزيد من المقاومة والقتال"*، والتاريخ يعلّمنا أن على روسيا عند التعامل مع الغرب أن تجري مزيداً من التغييرات لإيجاد النوع الأول من العدو بدلاً من النوع الثاني.

لقد ارتكب الغرب العديد من الأخطاء منذ الحرب الباردة، منها ما اعترف به على الفور ومنها ما لم يدركه إلا بعد سنوات، فقد دفع الغرب ثمن بعض هذه الأخطاء ودفع آخرون ثمن أخطائهم. لقد ارتكب الغرب بلا شك أخطاءً في مقاربته لروسيا أيضاً. ومع ذلك يجب على الكرملين أن يتذكر أن "التفوق الذي يحرزه المرء أو يخسره في الحرب ما هو إلا وسيلة وليس النهاية"، وأن معاقبة الغرب "على اعتبار روسيا قوة ضعيفة، أو قوة في انحدار" ليس الهدف، بل مجرّد طريقة لتلقين الغرب درساً (ويبدو أن الغرب تعلّم الدرس من قبل).

إن اتخاذ هذه القرارات الصعبة لن يكون سهلاً على روسيا أو الغرب، وأي تحسين في علاقتهم الحالية دون شك عملية طويلة ومحفوفة بالمشاق، لكن البديل أسوء بكثير. كلا الجانبين بحاجة الى أن يعرفوا أن العالم يحتاج تغييراً على أساس الاحترام المتبادل والتفاهم، وكذلك القدرة على تحمل مسؤولية الأخطاء السابقة وأي يكونوا مستعدين للتسوية. بفعل هذا فقط سنكون قادرين على تجنب مستقبل غير مضمون نكون جميعنا معرّضين فيه للخسارة.

الملحق الثاني: قاعدة المبدأ الجانبي

قاعدة المبدأ الجانبي والحرب المفتوحة في العقيدة الصينية العسكرية

نشر العقيدان الصينيان كياو ليانج ووانج تشانج سوا سنة 1999 بحثاً أصبح لعقود بعدها مؤثراً للغاية في التخطيط الصيني العسكري. والكتاب بعنوان "الحرب المفتوحة"، تتمحور مواضيعه حول النقاط التالية:

1-سيكون ميدان الحروب القادمة ممتداً الى كل شؤون حياة الانسان وصولاً الى المستوى الفردي.

2-ستكون الولايات المتحدة العدو الأول للصين في أي صراع مستقبلي.

3-الطرق البديلة للقتال، مثل القانون الدولي والحرب الاقتصادية وإثارة الاضطرابات والحرب التجارية والتلاعب بقيمة العملات والحرب السيبرانية والارهاب والحركات الشعبية، يمكن أن تكون بفاعلية الصراعات العسكرية التقليدية المسلحة.

4-ليس لدى المخططين العسكريين الأمريكيين سوى نظرة ضيقة عن صراعات المستقبل، فهم يعوّلون كثيراً على السلاح المادي والتقنيات ولا يركّزون بنفس القدر على العوامل الاجتماعية والأخلاقية والسياسية والاقتصادية.

وسرعان ما أُعِدَت ترجمة انكليزية للحرب المفتوحة، وليس معروفاً على وجه التحديد المدى الذي يمثِّل به الكتاب السياسة الصينية، أم إنه مجرد تدريب ذكي لاثنين من الضباط الصينين ذوي الرتب العالية. وبغض النظر فالكتاب يفتح بعض المدارك للقارئ، فلدى المؤلِّفَين فهمٌ عميقُ للتاريخ العسكري ويضعان استنتاجاتهما استناداً للسياق المنطقي أكثر منه الإملاءات الأيديولوجية.

يحب الكثير من الكتّاب العسكريين والمنظّرين تناول المواضيع الجديدة وابتكار "عقائد" جديدة أو التبشير بوصول بعض "الأجيال الجديدة" من الحرب، لكن عند التمحيص نجد أن معظم هذه "العقائد الجديدة" قديمة ترتدي ثوباً جديداً. كم اسماً يمكنك أن تطلق على حروب القرن الحادي

والعشرين؟ كم مرة يمكننا شرح أن حروب المستقبل ستصل الى كل مرحلة من النشاط البشري؟ كم مرة يمكنك أن تشرح أن الوسائل غير العسكرية يمكن أن تكون أكثر فاعلية من الوسائل العسكرية؟

ليس كافياً، هذا واضح. بغض النظر عن عدد المرات التي يُبَيَّنُ فيه موضوع ما، يبدو الموضوع على الدوام بعيد المنال عن أولئك الذين يشغلون مواقع السلطة. ربما كانت على الدوام تلك الطريقة، فوضى الصراعات تخلق منطقها الخاص، ولديها طريقتها الفريدة من نوعها للاستخدام، ولا يمكن توقعها إلا على نطاق ضيّق.

لكنني أعتقد أن الحرب المفتوحة مختلفة، إنها نافذة نادرة الى ثقافة النظرية العسكرية الصينية، ربما لا تُفتح باستمرار، ويجب على المهتمين بالبيئات الاستراتيجية التي تجد الولايات المتحدة نفسها فيها في العقود الأولى من القرن الحادي والعشرين دراستها بعناية.

قاعدة المبدأ الجانبي

أحد المفاهيم الرئيسية في الحرب المفتوحة هو ما يسميه المؤلفان "قاعدة المبدأ الجانبي"، ولم تحظى بما تستحقه من الاهتمام في الغرب، وبالكاد يجد المرء نقاشاً حوله، رغم أن فهم هذا المفهوم ضروري لفهم جوهر الحرب المفتوحة، التي سنتناولها هنا، (الاقتباسات الواردة في الأسفل من الصفحات 157–169 من النسخة المترجمة)

ما هو المبدأ الجانبي؟ إنه بالأساس قاعدة تسمح لنا بفهم العلاقة بين "المسيطِر" و"الكل" في أي نظام متكامل. يبدأ المؤلِفان باستخدام تشبيه من قواعد اللغة الصينية:

في القواعد اللغوية الصينية، يوجد بنية أساسية للجملة، حيث تقسّم الجملة أو العبارة الى جزأين رئيسيين: المُحَدِد والكلمة المركزية، والعلاقة بينهما هي علاقة التحديد وأن يكون محدَدَاً، أي أن الثاني يحدد الأول ويحدد ميله وميزاته. ولمزيد من التوضيح: **الثاني يشكّل المظهر والأول**

يشكِّل الكائن الحي. نحن عادة نحدد الفرق بين شخص أو شيء مع شخص أو شيء آخر ليس حسب وجوده ككائن حي أو كآلة بل حسب مظهره وشكله.

ومن هذا المنظور، فعلاقة الكلمة المركزية بالمُحَدِد يجب اعتبارها –الى حد بعيد– مركز الجملة أو العبارة. على سبيل المثال، تفاحة حمراء؛ قبل أن تصبح مُحَدَدَة بكلمة "حمراء" كانت كلمة تفاحة تشير فقط الى نوع من الفاكهة على العموم وبالتالي عامة في طبيعتها، لكن "حمراء" تعطي التفاحة تحديداً يسمح بتعيين "هذه التفاحة بالذات". فمن الواضح أن كلمة حمراء تلعب دوراً هاماً في هذه العبارة.

وأيضاً على سبيل المثال: "منطقة اقتصادية خاصة"، دون كلمة "اقتصادية" تصبح "منطقة خاصة" مفهوماً لتقسيم جغرافي فقط، وعند تحديدها بكلمة "اقتصادية" تعرِّف ميزة خاصة وتوجّهاً معيناً؛ تصبح نقطة الدعم للرافعة الاقتصادية التي يستخدمها دينغ شياو بينغ لإصلاح الصين.

هذه البنية اللغوية سمة رئيسية في القواعد اللغوية الصينية: بنية المبدأ الجانبي.

لكن الكاتبين لا يقومان بتدريب قواعدي فقط –نحن نذكِّر– فهذا المبدأ الجانبي له تطبيقات كبيرة خارج نطاق اللغة:

لا ننوي شن حرب عشوائية مع القواعد اللغوية، لكننا نريد تضييق مصطلح "المبدأ الجانبي" للوصول الى جوهر نظريتنا، لأننا نعتقد أن علاقة المبدأ الجانبي موجودة بشكل كبير في حركة وتطور العديد من الأشياء، وأنه في مثل هذه العلاقة يلعب العنصر "الجانبي" بدلاً من العنصر "الرئيسي" دور العنصر التوجيهي. الآن نحن نصف هذا الدور على أنه "تحديد عبر العنصر الجانبي للعنصر الرئيسي" (لاحظ: هذا ليس المعنى الأصلي لبنية المبدأ الجانبي كأداة قواعدية، وإنما امتداداً في المعنى نستخدمه نحن).

على سبيل المثال، في بلد ما يكون الناس هم الكيان الأساسي، وتكون الحكومة العنصر الموجِّه لذاك البلد، وفي القوات المسلَّحة، يشكِّل الجنود والضباط ذوو الرتب المتوسطة والدنيا الكيان الأساسي، بينما يشكّل ضباط القيادة العنصر الموجِّه للقوات المسلّحة، في الانفجار الذري؛ يكون اليورانيوم أو البلاتينيوم الكيان الأساسي بينما تكون وسائل تفجيرهم العنصر الموجِّه لإشعال فتيل سلسلة التفاعلات، في أزمة جنوب شرق آسيا المالية: كانت الدول الضحايا هي الكيانات الأساسية، بينما كان المُضارِبون هم العنصر الموجِّه لصناعة الأزمة.

ثم يمضي الكاتبان قدماً للتأكيد على أن ثمة علاقة رياضية محددة في سيناريوهات "المبدأ الجانبي":

كما بيّنا في المناقشة آنفة الذكر، فبنية المبدأ الجانبي بنية غير متناظرة، لذا فالعلاقة بين العنصر الجانبي والعنصر الأساسي هي علاقة غير متوازنة، عند هذه النقطة يكون الوضع مشابهاً جداً بالجزء المتعلق بالقاعدة الذهبية: 0.618 و 1 من البنية غير المتناظرة والعلاقة غير المتوازنة.

نحن نتفهم تماماً اعتبارها طريقة أخرى لشرح صيغة المبدأ الجانبي، في بنية المبدأ الجانبي هذه، **المهم هو العنصر الجانبي، وليس العنصر الأساسي**، هذا ينطبق أيضاً على القاعدة الذهبية، **فالمهم هو 0.618 وليس 1**، وهذه هي الميزة المشتركة لكليهما. القوانين تقول إن شيئين لهما ذات الميزات يجب أن يتبعا بعض القواعد المتشابهة، إن كان ثمة أي قاعدة مشتركة تحكم القاعدة الذهبية وبنية المبدأ الجانبي يجب أن تكون هذه:

0.618= الانحراف باتجاه العنصر الجانبي

ويمكن اكتشاف ذات العلاقة الرياضية في الشؤون العسكرية أيضاً:

من بين العديد من العناصر الداخلية التي تشكِّل شيئاً ما، يجب أن يكون ثمة عنصر معيَّن يحتل مكانة بارزة أو مهيمنة بين كافة العناصر. إن كانت العلاقة بين هذا العنصر والعناصر

الأخرى متناغمة ومتكاملة، فستكون متوافقة مع صيغة 0.618:1 في بعض الأماكن وكذلك متوافقة مع قاعدة المبدأ الجانبي. لأن "كل العناصر هنا تشكِّل جسماً رئيسياً"، أي أن العنصر الرئيسي يخدم عنصراً معيناً كعنصر توجيه وبالتالي فهو العنصر الجانبي. حالما يعرّف شيء ما الغائيَّة المحددة، فالعنصر الجانبي والعنصر الأساسي سيشكلان علاقة مسيطر–تابع.

عندما يقتتل ثوران، يشكِّل الثيران العنصر الأساسي، بينما تشكِّل القرون العنصر الجانبي، وعندما يتقاطع سيفان تكون السيوف هي العنصر الأساسي بينما تكون غروب السيوف (غرب السيف هو حدّ السيف) هي العنصر الجانبي. من الواضح جداً ما المسيطر وما التابع، وعندما تتغير الغاية ينشأ عنصر مسيطِر جديد ويحل محل العنصر المسيطر القديم ويشكِّل علاقة مبدأ جانبي جديدة مع كافة العناصر الموجودة. إن استيعاب العلاقة بين العنصر المسيطر وكافة العناصر معادِل لاستيعاب جوهر القاعدة الذهبية وقاعدة المبدأ الجانبي.

وعلى أساس هذا الفهم، يمكننا على الفور تحديد أهم خمس علاقات من علاقات الحرب المعقدة: الأسلحة المسيطِرة وكافة الأسلحة، الوسائل المسيطِرة وكل الوسائل، القوة المسيطِرة وكل القوات، التوجه المسيطِر وكافة التوجهات، الميدان المسيطِر وكافة الميادين. تمثِّل العلاقة بين العناصر الخمسة المسيطِرة وكافة العناصر في المناطق الخمسة بشكل أساسي علاقة المبدأ الجانبي التي تتواجد في الحرب على نطاق واسع.

وفي النهاية ختم المؤلفان حججهما بالملخص التالي:

فيما إن كان فعل ما فعلاً حربياً بحتاً أو عملاً عسكرياً غير حربي أو عملاً حربياً غير عسكري، فأي عمل ذو طبيعة قتالية سيتطلب تحديد كيفية الاختيار الدقيق للاتجاه الرئيسي للعملية ونقطة الهجوم الرئيسية، وبالتالي: تحديد توجهك الرئيسي في ضوء كافة العوامل المتعلقة بالحرب من ميادين المعركة والجبهات، وهذه أصعب قضية حتى للقادة الذين يملكون أسلحة جيدة، ووسائل وفيرة وقوة نارية كثيفة.

لقد كان الاسكندر وهانيبعل ونلسن ونيمتز إضافة الى صن وا وصن بن من الحضارة الصينية القديمة ماهرين في اختيار الاتجاهات الرئيسية للهجوم بحيث يحققون المفاجأة التامة لقوات العدو، كما لاحظ ليدل هارت هذه النقطة أيضاً، فأشار الى اختيار الهجوم على الخط الأقل مقاومة واتجاه العمل الأقل توقعاً من العدو على اعتباره "استراتيجية غير مباشرة".

وبما أن ميدان الحرب توسّع ليشمل الميادين السياسية والاقتصادية والدبلوماسية والثقافية والنفسية، إضافة الى الأرض والبحر والجو والفضاء والميادين الالكترونية، فالتفاعلات بين كافة العوامل صنعت فرقاً في الجانب العسكري لخدمة الميدان المسيطِر تلقائياً في كل حرب.

ستُخاض الحروب في الميادين غير العسكرية، وهذه الفكرة تبدو غريبة ومن الصعب قبولها، لكن المزيد والمزيد من الاشارات تشير الى هذا التوجه، وفي الحقيقة، حتى في العصور القديمة لم تكن الحرب على الدوام مقتصرة على ميدان واحد فقط، فقد كانت معركة ليان شيانغرو الدبلوماسية "لإعادة اليشم سليماً الى زاهو" (انتهت المعركة قبل أن تبدأ باغتيال قائد جيش العدو) والحرب الافتراضية بين مو زي وجونشوا بان كانت أمثلة تقليدية عن الانتصار بالحرب أو تفاديها باستخدام أعمال غير عسكرية. وهذه الطريقة لحل مشكلة الحرب عبر العمل في الميادين المتعددة ستقدم دلالات للناس اليوم.

إن حقبة الاستخدام الشامل للتقنيات المتطورة للغاية قدَّمت لنا فسحة أكبر لتطبيق الحكمة والوسائل أكثر من القدامى، لدرجة أن الناس يحلمون بتحقيق انتصارات عسكرية في الميادين غير العسكرية، والانتصار بالحروب بالوسائل غير العسكرية يمكن أن يصبح اليوم حقيقة.

إن أردنا إحراز النصر في حروب المستقبل، يجب أن نُعِدَّ أنفسنا فكرياً لهذا السيناريو، أي أن نكون جاهزين لخوض حرب تؤثّر على كافة مناحي الحياة للبلدان المنخرطة في الحرب، وربما تكون في ميدان لا تهيمن عليه الأعمال العسكرية. وما زالت الأسلحة والوسائل والأشخاص الذين ستُخاض بهم هذه الحرب مجهولين وكذلك اتجاه هذه الحروب وميدانها.

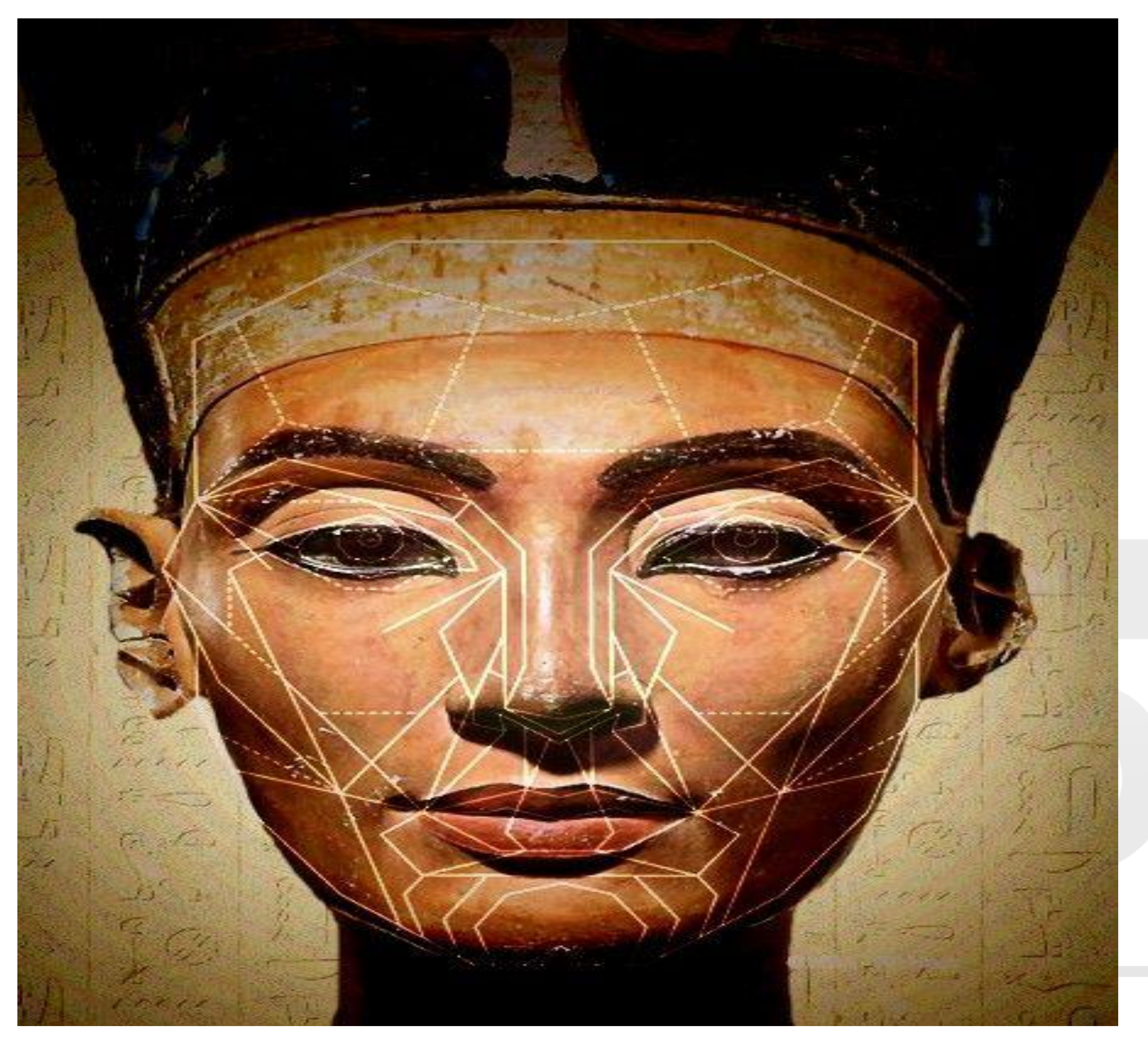
أما المعلوم فهو نقطة واحدة فقط: أياً كان نمط الحرب فالنصر دوماً سيكون من نصيب الطرف الذي يستخدم قاعدة المبدأ الجانبي لفهم العلاقة بين "المسيطِر" و"الكل".

هل الكاتبان محقان أم أن هذا المبدأ مجرد وَهمٍ فيثاغورثي تشبّث به الكاتبان؟ أعتقد أن هذه الفكرة تحوي ميزة كبيرة، رغم أننا لا نملك دراسات محددة في آليات النظام في متناول اليد لدعم ما نعتقد، ربما حتى هذه ليست هي الفكرة. إن نظرة على السياسة العسكرية والاقتصادية الصينية خلال السنوات العشرين الماضية تقول إن القيادة السياسية في بكين استوعبت عقيدة الحرب المفتوحة كما وردت في هذا الكتاب وتستفيد منها.

ومن هذا المنظور تصبح العديد من المواضيع السابقة أوضح: فمحاولة شق قناة في نيكاراغوا والتلاعب باليوان لمزايا تجارية، وإغراق السوق بالمنتجات دون قيود لكسب موطئ قدم في الأسواق الجديدة، واستخدام الهجرة كمُضاعِف للقوة، والتهكير السيبراني..... كلها تطبيق للحرب المفتوحة، والكثير غيرهم، مما يشير الى اعتناق الأفكار الواردة في "الحرب المفتوحة".

الملحق الثالث: النسبة الذهبية

النسبة الذهبية أو الرقم الذهبي 1.618 رقم بسيط في شكله وللوهلة الأولى يعتبر رقماً عادياً جداً، ولكن في حقيقة الأمـر يعتبر من أكثر الأرقام إثارةً للجدل على مر التاريخ، فهي نسبة تُكسب كل عمل نقوم به في شتى مجالات الحياة -إذا ما استخدمناها- جمالاً وإتقاناً وتجعل منه عملاً إبداعياً. (وهي إحدى مقاييس الجمال وأحد أسرار الجمال من حولنا في هذا الكون)



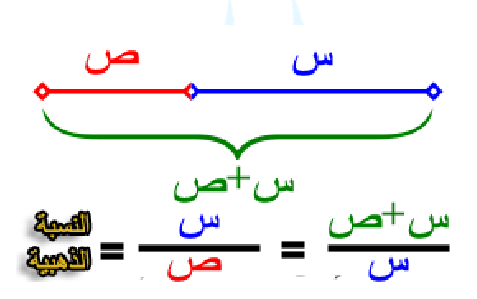
تمثال نفرتيتي إحدى رموز الجمال

فالتناسب المبني علي الاتزان بين الأطوال -حتى ولو لم يكن باتباع أي قواعد نسبية- سر يتبعه كل من يهدف إلى الإتقان والإبداع ويعطي جمالاً ورونقاً خاصاً ويلفت الأنظار، وسعياً من الإنسان للوصول لمقياس دائم لعلم الجمال (فعند اكتشاف النسبة الذهبية واكتشاف أنها مقياس لكل ما هو جذاب وجميل ومريح للعين وأنها مقياس لمدى الدرجة الابداعية التي يقع بها العمل) اكتشف أن تلك النسبة متواجدة في كل شيء حوله في الطبيعة بدرجة مدهشة، مما يعطي الطبيعة رونقاً خاصاً وجمالاً لا يضاهى، وحتى الكائنات الحية في الطبيعة -وفي مقدمتها الإنسان- كانت مبنية

في تكوينها على أساس إبداعي وتناسق لا يضاهى بين تركيبة أجزاء أجسامها وتواجد كبير جداً للنسبة الذهبية عند الاطلاع عن قرب لمختلف الأشياء من حولنا

هذا الموضوع وهذه النسبة تهم أيضاً كل من له هواية ومواهب فنية في التصوير والرسم والعمارة والديكور وغيرهم ممن يبتكرون الأشياء القيّمة والجميلة. فمن جماليات أي عمل ابتكاري وجود نسبة وتناسب فيه حتى ولو لم يستخدم الرقم الذهبي، فتجعل العمل جذاب ويلفت الأنظار إليه وحتى أنه يبعث على الراحة النفسية في المجالات الفنية السابق ذكرها.

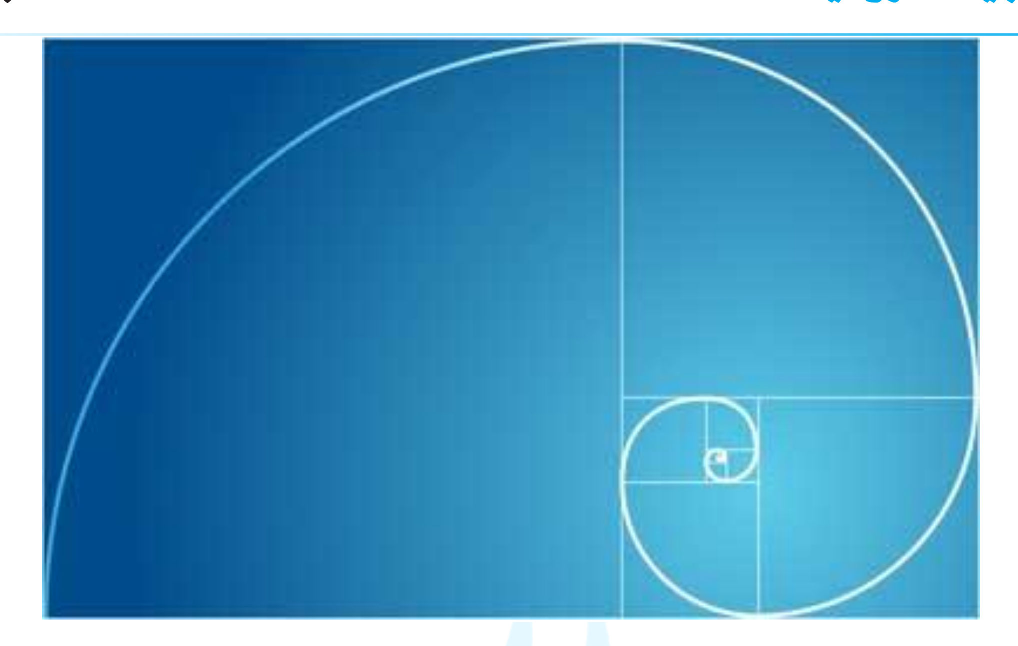
قيمة النسبة الذهبية



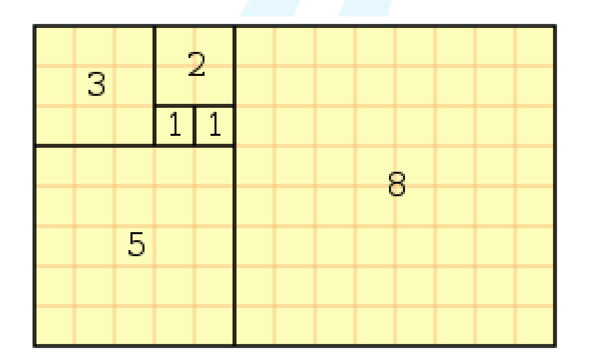
النسبة الذهبية ببساطة عبارة عن: "تناسب لأطوال" بين قيمتين عدديتين تحققان تلك النسبة (أن تكون نسبة الطول كاملاً للجزء الكبير منه، مثل نسبة الجزء الكبير للصغير).

فلو افترضنا أن لدينا سلك بطول معين وتم تقسيمه لجزأين بنسبة 1\2، فنسبة الطول الكلي للسلك إلى الجزء الأكبر منه: نسبة الجزء الأكبر إلى الجزء الأصغر

وقيمة النسبة الذهبية يعبر عنها بالثابت الرياضي: 1.61803399 معروف أيضاً أن النسبة غير مرتبطة ولها أشكال متعددة وتسميات مختلفة فمثلاً هذا الشكل اللولبي الشهير يقوم بأكمله على النسبة الذهبية، بل إنه يوظفها أكثر من مرة بشكل متداخل يتصاغر مع كل انحناءة، وعلى هذا يمكننا القياس في المجالات الفنية الواسعة التي يمكن استغلال النسبة في تجميلها، من رسوم ومنحوتات ومباني وكل شيء يراد منه أن يكون جميلاً.



اكتشاف النسبة الذهبية



النسبة الذهبية أو الرقم الذهبي أو الرقم فاي كلها مسميات بدأت في الظهور بعد أن عمل ليوناردو دافنشي متتاليته الشهيرة والمسماة باسمه:

وأرقام المتتالية على النسق التالي: 0, 1, 1, 2, 3, 5, 8, 13, 21, 34, 55, 89, 144........

بحيث أن كل رقم هو نتاج مجموع الرقمين السابقين له، ويقترب ناتج قسمة كل رقم بما قبله من 1.618 شيئاً فشيئاً.

النسبة الذهبية في الطبيعة

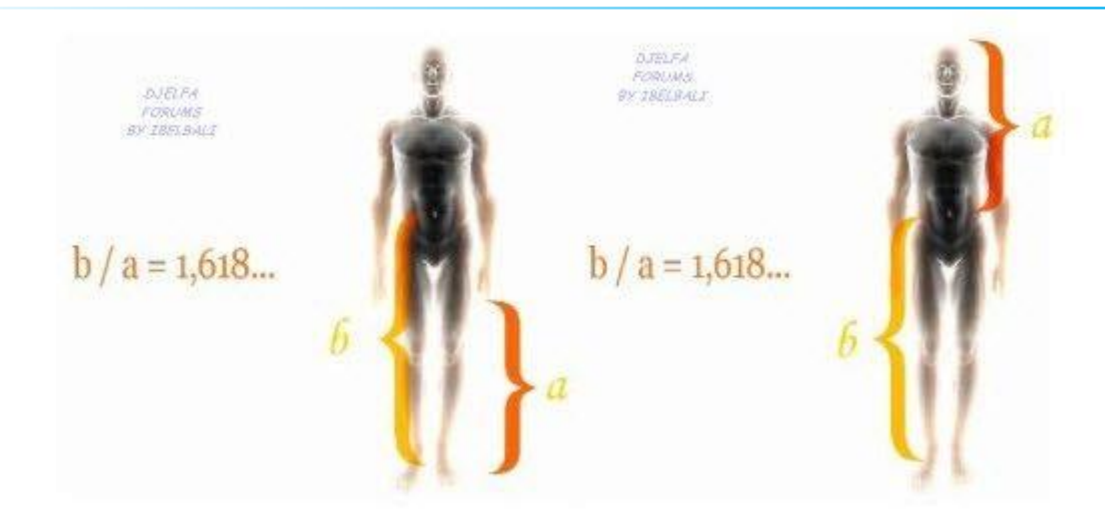


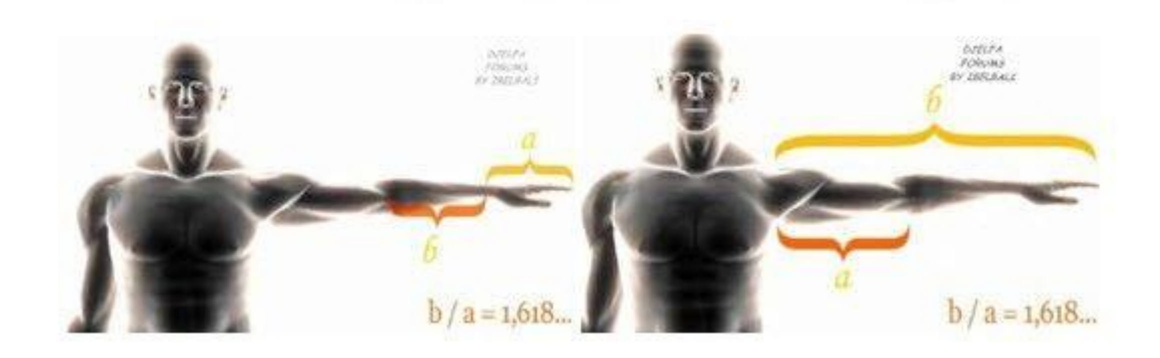
لقد تبين أن النسبة الذهبية كامنة في الطبيعة بشكل مذهل بما يصعب تصديقه، ومتواجدة في كل شيء من إنسان إلى الحيوان إلى النبات إلى الجماد.

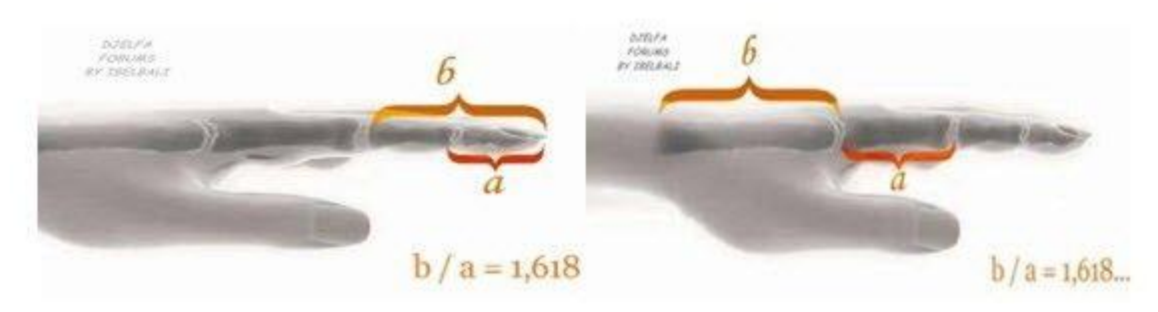
جسم الإنسان مبني بتقسيماته الهيكلية الأساسية وأبعاده الخارجية على النسبة الذهبية، في توازن مدهش بين كل أبعاد وتقسيمات جسم الإنسان. فالمسافة بين أعلى رأس الإنسان إلى أخمص قدميه مقسومة على المسافة من السرة إلى الأرض تعطي النسبة الذهبية، والخصر للأرض مقسوماً على الركبة للأرض تحقق النسبة الذهبية، والمسافة من الكتف لأطراف الأصابع مقسومة على المسافة من الكوع لأطراف الأصابع تعطي النسبة الذهبية.

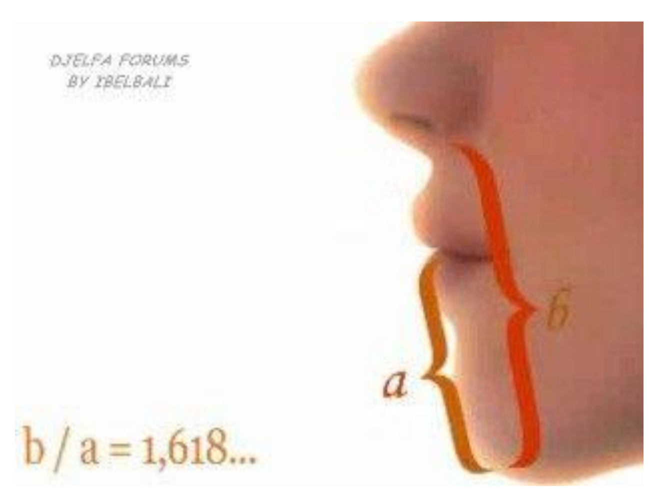
المسافة بين الورك الى الأرض مقسمة على المسافة بين الركبة والأرض تعطيك نفس الرقم الذهبي وحتى في وجه الإنسان وأدق التفاصيل تخضع للنسبة الذهبية.

كل ما في جسم الإنسان من سلاميات الأصابع وأصابع القدمين والحبل الشوكي ونسبة الوجه إلى الجسم كلها تعود إلى هذه النسبة في تناسق مدهش للأبعاد، وبالتالي فإن جسم الإنسان مع هذا التناسق يعد مثالاً حياً للنسبة الذهبية:


DJELFA FORUMS BY IBELBALI
b / a = 1,618...
b
a
DJELFA FORUMS BY IBELBALI
b / a = 1,618...
a
b

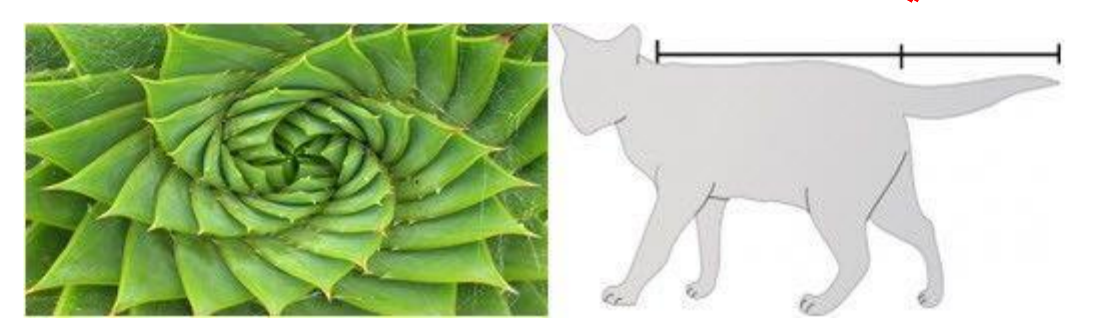

a
b
b / a = 1,618...
b
a
b / a = 1,618...


b
a
b / a = 1,618
b
a
b / a = 1,618...


DJELFA FORUMS
BY IBELBALI
b
a
b / a = 1,618...

ما سبق هي بعض الصور التوضيحية للتناسق الكبير في الجسم البشري المعتمد على النسبة الذهبية التي اكتشفها الإنسان.

النسبة الذهبية في النبات والحيوان



ونرى أيضاً النسبة الذهبية في جسم الحيوان، فلقد اكتشف علماء البيولوجيا خاصية غريبة تتعلق بمجتمعات النحل هي أن عدد الإناث في أي خلية يفوق عدد الذكور بنسبة ثابتة وهذه النسبة هي 1,618، ونجد هذه النسبة المتناسقة في الحلزون أيضاً وفي كثير من الحيوانات كالدلافين والفراشات.

النسبة الذهبيـة في فن العمارة عبر بعض العصـور:

الحضارة الفرعونية

هناك من ينسب أول معرفة للنسبة الذهبية للعصر الفرعوني ويدللون بذلك على استخدام الفراعنة لها في الأهرامات وخصوصاً الهرم الأكبر:



حيث أظهرت الدراسات الحديثة التي أجراها العلماء أن الهرم الأكبر خوفو يخضع لقوانين النسبة الذهبية، حيث إن النسبة بين المسافة من قمة الهرم إلى منتصف أحد أضلاع وجه الهرم، وبين المسافة من نفس النقطة حتى مركز قاعدة الهرم مربعة تساوي النسبة الذهبية.

ويشير هيرودوت إلى النسب القائمة في الهرم بقوله: "لقد أعلمني الكهنة المصريون أن النسب المُقامة في الهرم الأكبر بين جانب القاعدة والارتفاع كانت تسمح بأن يكون المربع المُنشأ على الارتفاع يساوي بالضبط مساحة كل من وجوه الهرم المثلثة"، ويشار أيضاً إلى أن غرفة الملك في هرم خوفو تحقق النسبة الذهبية.

الحضارة اليونانية

ظهرت أيضاً في الحضارة اليونانية القديمة عن طريق إحدى نظريات إقليدس.

وأظهرت الدراسات المعمارية الحديثة أن هيكل البارثينون – أكروبوليس أثينا يخضع لهذه النسبة، حيث وجد اليونانيون القدماء أن هذه النسبة مريحة بصرياً ومن أهم معايير الجمال في الطبيعة، ولذا فقد طبقوا هذا المستطيل الذهبي في عمائرهم.



هيكل البارثينون – أكروبوليس أثينا

الحضارة الإسلاميـة

جمال العمارة الإسلامية المبهر وتفاصيلها الدقيقة كان لا بد أن تقرن في بعض منها بأداة ومقياس الجمال النسبة الذهبية، فنرى العمارة الإسلامية مقترنةً بالنسبة الذهبية في عدة أمثلة:

جامع القيروان (جامع عقبة بن نافع) في تونس:

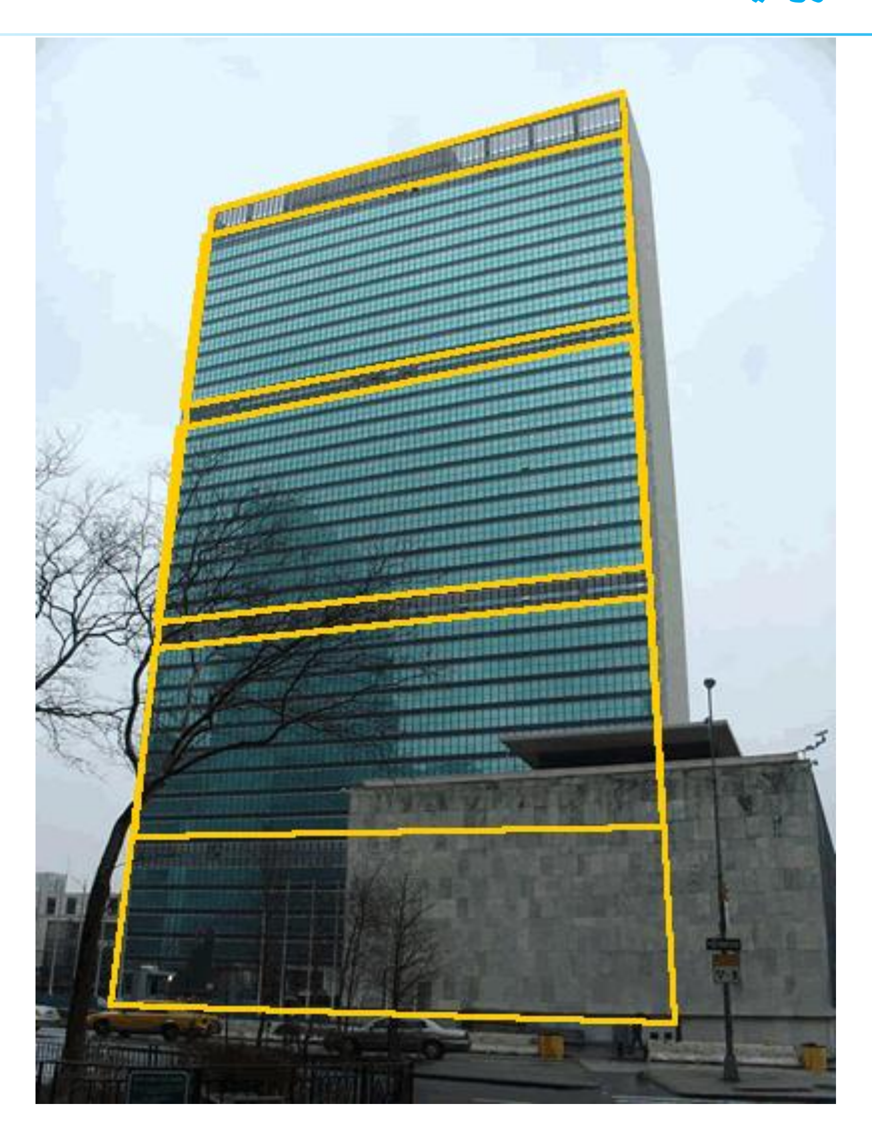
جامع القيروان الكبير تونس: مسجد عقبة بن نافع الذي تتواجد النسبة الذهبية في تصميمه متناسقةً بين معظم أرجائه، من المساحة الكلية إلى مساحة فناء المسجد حتى التناسب الواضح في مناراته.

تاج محل:

تاج محل الهند: ونسب الجمال المختلفة في تصميمه الخارجي.

العصر الحديث

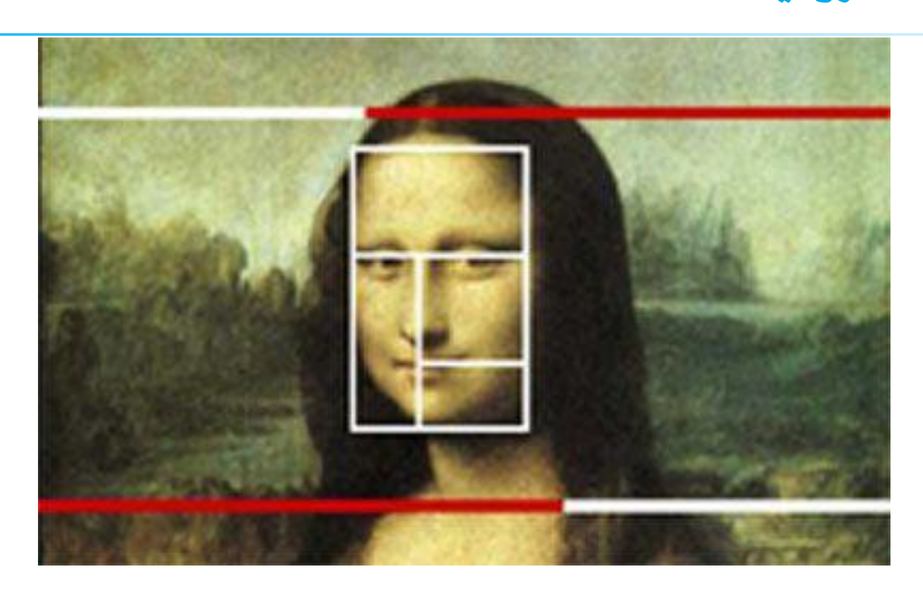
يشتهر المعماري المعروف لي كوربوزيه وماريو بوتا بتوظيفهما هذه النسبة الساحرة في كثير من أعمالهما، وتتواجد النسبة الذهبية في الكثير من المعالم حديثة النشأة ومن أهمها مبني الأمم المتحدة، وتظهر النسبة الذهبية فيه عند مقارنة عرض المبنى إلى الارتفاع لكل عشر طوابق فيه.



النسبة الذهبية في الفنون

فن الرسم

قام بعض مشاهير الرسم بمراعاة النسبة الذهبية في أعمالهم وهناك أمثلة على ذلك، قام ليوناردو دافينشي بمراعاة تلك النسبة في لوحتـه الشهيرة "موناليزا" وقد كان من المهتمين كثيراً بالنسبة الذهبية.



وأيضاً في لوحة العشاء الأخير نفس التناسق الرائع للنسبة الذهبية.

وأيضا كان الفنان لاورانس ألما–تاديما مهووساً بتلك النسبة ووظفها بشكل متكامل في لوحتـه (The Roses of Heliogabalus) وفي الرسم المعاصر، اشتهر الرسام (سيلفادور دالي) باستخدام النسبة الذهبية وبالأخص في لوحته (The Sacrament of the Last Supper) التي تحوي عدداً من الاستخدامات لها. إلى جانبه يأتي "موندرين" فنراها في رسوماته مثل "Broadway Woogie. Boogie"و الـ"Comp RYB"

فن التصوير الفوتوغرافي



يعتمد التصوير الفوتوغرافي في المقام الأول على حس الخيال الواسع والتذوق الفني، وإن تم تطبيق النسبة الذهبية فيه فسيعطي انطباعات خيالية وسيعبر بشكل كبير عن أحاسيس الصورة.

وهناك عدة أساليب لتطبيق النسبة الذهبية في الصور:

1- الأثلاث الذهبية: مشابهة لقاعدة الأثلاث الشهيرة ولكن الأبعاد ليست متساوية تماماً بل هي على قدر (1:618:1). وعلى هذا التقسيم يتم تحديد موضع الجسم المراد تصويره. بحيث يكون العنصر الأهم موجوداً بالضبط على أحد تقاطعات الخطوط الأربعة.

2-المثلثات الذهبية: ملائمة أكثر للصور ذات الخطوط المائلة. هنالك مثلثات ثابتة وعليه يضع المصور أجسامه بشكل تقريبي بمحاذاة تلك المثلثات والخطوط الذهبية.

3-الالتواء الذهبي: يجب أن يكون هنالك شيء ما في الصورة يتبع هذا الالتواء الذهبي ويقود العين نحو المركز.



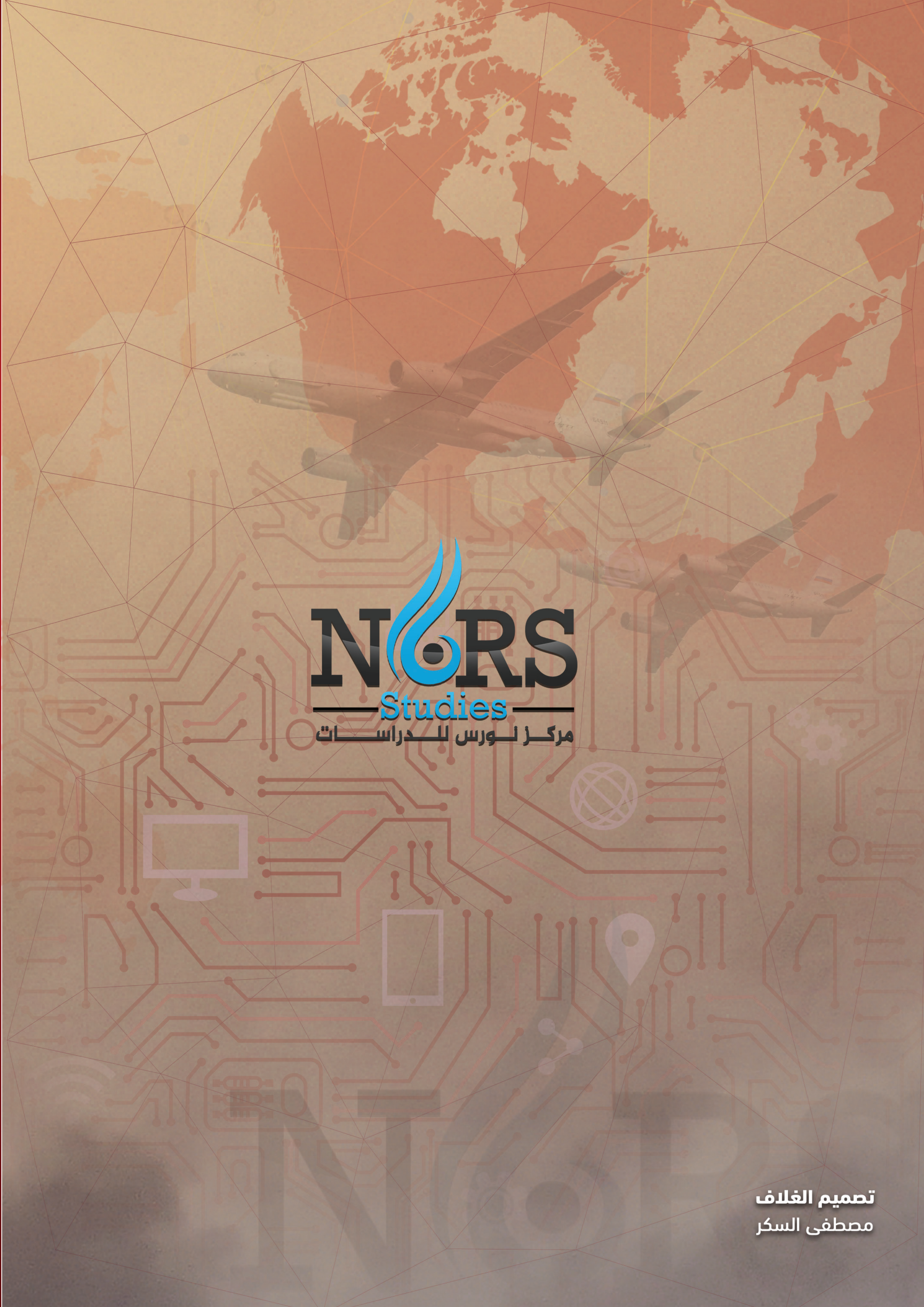
المثلثات الذهبية للخطوط المائلة



الالتواء الذهبي

المحتويات


NORS
Studies


NORS
Studies
مركز نورس للدراسات
تصميم الغلاف
مصطفى السكر